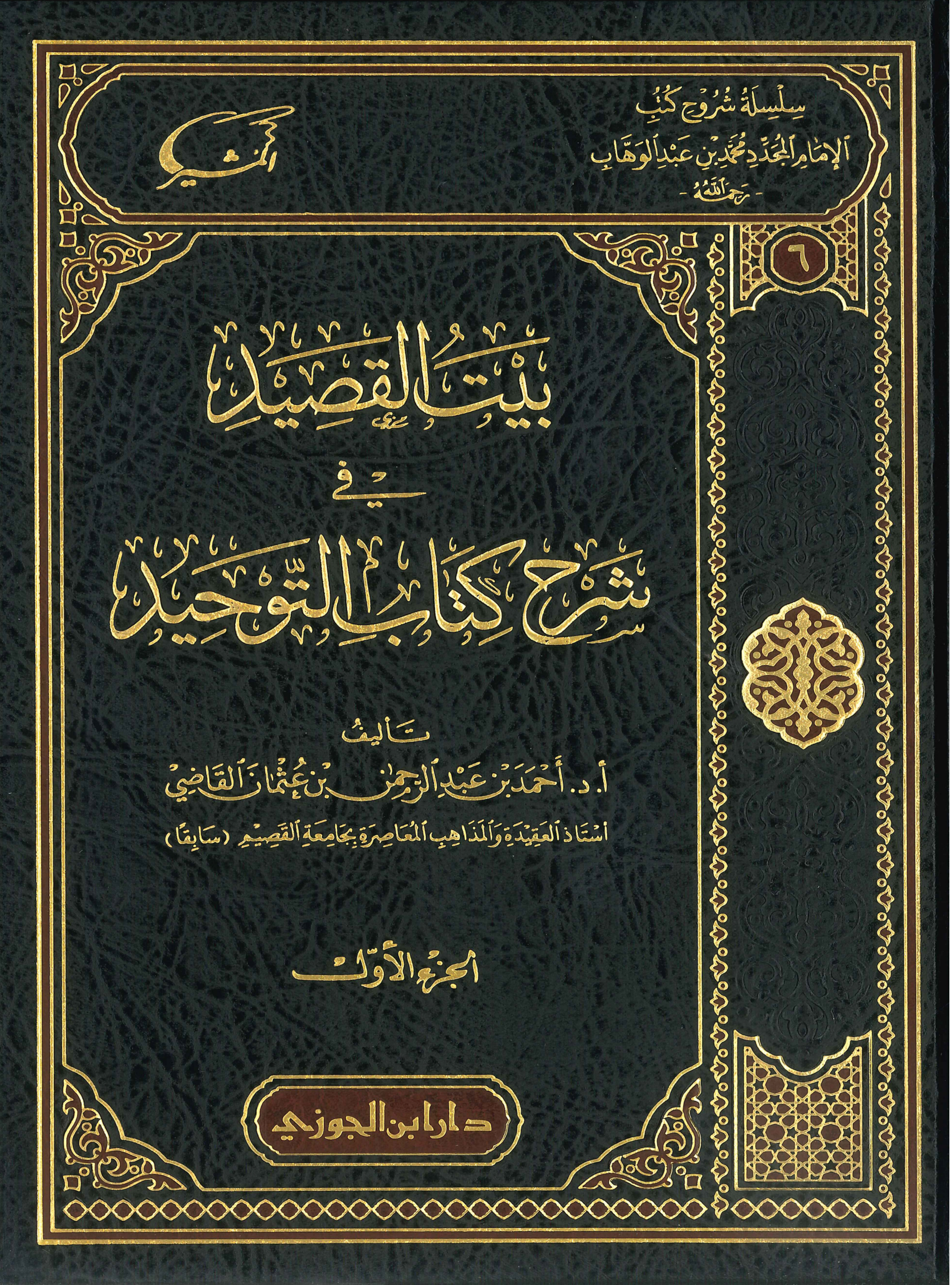
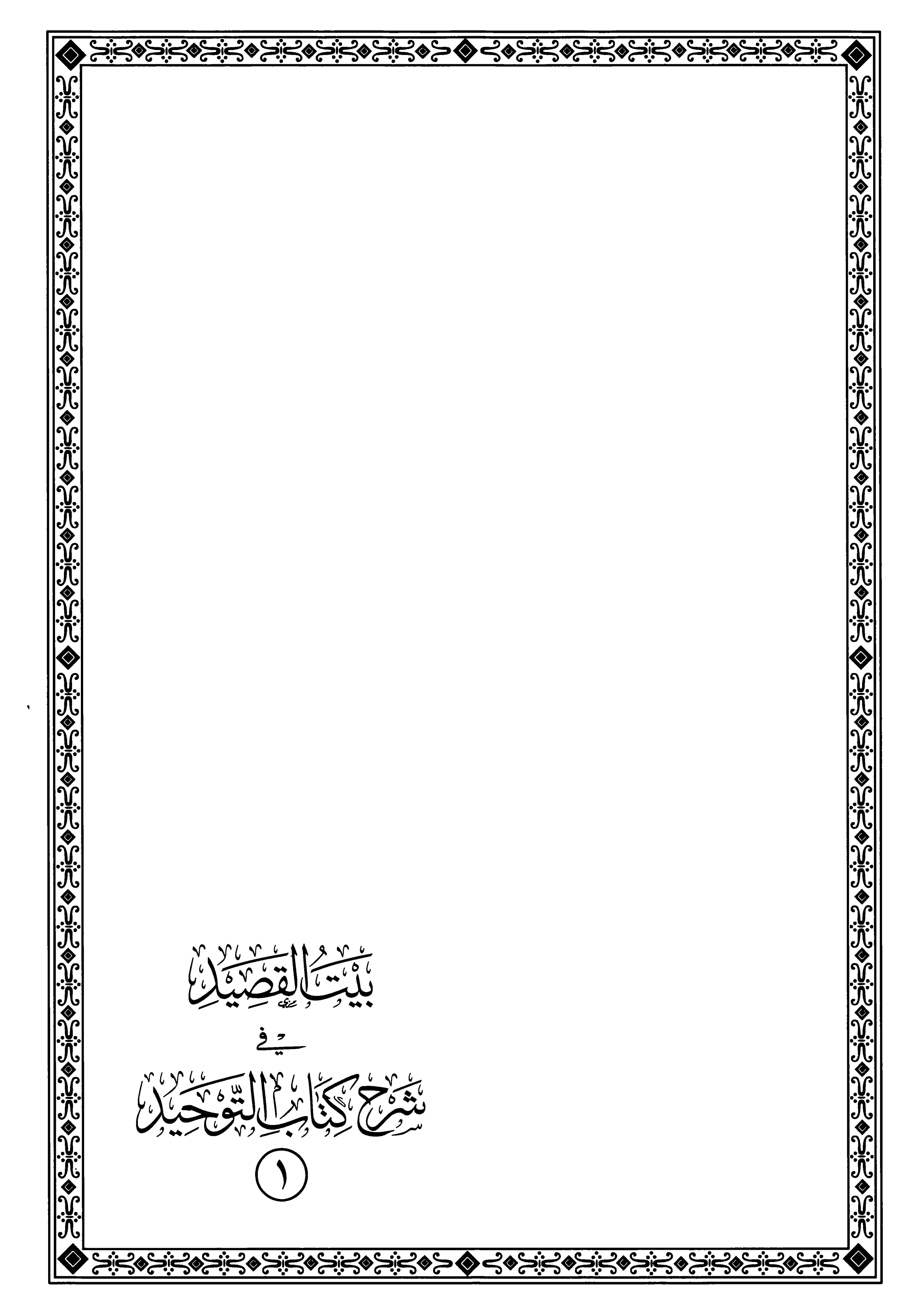

سلسلة شروح كتب
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
- رحمه الله -
٦
بيت القصيد
في
شرح كتاب التوحيد
تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)
الجزء الأول
دار ابن الجوزي



بيت القصيد

في

شرح كتاب التوحيد

(١)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

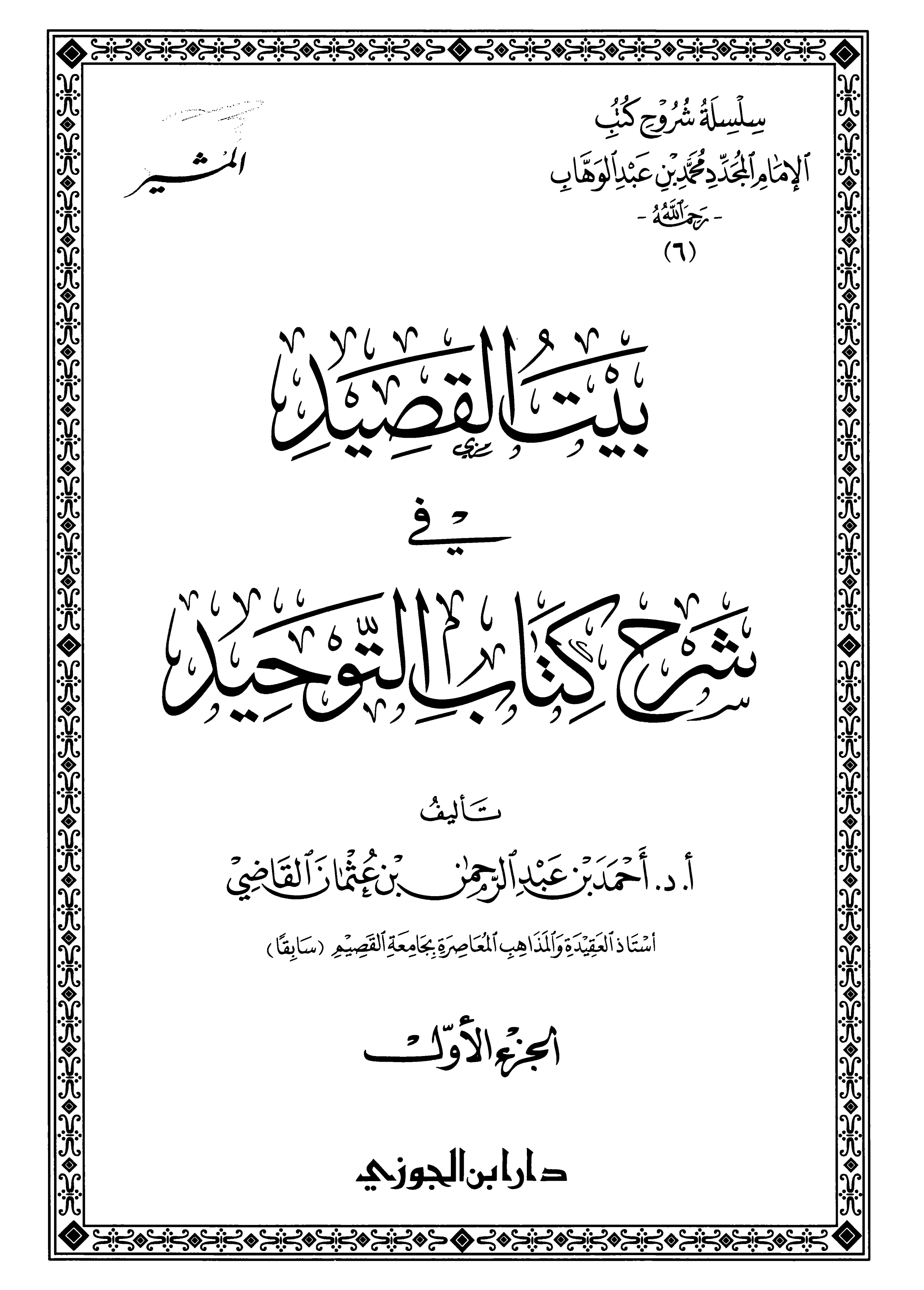
aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، أحمد عبد الرحمٰن
بيت القصيد في شرح كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب مجلدين./
أحمد عبد الرحمٰن القاضي.- الدمام، ١٤٤٢هـ
٢مج.
ردمك: ٨ - ١٤ - ٨٣٣٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٥ - ١٥ - ٨٣٣٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)
١ - التوحيد ٢ - العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٢/٨٠٣٣

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038338148





سِلْسِلَةُ شُرُوحِ كُتُبِ
الإمامِ المجدِّدِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ
- رحمه الله -
(٦)

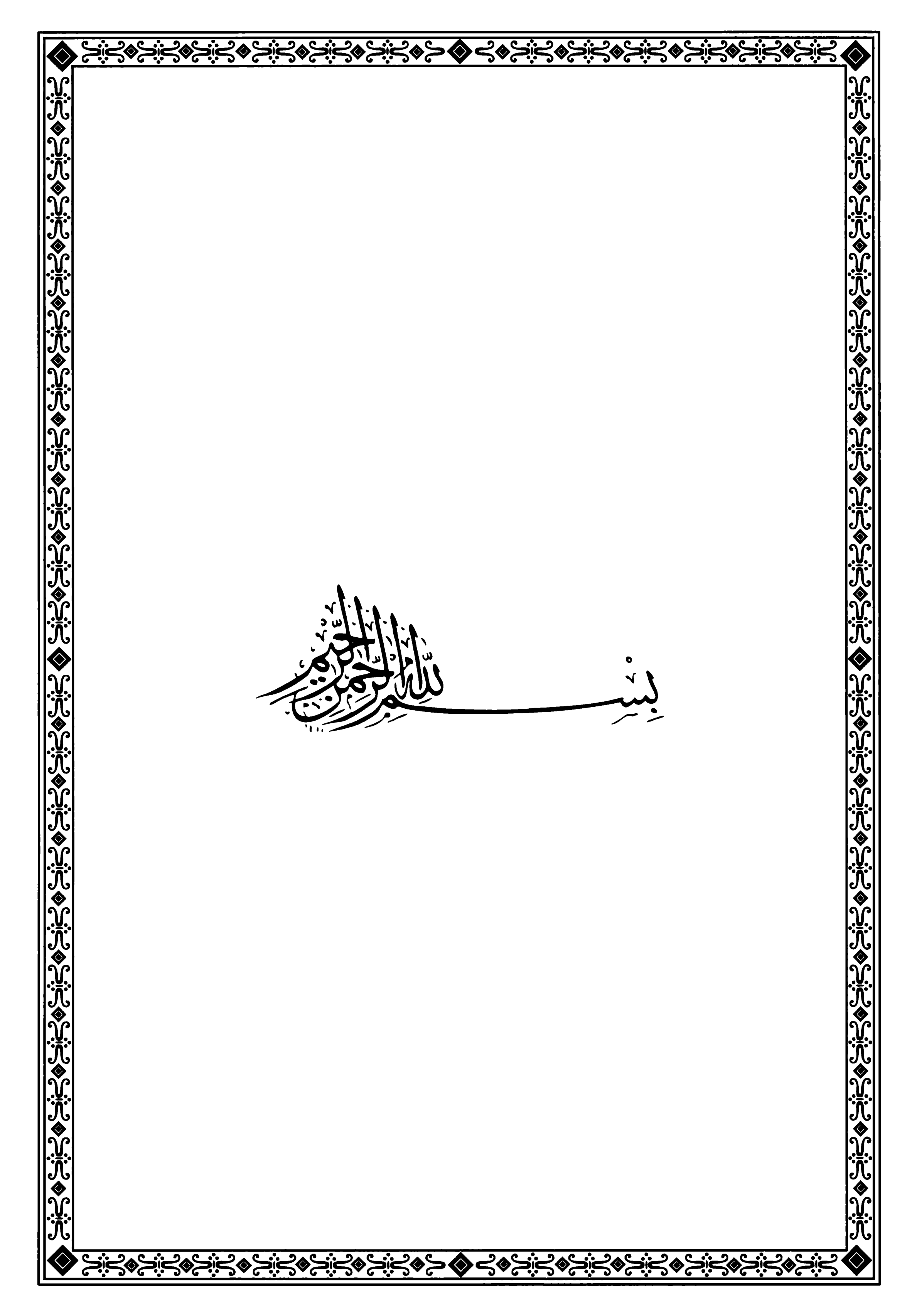
المشير

بَيْتُ القَصِيدِ
فِي
شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)

الجزء الأوّل

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك الله، القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، القائل: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**». **أما بعد:**

فإن الله تعالى لم يخلق الخلق ليستكثر بهم من قلَّة، ولا ليستعزَّ بهم من ذلَّة، وإنما خلقهم لعبادته، وتوحيده، فكلما حادت البشرية عن هذه الغاية، أرسل الرسل، وأنزل الكتب لردها إلى الجادة، ولزوم الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣] فما من نبي إلا بادأ قومه بهذه الدعوة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، حتى آلت النوبة إلى خاتمهم وأفضلهم، نبيّنا محمد ﷺ، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥]، فلم يقبضه الله، حتى أقام به الملَّةَ العَوْجاءَ، فقالوا: لا إلٰه إلا الله، ففتحَ بها أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً. ولما استوت به ناقته على البيداء، في حجة الوداع، أَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: «**لَبَّيْك اللَّهُمَّ لَبَّيْك، لَبَّيْك لَا شَرِيك لَك لَبَّيْك، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْك، لَا شَرِيكَ لَك**».

ولم يزل هذا المنهج السديد، والمهيع الرشيد، في الدعوة إلى التوحيد،

سبيل الأئمة المجددين، الهداة المهتدين، يتعاهد الله بهم الأمة كلما نبتت نابتة الشرك والبدعة، فيقيض مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ.

وحين حلَّ القرن الثاني عشر الهجري، كانت الأقاليم الإسلامية مرتعاً خصباً للطرق الصوفية، والبدع القبورية، وانطمس نور التوحيد، وغشى كثيراً من الناس ظلام الشرك(١). فأنشأ الله عبداً من عباده في بيت علم، وفقه، ودين، فطوّف البلدان، واجتمع بمشايخ الزمان؛ في نجد، والعراق، والحجاز، والأحساء، وعلّمه مما يشاء. فامتلأ قلبه حرقةً على ما آل إليه حال الناس من العكوف على القبور، ودعاء الوسائط والأنداد، وأمده بروح منه لمواجهة فساد الاعتقاد، وهيأ له من الأسباب ما تمكن به من بعث بشاشة التوحيد في القلوب، وكشف الشبهات عن العقول. حتى عاد الدين غضّاً نقيّاً خالصاً من الشوب. لقد كان ذلك الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي، (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) رحمه الله رحمة واسعة(٢).

وكان من أجلِّ، وأنفع ما كتب: «كتاب التوحيد»، الذي خرج من رحم المعاناة، واستمد مادته من الواقع والمشاهدات، فقد ألّفه حين كان في البصرة، في بعض رحلاته العلمية، وفي تلك الفترة أبصر ما عليه الناس من أخطاء، وانحرافات عقدية، فحمله ذلك على أن يصنف هذا الكتاب، ويضمنه ستّاً وستين باباً تتعلق بأنواع التوحيد الثلاثة؛ الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وما يضاد ذلك من أنواع الشرك؛ الأكبر، والأصغر، والخفي، وبيان الطرق المفضية إليه، وبيان حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده الطرق الموصلة إلى الشرك.

ثم أتبع القول بالعمل، فصار يُنكر على الجهال ما يقعون فيه من أمور شركية، فما كان منهم إلا أن طردوه، وأخرجوه من البصرة، وقت الهجيرة، حتى

---

(١) انظر في وصف ذلك: الفصل الأول من تاريخ نجد المسمى (روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام) لحسين بن غنام، تحقيق وتحرير: ناصر الدين الأسد (١/ ١٠، ١٩).
(٢) انظر في سيرته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المرجع السابق (١/ ٧٥ ـ ٨٥).

كاد أن يهلك عطشاً، لولا أنّ الله تعالى ساق إليه رجلاً، فحمله إلى بلدة الزبير.

وقد كتب الله القبول لهذا الكتاب، فانتشر في الآفاق، وفرح به الموحِّدون في أرجاء الأرض، وأصلح الله به عقائد فئام من الناس، في مختلف البلدان، وأخرجهم الله به من ظلمات الشرك والبدعة، إلى نور التوحيد والسُّنَّة. واشتغل به العلماء، ولا زالوا، شرحاً وتدريساً، حتى أحصى بعض الباحثين سبعين شرحاً مطبوعاً. فللَّه الحمد والمنة.

وقد تميز «كتاب التوحيد» **بجملة من المزايا**:

أولاً: أنه أول كتاب جامع أُفرد في بابه. وما كان قبله في مسائل التوحيد، فإما أنه ضمن غيره من مسائل الاعتقاد، وإما أنه غير جامع[1].

ثانياً: الاستيعاب، والشمول لكثير من مسائل الاعتقاد العلمية، والعملية، واللفظية.

ثالثاً: سلوك طريقة المتقدمين من المصنفين؛ بوضع تراجم للأبواب، وإدراج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية تحتها، وعدم خلطها بكلام المصنف، وغيره، إلا فيما دعت إليه الحاجة من الإيضاح.

رابعاً: استنباط المسائل من النصوص في كل باب، للتنبيه على دلالاتها العقدية. وهذه المسائل التي ذيَّل بها الأبواب، والتراجم التي صدَّرها بها، هي التي تكشف فقه المصنف العقدي، فلا يسوغ حذفها بحال.

والناظر في تراجم الكتاب البالغة ستّاً وستين، **يجد أنها على ضربين**:

١ ـ **تراجم تقريرية**: تدل على حكم ثبوتي؛ كقوله: (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)، أو منفي؛ كقوله: (باب لا يقال: السلام على الله).

٢ ـ **تراجم موضوعية**: تدل على موضوع معين، وقد جاءت على **أنحاء متنوعة**:

ـ **(باب كذا) مثل: (باب الشفاعة).**

---

(١) ومن أقربها له كتاب (تجريد التوحيد المفيد)، للمقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ، لكنه لا يبلغ مبلغه في التنوع وحسن التبويب.

ـ (باب قول الله تعالى كذا): وتبلغ أربعة عشر باباً.

ـ (باب ما جاء في كذا): وتبلغ ثلاثةً وعشرين باباً، وغالباً ما يكون التقدير: باب ما جاء من الوعيد في كذا، ومنها ما يحتمل التفصيل.

ـ (باب قول كذا) مثل: (باب: قول ما شاء الله وشئت)، (باب: قول اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت).

ـ (باب من فعل كذا) مثل: (باب من تبرك بشجر، أو حجر ونحوهما)، و(باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول).

وهذا التنوع في الصياغة يدل على فقه المصنف، وسعة اطلاعه واستيعابه لمسائل التوحيد، كما أنه يشحذ ذهن القارئ للنظر والتأمل.

وقد انتقد على كتاب التوحيد، ذكر بعض الأحاديث والآثار الضعيفة، فمنها ما لا يسلم بضعفه؛ بل قد وقع الخلاف في تصحيحه وتحسينه، ومنها ما ذكره المصنف جرياً على طريقة المتقدمين من المحدثين من إخراج الحديث الثابت أصله، المتعدد طرقه، وشواهده، كما يظهر ذلك جليّاً في كتب العقيدة المسندة؛ ككتاب السُّنَّة للإمام أحمد، وكتابي الدارمي، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وغيرها كثير[(١)].

وكان من فضل الله عليَّ وتوفيقه، أن شرحت هذا الكتاب المبارك في بعض الدروس العلمية المتتابعة. ثم جرى استنساخ مادته من الأوعية الصوتية، فأعدت النظر في صياغته، وإصلاح عبارته، وتخريج أحاديثه وآثاره، وتكميل نقصه، وتحرير بعض مشكله، بما يقتضيه الإخراج العلمي، **وسمَّيته:**

(بيت القصيد في شرح كتاب التوحيد)

وقد سلكت في شرح هذا الكتاب المبارك طريقة وسيطة، **تتضمن:**

- **بيان معنى الترجمة (أي: عنوان الباب)، إن لزم الأمر.**

---

(١) انظر في هذا: (إضاءة) في كتاب الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد، للشيخ صالح بن عبد الله العصيمي (ص١١ ـ ١٣)، ط. دار ابن خزيمة ١٤١٣هـ، وانظر أيضاً كتاب: تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد، للشيخ فريح بن صالح البهلال، ط. دار الأثر ١٤١٥هـ.

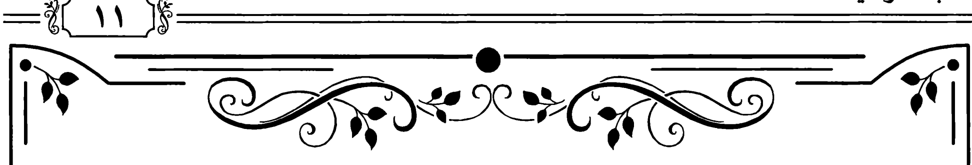
- ذكر مناسبته لكتاب التوحيد.
- شرح الآيات القرآنية؛ ببيان مفرداتها، ودلالاتها.
- شرح الأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة والتابعين، بتخريجها، والحكم عليها، وبيان مفرداتها، ودلالاتها.
- بيان مناسبة النص (الآية، أو الحديث، أو الأثر) للباب.
- استنباط ما فيه من فوائد.
- التنبيه على النوازل العقدية المماثلة، من حوادث الزمان.
- التنبيه على اللطائف الإيمانية والتربوية، التي يحتاج إليها المؤمن عموماً، وطالب العلم خصوصاً.
- التعليق على المسائل التي استنبطها المصنف في كل باب.

واللهَ أسأل، أن يجزي شيخ الإسلام، الإمام المجدد، محمد بن عبد الوهاب، خير الجزاء، على جهاده في ذات الله، لإعلاء كلمة الله، وإخلاص الدين لله، ونفع عباد الله. وأن يبارك في هذا الشرح: ويجعله خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه العبد الفقير
أ.د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي
١/ربيع الآخر/١٤٤٢هـ





كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

الشرح

وقع في بعض النسخ: (بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله، وصلَّى الله على محمد، وعلى آله وسلم) وفي أخرى زيادة: (وبه أستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله)(١)، وقد تقدم شرح هذه المفردات في الأصول الثلاثة، وغيرها.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كتاب التوحيد)**: شرع الشيخ في كتابه دون أن يصنع له مقدمة، وكأنّ هذه الترجمة تغني عن المقدمة؛ أي: أنَّ موضوع هذا الكتاب الذي بين يديك ـ أيها القارئ ـ هو توحيد رب العالمين.

فموضوعه: بيان التوحيد بأنواعه الثلاثة، **وهي**:

- توحيد الربوبية.

(١) انظر: مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب. القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية (١/٧)، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

- توحيد الألوهية.
- توحيد الأسماء والصفات.

وبيان ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، أو ينافي مقاصده من البدعة، ونحوها. فالتوحيد هو موضوع هذا الكتاب، ومضمونه بيان حقيقة التوحيد، وبيان ما ينافيه؛ لأنه كما قيل: وبضدها تتبيّن الأشياءُ[1].

والناظر في هذا الكتاب، على سبيل الإجمال، يرى أنّ الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ قد جعل:

- بعض الأبواب تُعالج ما ينافي التوحيد من أصله، وهو الشرك الأكبر.
- وبعض الأبواب تُعالج ما ينافي كماله الواجب، وهو الشرك الأصغر.
- وبعض الأبواب تُعالج ما يفضي إلى الوقوع في الشرك، ويحمي جناب التوحيد، وهو ما يتعلَّق بسد الذرائع.

وبالجملة، فعموم أبواب هذا الكتاب تدور حول هذه المقاصد الثلاثة.

وكلمة **(كتاب)**: مأخوذة من الكَتْب، وهو الجمع، كما يقال: كتيبة، لجماعة الجيش، وكما يقال: تكتّب بنو فلان، إذا اجتمعوا، وإنما سُمي الكتاب كتاباً لاجتماع الحروف والكلمات والجمل.

و**(التوحيد)**: فهو في اللغة: مصدر وحّد يُوحد توحيداً، والمقصود به: جعل الشيء واحداً، لكنه في هذا المقام، معناه: اعتقاد الله واحداً، لا جعل الله واحداً؛ إذ الله واحد، سبحانه، بالضرورة.

وأما في الاصطلاح: فهو إفراد الله تعالى بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ هذا النوع من الاستثناء: يُسمي استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو أبلغ ما يكون في الحصر، حيث يأتي النفي العام، ثم يتلوه الاستثناء. فانحصرت حكمة الخلق في العبادة، فـ**(ما)**:

---

(١) عجز بيت، للمتنبي، وصدره: (ونَذِيمُهم وبهم عرفنا فضله) في ديوانه (١/ ٢٢).

نافية، ومعنى **(الخلق)**؛ أي: الإنشاء من العدم، وربما أتى الخلق بمعنى: التصوير، والتكوين؛ كقول الله ﷻ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤] فإذا أُضيفتْ (خلق) إلى غير الله ﷻ، فالمراد به التصوير، والتكوين.

وأما الخلق الذي يتعلّق بالله ﷻ فيشمل المعنيين:

ـ الإنشاء من العدم: وهذا لا يشاركه فيه أحد ـ سبحانه وبحمده ـ، فالله خالق كل شيء، فليس إلا خالق أو مخلوق؛ فالله الخالق، وما سواه مخلوق.

ـ التصوير، والتكوين، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] ومن أسمائه الحسنى: المصور.

أما ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: فهما الثقلان، اللذان ابتلاهما الله ﷻ بعبادته، وجعلهما عماراً لهذه الأرض.

فالجن: عالم غيبي، غير مرئي بالنسبة لنا، كما قال الله تعالى عن إبليس: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقبيله: هم الجن؛ لأن إبليس من الجن، كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]. والجن يفترقون عن الإنس بأن الله تعالى خلقهم من نار، وهم ـ كما نحن ـ عبادٌ مكلّفون، ولكن الله تعالى لم يبعث فيهم رسلاً؛ بل جعلهم تبعاً للإنس، وبعث فيهم نُذُراً، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ فمنهم نُذُر، وليس منهم رسل؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] فأنبياؤهم هم أنبياء بني آدم، فهم مأمورون باتباع الأنبياء. وقد جاء أكثر من وفد من الجن للقاء النبي ﷺ، ومنهم وفد جن (نَصِيبين)[(١)]، ووردت أحاديث عدة، تثبت لقاء النبي ﷺ بداعي الجن، وماذا جعل لهم؟ وبماذا أمرهم؟ وأبلغ سورة عَرَّفت بهم، ودلت عليهم، سورة الجن، فمن قرأها بتمعنٍ، علم طبيعة هذا الخَلْق، وأنهم عبادٌ من عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا يملكون تدبيراً، ولا صرفاً، ولا عدلاً، مما يعتقده العوام، ويبالغون فيه، ويهولونه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن برقم (٣٨٦٠).

وأما الإنس: فهم ذريّة آدم عليه السلام، فقد أهبطه الله تعالى وزوجه إلى الأرض، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء. فهاتان الخليقتان؛ الجن والإنس، ما خلقهما الله عز وجل إلا لعبادته.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: إلا ليوحّدون»، وقال البخاري في كتاب التفسير، في «صحيحه»: (مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ)[1]. قال ابن حجر: (هُوَ قَول الْفراء، وَنَصره ابن قُتَيْبَةَ فِي مُشْكِلِ الْقُرْآنِ لَهُ)[2]؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا حين يُفرَد الله تعالى بها، وأما إذا كان فيها شرك فلا تُسمى عبادة، قال ربنا عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[3].

مناسبة الآية للباب:

مناسبةٌ ظاهرة؛ إذ أنّها دلت على وجوب توحيد الله، وإفراده بالعبادة؛ وأن الحكمة من الخلق هي إفراد الله تعالى بالعبادة.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

٢ ـ بيان الحكمة من خلق الجن والإنس، فالله تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثاً؛ بل خلقهما لحكمة بالغة، وبثّ فيهما الإنس والجن؛ ليعمروها بعبادته.

٣ ـ إثبات الحكمة والتعليل؛ خلافاً لمن نفاهما من المتكلمين، فأهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون أنّ الله تبارك وتعالى لا يفعل إلا لحكمة، وأن مشيئته مقرونة بحكمته، خلافاً لمن زعم من الأشاعرة: بأنه يفعل لمحض المشيئة، وقد بيّن ابن القيم رحمه الله هذا بياناً شافياً، في كتابه القيّم «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٣٩). (٢) فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٦٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله برقم (٢٩٨٥).

٤ ـ غنى الله ﷻ عن الخلق؛ لأنه قال أثرها: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، فالله تعالى غنيٌّ عن خلقه، لا يستكثر بهم من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة.

نقل الشيخ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

فقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾: ؛ أي: أرسلنا؛ فالبعث بمعنى الإرسال.

وقوله: ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ الأمة: تطلق على الطائفة الكبيرة من الناس، كما يقال: أمة العرب، وأمة الفرس، وأمة الروم. والله تعالى يبعث الرسل في أمهات القرى، التي تجمع قرى تلك الأمة؛ لأنها مقصدهم، وملتقاهم، ويحصل من جراء ذلك انتشار دعوة ذلك النبي المرسَل.

قوله: ﴿رَّسُولًا﴾: الرسول هو من أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه لقوم مخالفين.

قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحِّدوه، وأفردوه بالعبادة.

قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: اتركوه، وجانبوه، بأن يكون الطاغوت في جانب، وأنتم في جانب. و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ مشتق من الطغيان، وهو التجاوز، كما قال الله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: تجاوز حده ومنسوبه. فهو كل ما تجاوز به العبد حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو مطاعٍ.

مناسبة الآية للباب:

مناسبةٌ ظاهرة؛ لأنها تضمَّنت الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ومجانبة الشرك.

فوائد الآية:

١ ـ بيان الحكمة من إرسال الرسل، وهي الدعوة إلى توحيد الله؛ فالرسل لم يأتوا ليصلحوا جانباً فرعيّاً من جوانب الحياة، ولا ليكونوا مجرد مصلحين اجتماعيين، أو اقتصاديين، أو ما أشبه هذا ـ فهذا يأتي تبعاً ـ وإنما مهمتهم الرئيسة: الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وعبادته، ومع ذلك، فإنهم يعنون بمعالجة

الانحرافات الفاشية في الأمة التي أُرسِلوا إليها. **مثال ذلك:**

- لوط عليه السلام جاء بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل، بالإضافة إلى معالجة الانحراف والشذوذ الذي كان فاشياً في قومه، من إتيان الذكران من العالمين.

- شعيب عليه السلام جاء بالدعوة إلى توحيد الله، بالإضافة إلى معالجة الانحراف الاقتصادي، الذي كان فاشياً فيهم، وهو تطفيف المكيال والميزان. وهكذا بقية أنبياء الله، فإنهم لا يغفلون جوانب الإصلاح الأخرى، لكن مهمتهم الرئيسة هي الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وإصلاح المعتقد.

٢ - أنّ دين الأنبياء واحد، وهو الإسلام، فجميع أنبياء الله جاؤوا بالدعوة إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ولم يتخلَّف نبي واحد عن الدعوة إلى توحيد الله، فلهذا كان دين الله واحداً، وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وليس لله عدة أديان، كما يتوهم بعض الناس، فيظن أنّ لله ديناً يُسمى اليهودية، وديناً يُسمى النصرانية، بالإضافة إلى دين الإسلام! بل ما جاء به الأنبياء دين واحد، وهو الإسلام، ولكنه الإسلام بالمعنى العام، الذي يعني: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، والبراءة من أهله، وإنما يختلف الأنبياء في الشرائع؛ في الحلال والحرام، وأما أصول الإيمان، وأصول العبادات، وأصول المعاملات، وأصول الأخلاق، فإنها متفقة.

فإن قال قائل: فما اليهودية؟ وما النصرانية؟

فالجواب: أنَّ اليهودية: ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الأحبار. والنصرانية: ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان. ولأجل ذا، برَّأ اللهُ منهما إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]. ومعاذ الله أن يبرئ الله خليله إبراهيم، من دين يرتضيه. فاليهودية والنصرانية ليستا ديناً لله عز وجل، وإنما هما انحراف عن الدين الأصلي، الذي بعث الله تعالى به الأنبياء. ولهذا سفَّه تعالى من خالف ملة إبراهيم.

٣ ـ شمول الرسالات لجميع الأمم، وإقامة الحجة الرسالية على كل الخلق؛ لقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾، ولفظ (كل) من ألفاظ العموم، فلم يبقَ أمة على وجه الأرض، إلا وبعث الله تعالى فيها رسولاً، فقد أقام الله الحجة الرسالية على جميع الآدميين؛ ولأجل ذا قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فليس شيء يمكن أن يحتج به البشر على الله، إلا أن يقول قائلهم: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، فقطع الله الحجة على الخلائق ببعثة الأنبياء والمرسلين.

نقل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: **القضاء نوعان:**

١ ـ قضاء كوني.

٢ ـ قضاء شرعي.

فقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]؛ يعني: قدرهن، فهذا قضاء كوني، وأما قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فهذا قضاء شرعي، فلو كان قضاء كونيّاً لما تخلّف؛ ولأصبح جميع الناس موحدين، بررة، لكن الواقع يدل على أن أكثر الناس مشركون عَقَقَة. فمعنى: (قضى) هنا؛ أي: أمر ووصّى، فهو قضاء شرعي، لا قضاء كوني.

(والرب): هو المالك الخالق المدبر؛ أي: الذي ربّى عباده بنعمه سبحانه.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ يعني: أن تعبدوه، ولا تعبدوا أحداً غيره، فهي تحمل معنى النفي والإثبات المضمَّن في (لا إله إلا الله).

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وهذا يدل على عظم حق الوالدين؛ لأن الله تعالى قرن حقهما بحقه، ولأجل ذا قال نبيُّنا ﷺ: «**لا يجزي ولد والده، إلا أنّ يجده مملوكاً، فيشتريه، فيعتقه**»[(١)]، بهذا يمكن أن يبلغ بره، بأن يجده رقيقاً يُباع ويُشترى، فيعتقه بحُرِّ ماله، فيكون سبباً في حريته، كما كان أبوه سبباً في ولادته.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب بر الوالدين برقم (٣٦٥٩)، وأبو داود في أبواب النوم، باب في بر الوالدين برقم (٥١٣٧) وصححه الألباني.

وحق الوالدين عظيم، وقد دلت الآيات على صفة بر الوالدين.

وكلمة (**إحساناً**): نكرة، تشمل جميع صور الإحسان، القولي، والفعلي، والمعنوي، والمادي.

قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: نبّه الله ﷻ على حال الكبر؛ لأن الوالدين المسنِّين، يكثر ضجرهما، وعتبهما، ومطالبهما، ويضيق عطنهما، فربما تأفف الابن، أو البنت، من كثرة المطالب والعتب، فندبه الله ﷻ إلى الصبر والاحتمال، وأن يعقل الإنسان لسانه حتى عن قوله: (أف). والنهر: رفع الصوت بالكلام على سبيل التذمر.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾: والقول الكريم: أن ينتقي كلامه كما ينتقي آكل التمر أطايبه، فيختار أحسن الكلمات الممكنة؛ فيخاطب بها والديه.

قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾: هذا نوع تشبيه وكناية، فكما أنّ الطائر يخفض جناحه لصغاره، رحمةً وشفقةً، فأنت كذلك ـ أيها الولد ـ اخفض جناحك، وترفق بوالديك.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: تأمّل، وتذكر حالك عندما كنتَ في سن الصغر، وحاجتك الماسة للرعاية والرفق، كيف كان أبواك يحوطانك ويرعيانك، ويسعيان في مصالحك، ويسهران لأجلك، ولا يهنئان بمنام، ولا طعام، وأنت تتألم، أو تبكي، وربما سهرا الليالي، وكدحا الأيام، في سبيل مصالحك، فلهذا نبّه، فقال: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

والشاهد من هذه الآية هو قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

⁂ مناسبة الآية للباب:

ظاهرةٌ جدّاً؛ إذ أنّ الله تعالى أمر، ووصّى بعبادته وحده، دون ما سواه، وجعل ذلك أعظم الحقوق.

فوائد الآيات:

١ ـ أنّ أول واجب على المكلفين هو التوحيد؛ لأن الله تعالى بدأ به،

خلافاً لما ادعاه المتكلمون، من أن أول واجب على العباد هو النظر، أو القصد إلى النظر، أو الشك، فكل ذلك باطل، لم يأتِ به دليل. فأول ما يؤمر به العبد أن يُقال له: اعبد الله.

٢ ـ عظم حق الوالدين؛ لأن الله تعالى قرن حقهما بحقه.

٣ ـ وجوب برهما، والإحسان إليهما، قوليّاً، وعمليّاً.

٤ ـ تحريم عقوقهما قوليّاً، وعمليّاً.

قوله: وقول الله ﷻ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أمر بعبادته سبحانه، وأردف ذلك بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾ ومعنى **الشرك**: تسوية غير الله بالله، فيما هو من خصائص الله، أو من حقوق الله. ولذلك كان الشرك يتعلق بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

فالواجب أن نُوحد الله في ربوبيته: فلا نعتقد خالقاً سواه، ولا مالكاً سواه، ولا مدبراً سواه، ونوحده في ألوهيته: فلا نصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره، ونوحده في أسمائه وصفاته: فلا نعتقد مثيلاً له في اسم من أسمائه، أو في صفة من صفاته، أو فعل من أفعاله.

و﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: نكرة في سياق النهي، والنكرة في سياق النهي تدل على العموم، فأي لون من ألوان الشرك فهو مدفوع، مردود، باطل.

مناسبة الآية للباب:

بيِّنٌ ظاهر؛ لأنها تضمَّنت الأمر بتوحيد الله ﷻ، والنهي عن الشرك.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب إفراد الله بالعبادة. فيا عجباً لخلق من خلق الله، يعيش في أرض الله، ويأكل من رزق الله، ويعبد غير الله! إنّ هذا لظلم عظيم.

٢ ـ تحريم الشرك؛ قليله وكثيره؛ فالشرك كله حرام، سواء كان شركاً أكبر، أو شركاً أصغر.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

الشرح

قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾: اسم فعل، بمعنى: هلموا، وأقبلوا، فنحن أصحاب المبادرة، ندعو غيرنا، لا ننتظرهم أن يأتوا إلينا؛ بل نقول لهم: هلموا، وأقبلوا إلى ديننا، وهو دين الأنبياء، والمرسلين، والدعاة، والمصلحين، الذي مضمونه ما في هذه الآيات. ومعنى ﴿أَتْلُ﴾: أقرأ، وأقُص، وأُخبر.

قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ففيما يلي بيان لأمهات المحرمات، التي يجب على العباد أن يجتنبوها.

والحرام عند أهل اللغة: الممنوع أو المحظور. وعند الأصوليين، والفقهاء: هو ما يعاقب فاعله، ويثاب تاركه. وهو أحد الأحكام التكليفية الخمسة.

وقد تضمَّنت هذه الآيات وصايا عظيمة جداً، تبلغ عشر وصايا:

• **الوصية الأولى**: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: النهي عن الشرك به، فإنّ الشرك أعظم ذنب عُصي الله به، كما قال النبي ﷺ حين سأله السائل: أي الذنب أعظم؟

قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»(١)، فهذا أعظم الذنوب، ولهذا لا يغفره الله أبداً.

• **الوصية الثانية**: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: الإحسان إلى الوالدين، بجميع صور الإحسان القولي والعملي.

• **الوصية الثالثة**: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾: تحريم قتل الأولاد، وهو أمر كان شائعاً عند أهل الجاهلية، فلخوفهم من الفقر، والإملاق، وقلة ذات اليد، كانوا يقتلون أولادهم؛ ولهذا قال النبي ﷺ في حديث: أي الذنب أعظم؟: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»(٢)، ومن ذلك: وأد البنات.

• **الوصية الرابعة**: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: اجتناب الفواحش مطلقاً، والفواحش: كل أمر مستفحش، مستعظم في النفوس، فالزنا، والسرقة، ونحو ذلك، فواحش؛ لأنها تفحش في النفس السوية، والنهي يشمل ما يكون ظاهراً مستعلناً، وما يكون خفيّاً.

• **الوصية الخامسة**: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: تحريم قتل النفس المعصومة، فقتل النفس من أعظم الذنوب، حتى إنّ الله تعالى شدّد فيه، وغلّظ، وقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، فهذه الجريمة العظمى من أشد الكبائر، وهي فاحشة، ولا ريب، ولكن أفردها الله بالذكر لعظيم جُرمها، وقد قال النبي ﷺ: «**لَزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**»(٣)، وقال: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دماً حراماً**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢] برقم (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده برقم (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ برقم (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده برقم (٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن برقم (١٣٩٥)، وابن ماجه في كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً برقم (٢٦١٩) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الديات برقم (٦٨٦٢).

• **الوصية السادسة:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾: حفظ مال اليتيم وصونه من التلف. واليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ، فهو ضعيف، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فيكون مطمعاً لأصحاب النفوس الدنيئة، فيستولون على ماله، ويأكلونه بالباطل، فلذا عظَّم الله حرمته، وبيَّن مصرفه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: بأن ينفق عليه منه، وينميه له، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: يبلغ سن الرشد ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

• **الوصية السابعة:** ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: وفاء الكيل والوزن، إذ أنّ من الآفات الجاهلية تطفيف المكيال والميزان، وقد أنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ [المطففين: ١، ٢] فإذا كان الشيء لهم أخذوا حقهم وافياً، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ٣]، وإذا كالوا ووزنوا لهم نقصوا، فهذا انحراف في التجارة والمال، فلذلك حذّر الله تعالى منه.

• **الوصية الثامنة:** ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: العدل المطلق، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل، والحق، في الغضب والرضا**»[1]؛ فالحق ثقيل ومرير، وبعض النفوس لا تطيق أن تقول الحق إذا كان على نفسها، أو كان على قريبها، فينبغي أن يُعوِّد الإنسان نفسه على قول الحق، وأن يلزم جانب العدل، والإنصاف، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]. ومن الناس إذا تكلم في حق من يحب أسرف، وإذا تكلم في حق من يبغض أسرف، فليسأل المسلم ربه ﷻ العدل والإنصاف فيما يقول، وما يفعل.

• **الوصية التاسعة:** ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: الوفاء بالعهود، فالله تعالى له عهود ومواثيق، فيجب الوفاء بها، وكلها مضمنة في كتابه، وفي سُنَّة نبيّه ﷺ.

• **الوصية العاشرة:** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في باب صفة الصلاة، ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله برقم (١٩٧١) وصححه الألباني.

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: الاستقامة على السبيل، وعدم الخروج عنه، فوحّد الصراط، والسبيل، وعدَّد السبل. فما أكثر السُّبل المنحرفة! وأما سبيل الله فهو سبيل واحد قاصد، وصراط مستقيم، لا يعوج بالسالك، فعلى الإنسان أن يعلم أن الحق واحد، لا يتعدد، وليستقم عليه. إما قول من يقول: لله تعالى طرق شتى توصل إليه، أو سبل متعددة، وأديان متعددة، فهذا باطل؛ بل سبيل الله واحد، وصراطه واحد، فليجتهد في إصابته، فمن اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ ـ ولا يمكن أن يُخطئ غالباً، إلا في أمر فرعي ـ، فله أجر واحد.

⁕ مناسبات الآيات للباب:

مناسبة ظاهرة؛ فإنّ الله ﷻ ابتدأ بأعظم وصية، وهي النهي عن الشرك، المستلزم للتوحيد. والبداءة به دليل على أهميته.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليه خاتمه، فليقرأ قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣](١).

الشرح

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، صحابي مشهور، من أخص أصحاب النبي ﷺ به، ومن أقربهم سمتاً، ودلاً، وهدياً برسول الله ﷺ، حتى إن كلامه رضي الله عنه يشبه كلام النبي ﷺ؛ كأنما عليه أنوار النبوة؛ لأنه تلميذ نجيب، فيجيء كلامه وبيانه قريباً من كلام النبي ﷺ.

وهو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، ويقال له: ابن أم عبد، وكان من فقهاء الصحابة الأجلاء، ومن معلمي القرآن، وقد جاء في الحديث: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضّاً كما**

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٣٨١).

أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[١]، وهو الذي جهر بالقرآن بين ظهراني قريش، وتلا عليهم سورة الرحمٰن، حتى أوسعوه ضرباً، وأدموه، وهمَّ أن يفعل ذلك في اليوم الثاني. وقد كانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين للهجرة رضي الله عنه.

قوله: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ): الوصية: هي اللفظ المؤكد، المحتفى به.

قوله: (التي عليها خاتمه) يصح فتح التاء (خاتَم)، أو كسرها (خاتِم). والمقصود بالخاتم: الحلقة المستديرة التي يكون عليها فص، تمهر به المكاتيب، والمواثيق. فقد جرت عادة الكبراء، والأمراء، أن يختموا المواثيق والعهود بخواتيمهم التي يكون فيها نقش أسمائهم، كما كان في خاتم نبيّنا ﷺ نقش (محمد رسول الله)، فيختم به للتوثيق، ولم يزل هذا موجوداً إلى عهد قريب.

وليس مراد ابن مسعود رضي الله عنه، أن ثمّ كتاباً خاصّاً في قرطاس، قد ختمه النبي ﷺ، وإنما أراد ما يأتي بعد ذلك، قال: **(فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾** : وإنما قال ابن مسعود رضي الله عنه هذه المقولة، لما بلغه كلام ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه»[٢]؛ وذلك لأن النبي ﷺ، في مرض موته، قال: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً، لا تضلوا بعده**» فتشاغلوا، واختلفوا عنده، فقال: «**قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع**»[٣]، فقال ابن عباس ذلك. لكن ابن مسعود رضي الله عنه كان أفقه من ابن عباس رضي الله عنهما في هذه المسألة، فبيّن أنه لم يبق شيء من الدين لم يُبيَّن، ولم يبق شيء يُوصى به، إلا وقد أوصي به، وأن النبي ﷺ لو أوصى بكتاب، لأوصى بما في كتاب الله، فلا موجب للأسى، والأسف.

※ مناسبة الأثر للباب:

تضمُّنه لتحريم الشرك: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ، المستلزم للتوحيد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، فضل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه برقم (١٣٨) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم برقم (١١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم برقم (١١٤).

فوائد الأثر:

١ ـ أهمية هذه الوصايا، لا سيما أولها، وأنه لم يبق من الدين ما لم يبلَّغ، فالنبي ﷺ بلَّغ رسالة ربه، وأدّى ما عليه.

٢ ـ عمق فقه ابن مسعود، وفهمه الدقيق رضي الله عنه.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

• **وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» قلتُ: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»(١)، أخرجاه في الصَّحيحين.**

الشرح

معاذ بن جبل، الخزرجي، الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، وحِبُّه، فقد قال له يوماً: **«يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك»**(٢)، فما أسعده، وما أهنأه! فإنّ المرء يحشر مع من أحب. وكان من فقهاء الصحابة، وأعلمهم بالحلال والحرام، ومن أكثرهم تبحراً في شريعة الله، وقد استخلفه النبي ﷺ على أهل مكة عام الفتح؛ ليفقههم في دينهم، وبعثه إلى اليمن؛ قاضياً، وداعياً، ومعلماً. ومات رضي الله عنه مبكراً في الشام، سنة ثمانية عشر للهجرة، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار برقم (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة برقم (٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود في باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار برقم (١٥٢٢) وصححه الألباني.

قوله: (كنتُ رديف النبي ﷺ): رديف الرجل: هو من يُركبه خلفه. وقد كان من تواضع نبيّنا ﷺ أن يردف، خلافاً للكبراء والعظماء، الذين يستنكفون أن يكون لأحدهم رديف. أما نبيّنا ﷺ فقد أردف معاذاً، وأردف الفضل بن عباس، وأردف أسامة بن زيد[١]، كما أنه يردف على حمار، وهذا دليل آخر على تواضعه ﷺ، فلم يكن يستنكف أن يركب الحمار.

قوله: (فقال لي: يا معاذ): هذا يدل على جواز مخاطبة الشخص باسمه المجرد، وإن كان ذلك يختلف باختلاف المقامات، فربما كان مقبولاً من الأعلى إلى الأدنى، وقد لا يكون مقبولاً من الأدنى إلى الأعلى، فإن الأدنى إذا خاطب الأعلى ينبغي أن يلقبه، أو يكنيه بما يليق به؛ لأن هذا أكمل في الأدب، أما النظراء فلا بأس أن يخاطب بعضهم بعضاً بالاسم المجرد، وحيثما كان اللفظ أحب إلى المخاطب، فاستعماله أولى.

قوله: (يا معاذ أتدري؟): صيغة استفهام؛ يعني: هل تعرف؟

قوله: (ما حق الله على العباد؟) المقصود بالحق ما يستحقه الله تعالى على عباده.

قوله: (وما حق العباد على الله؟)؛ أي: ما الذي للعباد على الله، مما أحقه على نفسه. فليس للعباد حقٌّ على الله واجب، إلا ما أحقَّه الله على نفسه.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ   هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمِ الشانِ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا   فَبِفَضْلِهِ وَالحَمْدُ لِلْمَنَانِ[٢]

وإنما جعل النبي ﷺ الخطاب على هيئة السؤال والجواب، لاستثارة الذهن؛ لأن طريقة السؤال والجواب أدعى لحضور الذهن، وتنبهه، وذهاب البلادة، والرتابة عنه.

قوله: (قال: قلت: الله ورسوله أعلم) هذا من حُسن أدبه.

قوله: («حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً»، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً) ما أجمل كلام النبي ﷺ! لو شاء العادّ

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/ ١١٤).

(٢) متن القصيدة النونية، لابن القيم (ص٢٠٨، ٢٠٩).

أن يعدَّه لعدَّه، فهو كلام فصل بيِّن واضح. فهاتان جملتان تامتان واضحتان، بيِّنتا المقاصد، ولأجل هذا لم يجد معاذ رضي الله عنه عِيّاً في فهمهما.

قوله: (قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا») البشارة: هي الإخبار بالأمر السار، فمعاذ رضي الله عنه وجد في نفسه رغبة في إدخال السرور على بقية المؤمنين، ببشارتهم بهذه البشرى، وهي: أن الله لن يعذب من لا يشرك به شيئاً، ولكن النبي ﷺ منعه من ذلك؛ حتى لا يتسرب إلى بعض النفوس نوع اتكال، يورث مللاً وكلالة، فيدعوا التنافس في الطاعات، والترقي في الدرجات، فإنهم إذا وقع في قلوبهم أن من سَلِم من الشرك سَلِم من العذاب، تركوا التنافس في الخيرات، والمبادرة إلى الصالحات، والاجتهاد في العبادات، فلذلك نهاه عن إخبارهم لئلا يعتمدوا على ذلك، ويدعوا التنافس في الأعمال الصالحة.

مناسبة الحديث للباب:

واضحةٌ جليةٌ، وهي بيان أن حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وهذا هو التوحيد.

فوائد الحديث:

١ ـ تواضع النبي ﷺ من جهتين: الإرداف، وركوب الحمار.

٢ ـ جواز الإرداف على الدابة، إلا أن يشق عليها، فإنا مأمورون بالإحسان في كل شيء، ولهذا نجد أن النبي ﷺ حينما أفاض من عرفات شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، وكلما أتى حبلاً من الحبال(١) أرخى لها قليلاً حتى تصعد(٢)، فهذا من الرفق بالحيوان.

٣ ـ أن من طرق التعليم الناجحة، الطريقة الحوارية، والسؤال والجواب؛ لأن ذلك أدعى لحضور الذهن.

---

(١) الحبال هنا بالحاء المهملة المكسورة جمع حبل وهو التل اللطيف من الرمل الضخم. شرح النووي على مسلم (٨/ ١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٨).

٤ ـ الأدب مع المعلم، بأن يجيب بجواب لائق، فإن معاذاً قال: الله ورسوله أعلم، ومثل هذا لا يقال إلا في الأمور الشرعية، أما الأمور الكونية، فإنه لا يقال فيها: الله ورسوله أعلم؛ لأننا لا نعلم أن رسول الله ﷺ يعلم ذلك الأمر الكوني، أما الأمور الشرعية، فإننا نعلم أن الله تعالى آتاه الكتاب والحكمة.

فإذا قال لك قائل: كم نصاب الذهب؟ وأنت لا تعلم، فقل: الله ورسوله أعلم، وإذا قال لك قائل: هل قدم زيد من السفر؟ وأنت لا تعلم قدم أم لم يقدم، قل: الله أعلم، ولا تقل: الله ورسوله أعلم؛ لأن هذا لا يدخل في معلوم النبي ﷺ.

٥ ـ أنَّ الإنسان إذا كان يجهل المسألة فليحل إلى علم الله، وليقل: الله أعلم، أو: الله ورسوله أعلم، أو يقول: لا أدري.

٦ ـ أنه لا يتم توحيد الله إلا باجتناب الشرك؛ لأن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وقد تقدم معنا في جميع النصوص السابقة القرن بين القضيتين، بين التوحيد، واجتناب الشرك، فلا توحيد إلا باجتناب الشرك، فالتوحيد يقوم على ساقين: عبادة الله، واجتناب الشرك.

٧ ـ فضل التوحيد، وسيأتي له باب مفرد، فتوحيد الله ﷻ، والسلامة من الشرك، يثمران النجاة والسلامة من العذاب.

٨ ـ استحباب بشارة المؤمن، فينبغي للإنسان أن يسعى في إدخال السرور على قلب أخيه المسلم. ومن الناس من لا يحلو له إلا نقل الأخبار المزعجة، والإرجاف، فيخبر بالحوادث، والكوارث، والمصائب، والبلايا، وقلَّ أنْ يُخبر بخبر سعيد، فينبغي للإنسان أن يكون بشيراً، ناشراً للفأل الحسن، ويجتنب ضده.

٩ ـ جواز كتمان العلم للمصلحة؛ لأن النبي ﷺ قال لمعاذ: **«لا تبشرهم فيتكلوا»**، لكن معاذاً أخبر بها عند موته تأثماً؛ لأنه قد جاء في الحديث: **«من سُئل عن علم، فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»**[(١)]، فمعاذ، رضي الله عنه، أمسك

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه برقم (٢٦٤)، وأبو داود في كتاب العلم، باب كراهية منع العلم برقم (٣٦٥٨) وصححه الألباني.

عن الإخبار بهذا العلم إلى أن دنت وفاته، فخشي مغبة الوعيد، فأخبر بهذا الحديث عند موته تأثماً؛ يعني: تفادياً للإثم. ويتفرع عن هذه الفائدة فوائد:

١٠ ـ عدم تحديث العصاة والفساق بأحاديث الرجاء؛ لأنه لو حدثهم بأحاديث الرجاء، أمْعَنوا في باطلهم، وتمادوا.

١١ ـ عدم تحديث أصحاب التقوى والخوف، بأحاديث الوعيد؛ لأن هذا يزيدهم خوفاً، وربما أخرجهم عن حد السواء، فلحقهم هَمٌّ، وغم.

١٢ ـ عدم تحديث الظَّلَمة، وأهل الجور، بأحاديث العقوبات والتعزيرات؛ كحديث العُرَنيين، لئلا يستسهلوا الفتك، وظلم العباد. وكل ذلك يرجع إلى ما يؤتيه الله عبده من الحكمة.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في[1] خلق الجن والإنس.

وهي: إفراد الله بالعبادة، والدليل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

الثانية: أنّ العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فالخصومة بين الأنبياء وأقوامهم كانت في ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النمل: ٤٥].

الثالثة: أنّ من لم يأتِ به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣ ـ ٥].

من زعم أنه يعبد الله بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والصدقة، وهو

(١) وفي بعض النسخ: «من».

لم يفرد الله تعالى بالعبادة؛ بل عبد معه غيره، فهو لم يعبد الله؛ لأن عبادة الله لا تتم إلا بنبذ الشرك.

الرابعة **الحكمة في إرسال الرسل.**

وهي الدعوة إلى توحيد الله ﷻ كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الخامسة **أنّ الرسالة عمَّت كل أمة.**

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

السادسة **أنّ دين الأنبياء واحد.**

من عموم قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فدعوى الأنبياء واحدة؛ ولهذا كان من فرَّق بين أنبياء الله كافر.

السابعة **المسألة الكبيرة: أنّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].**

التلازم وثيق بين القضيتين، فلا تتحقق الأولى إلا بتحقق الثانية.

الثامنة **أنّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله.**

فكل معبود، أو متبوع، أو مطاع، غير الله، فهو طاغوت يجب الكفر به.

التاسعة **عِظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل: أولاها: النهي عن الشرك.**

فينبغي تعظيم ما عظم الله، وتقديم ما قدم الله، والبداءة بالأهم، فالمهم.

العاشرة **الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩]. ونبَّهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].**

وهذا سرد المسائل الثماني عشرة:

* **الأولى:** ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾، النهي عن الشرك الأكبر.

* **الثانية:** ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، الأمر بعبادة الله وحده.

* **الثالثة:** ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

* **الرابعة:** ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وجوب إيتاء ذي القربى حقه.

* **الخامسة:** ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وجوب إيتاء المسكين حقه.

* **السادسة:** ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وجوب إيتاء ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع، حقَّه.

* **السابعة:** ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]، النهي عن التبذير.

* **الثامنة:** ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، النهي عن التقتير والإسراف.

* **التاسعة:** ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، النهي عن قتل الأولاد.

* **العاشرة:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، النهي عن الزنا ومقدماته.

* **الحادية عشرة:** ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، النهي عن قتل النفس بغير حق.

* **الثانية عشرة:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، النهي عن قربان مال اليتيم بغير إحسان.

* **الثالثة عشرة:** ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وجوب الوفاء بالعهد.

* **الرابعة عشرة:** ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وجوب الوفاء بالكيل.

* **الخامسة عشرة:** ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وجوب الوفاء بالوزن.

* **السادسة عشرة:** ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، النهي عن القول بغير علم.

* **السابعة عشرة:** ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، النهي عن المشي في الأرض مرحاً.

* **الثامنة عشرة:** ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، النهي عن الشرك.

ويحتمل أن يعد النهي عن الإسراف مسألة، ويحذف الأمر بالوفاء بالوزن لدخوله في التي قبله.

الحادية عشرة **آية سورة النساء التي تُسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآية [النساء: ٣٦].**

وهذا مسرد الحقوق العشرة:

* **الأول:** ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، الأمر بعبادة الله، واجتناب الشرك.

* **الثاني:** ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، الإحسان إلى الوالدين، بجميع صور الإحسان القولي والعملي.

* **الثالث:** ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، الإحسان إلى ذوي القربى، من جهة أبيه أو أمه.

* **الرابع:** ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، الإحسان إلى اليتامى، وهم من فقدوا آباءهم صغاراً.

* **الخامس:** ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾، الإحسان إلى المساكين، الذين أسكنتهم الحاجة، فلم يجدوا كفايتهم.

* **السادس:** ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، الإحسان إلى الجار القريب، الذي اجتمع فيه القرابة، والجوار.

* **السابع:** ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، الإحسان إلى الجار الجنب، غير القريب.

* **الثامن:** ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، الإحسان إلى الصاحب بالجنب، سواءٌ كان زوجة، أو رفيق سفر.

* **التاسع:** ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، الإحسان إلى ابن السبيل، وهو المسافر الغريب المنقطع.

* **العاشر**: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، الإحسان إلى ملك اليمين، من العبيد والإماء، والبهائم.

الثانية عشرة **التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.**

كما يُؤخذ من أثر ابن مسعود، الذي استدركه على كلام ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالثة عشرة **معرفة حق الله علينا.**

وهو أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً.

الرابعة عشرة **معرفة حق العباد عليه إذا أدّوا حقه.**

وهو ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً.

الخامسة عشرة **أنّ هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.**

استنبطها الشيخ رحمه الله من حال معاذ، حين قال: أفلا أبشر الناس؟ فدل ذلك على أن كثيراً من الناس لا يعلم هذه المسألة؛ يعني: لا علم لهم أن النجاة تحصل بهذا الأمر، وهو إفراده بالعبادة، والسلامة من الشرك.

وتوجيه هذا الكلام أن يقال: إن من لم يشرك بالله عز وجل لا يمكن أن يخلد في النار، فمن وحّد الله تعالى، وسَلِم من الشرك، فلا يمكن أن يخلده الله تعالى في النار، لكن إن بدر منه فعل كبيرة، فإنه قد يطهَّر من كبيرته، بأن يعذبه الله تعالى بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة، وربما عفا الله عنه مجاناً، وأدخله الجنة مباشرة.

السادسة عشرة **جواز كتمان العلم للمصلحة.**

المصلحة هي: خشية أن يتكل الناس، فلا يستكثروا من العمل الصالح. فهي مصلحة معتبرة.

السابعة عشرة **استحباب بشارة المسلم بما يسره.**

لأن النبي ﷺ لم ينه معاذاً عن البشارة، لذات البشارة، وإنما لخوف الاتكال.

الثامنة عشرة **الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.**

فهي علة شرعية معتبرة، غير ملغية.

التاسعة عشرة **قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.**

كما أجاب بذلك معاذ ﵁، وأقره النبي ﷺ.

العشرون **جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.**

وهذا يُؤخذ من كون النبي ﷺ خص معاذاً، لعميق فقهه، وقوة دينه بهذا العلم، وقد كان نبيُّنا ﷺ يراعي ـ كما يقال في هذا العصر ـ الفروق الفردية بين الناس، فكان يخص حذيفة بن اليمان بأحاديث الفتن، فيخبره بما يجري من أمور مستقبلة من فتن وأحداث، حتى إنه أسر إليه بأسماء المنافقين دون غيره من الصحابة، فلا بأس أن يعامل المعلم طلابه بنوع تمييز، بناء على ما يعلمه، ويعهده فيهم، من إمكانات، ومواهب، وغير ذلك.

الحادية والعشرون **تواضعه ﷺ بركوب الحمار، مع الإرداف عليه.**

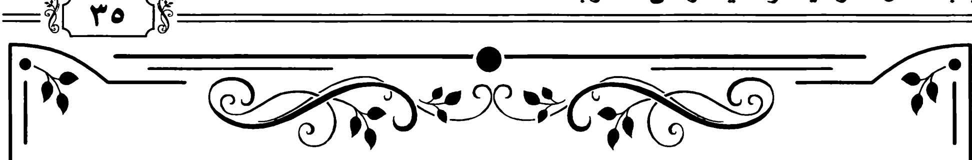
الثانية والعشرون **جواز الإرداف على الدابة.**

الثالثة والعشرون **فضيلة معاذ بن جبل ﵁.**

الرابعة والعشرون **عظم شأن هذه المسائل.**

فهذه مسائل عظيمة، مفيدة. نسأل الله ﷻ أن يعمر قلوبنا بتوحيده، وأن يعافينا من الشرك وأنواعه.

❊ ❊ ❊



باب فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»(١) أخرجاه.

ولهما: من حديث عتبان: «فإن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»(٢).

الشرح

قوله: (باب): الباب في اللغة: المدخل، والمراد به: جملة من مسائل العلم ذات وحدة موضوعية. وقد جرت العادة في التأليف أن يُجعل الإطار العام (كتاب) ثم يُجعل تحته (أبواب)، ثم (فصول)، ثم (مسائل). ولا يعد هذا من الابتداع، وإنما هو من تقريب العلم، فلا بأس به؛ لأنه يسهل العلم ويقربه، ويعين على حسن تصوره، فينبغي التفريق بين الوسائل والمقاصد.

فالنبي ﷺ لم يُبين مثلاً عدد أركان الصلاة ولا واجباتها ولا سننها، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] برقم (٣٤٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً برقم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب الخزيرة برقم (٥٤٠١)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر برقم (٣٣).

هذه أمور استنبطها الفقهاء بالتتبع والاستقراء، ثم بوَّبوها ونظَّموها؛ لكي يكون ذلك أسهل في التصور، وأقرب إلى الإدراك والفهم.

قوله: (وما يكفر من الذنوب): **(ما)** هذه تحتمل أمرين: إما أن تكون موصولة، أو مصدرية، فإذا كانت موصولة، فهي بمعنى (الذي)، ويكون تقدير الكلام: «باب: فضل التوحيد والذي يكفر من الذنوب». وإذا كانت مصدرية، فيكون تقدير الكلام: «باب: فضل التوحيد، وتكفيره الذنوب». وكلا المعنيين حسن، والثاني أحسن.

قوله: (يكفر)، الكفْر: هو التغطية والستر؛ ولهذا سُمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي فطرته، ويحجبها عن الحق، وسماعه، ورؤيته، واتباعه، ويُسمَّى الفلاحون كفاراً لغةً؛ لأنهم يغطون البذور بالتراب، ولا زال في بعض البلاد من يُسمِّي محل الزرع (كَفْر)، ويسمِّي الليل كافراً؛ لأنه يغشى الأرض بظلمته. قال أبو عبيد: (وَأما الْكَافِر فَيُقَال وَالله أعلم: إِنَّمَا سمي كَافِراً؛ لأنهُ متكفر بِهِ؛ كالمتكفر بِالسِّلَاحِ، وَهُوَ الَّذِي قد ألبسهُ السِّلَاح حَتَّى غطى كل شَيْء مِنْهُ، وَكَذَلِكَ غطى الْكفْر قلب الْكَافِر، وَلِهَذَا قيل لِليْل: كَافِر لِأَنَّهُ ألبس كل شَيْء. قَالَ لبيد يذكر الشَّمْس:

حَتَّى إِذا أَلْقَت يداً فِي كَافِر   وأجنّ عورات الثغور ظلامُها

وَقَالَ أَيْضاً: فِي لَيْلَة كفر النجومَ غمامُها... يَقُول: غطاها السَّحَاب)[1].

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما بيّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مستهل كتابه حقيقة التوحيد، وبيان معناه، وأن التوحيد يقوم على ركنين: عبادة الله، ونبذ الشرك، أتبع ذلك بهذا الباب، الذي يُبيِّن فيه فضل التوحيد، وما يُكفِّر من الذنوب، وهذا من حسن الترتيب، فإنه بعد أن بيَّن الحقيقة، يحسن بيان الأثر الذي يترتب على تحقيق التوحيد، فأراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أن يسوق جملة من النصوص المشوقة، التي تدل على فضل التوحيد، وأثره في تكفير الذنوب.

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد، القاسم بن سلام (٣/ ١٣، ١٤).

(قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾):

قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ أي: صدقوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم؛ لأن الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل، فليس الإيمان قولاً فقط، ولا عملاً فقط؛ بل لا بد من القول والعلم معاً، هذا هو معتقد أهل السُّنَّة والجماعة في الإيمان، فيقولون: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

قوله: ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾؛ أي: يخلطوا؛ فاللبس: خلط الشيء بالشيء.

قوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾: الظلم في اللغة: هو النقص، كما قال الله ﷻ في قصة صاحب الجنة: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣]؛ أي: لم تنقص، لكنه هنا يراد به الشرك بالله، كما فسّره النبي ﷺ فيما سيأتي.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المؤمنون.

قوله: ﴿ٱلۡأَمۡنُ﴾؛ أي: الطمأنينة والسكينة.

قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾؛ أي: مُوفَّقُون إلى الاهتداء، وإصابة الحق وسلوكه.

ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، فقالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ مطمئناً لهم: «**ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]»(١)، فالظلم المقصود في هذه الآية هو الظلم المفسَّر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن. فالذي يقع في الشرك يُحْرَم الأمن والاهتداء.

وتحرير الكلام في هذا المقام أن يقال: **إنّ الظلم ثلاثة أنواع:**

١ ـ **الظلم العظيم:** وهو الشرك بالله؛ إذ لا ظلم أعظم وأشنع منه؛ إذ هو وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وهو الله، وهذا أظلم الظلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: ١٢] برقم (٣٤٢٩).

٢ ـ **ظلم العباد**؛ بالتجني عليهم، وسلب حقوقهم، وأموالهم، والوقيعة فيهم، ونحو ذلك.

٣ ـ **ظلم النفس**؛ بمعصية الله، فيقع الإنسان فيما حرم الله تعالى عليه، ويعرض نفسه لعقوبة الله، فيكون بذلك ظالماً لنفسه.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، فإنها تدل على فضل توحيد الله، فمن سَلِم من الشرك، ووحّد الله ﷻ، حصل له الأمن والاهتداء.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ من سَلِم من الظلم العظيم، وهو الشرك بالله، حصل له أصل الأمن والاهتداء، في الدنيا والآخرة.

٢ ـ أن من سَلِم من الظلم العظيم وهو الشرك، وظلم نفسه، وظلم الآخرين، حصل له الأمن والاهتداء التام. كما قال ابن القيم رحمه الله: «فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة»[1]؛ أي: من سَلِم من الظلم مطلقاً، حصل له الأمن والاهتداء مطلقاً، ومن وقع منه نوع من الظلم، نقص من أمنه واهتدائه بقدر مظلمته، لكنه قد حقق أصل الأمن والاهتداء. فمن وحَّد الله ﷻ فلا بد أن يدخل الجنة، لكن لا يمنع من أن يطاله نوع عذاب بسبب وقوعه في الكبائر، أو المظالم، وبهذا تلتئم الأدلة، ولا تتعارض.

٣ ـ فضل التوحيد وثمرته، إذ أنّ التوحيد هو الطريق إلى الأمن والاهتداء، في الدنيا والآخرة.

٤ ـ أنّ الشرك سبب لحصول الضلال والخوف.

٥ ـ أنّ الشرك لا يغفره الله؛ لقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشركٍ.

ثم ساق المصنف رحمه الله حديثاً جليلاً عظيماً، من أصول الدين، وهو حديث عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه، أحد النقباء، ليلة العقبة، توفي رضي الله عنه سنة

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١٠٥٨).

(٣٤هـ)، وقيل: في خلافة معاوية، عن اثنتين وسبعين سنة، وكان ممن بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس عظيم القبط.

قوله: **(من)** أداة شرط، لها شرط، وجزاء.

قوله: **(شهد)**؛ أي: أقر، واعترف، واعتقد بقلبه، ونطق بلسانه؛ ولا بد من الأمرين معاً: اعتقاد القلب، والنطق باللسان، كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦] فلا تكون الشهادة إلا بالعلم. فجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ حالية، فلا بد من العلم بالقلب، الموافق للتلفظ باللسان.

قوله: **(أن لا إلٰه إلا الله)**؛ أي: لا معبود بحق إلا الله. وكلمة **(إلٰه)**، على وزن (فِعال) والمراد (مفعول)؛ أي: مألوه، كما يقال: فراش؛ أي: مفروش، وكتاب؛ أي: مكتوب، وغراس؛ أي: مغروس، فـ**(إلٰه)** بمعنى: (مألوه)؛ أي: معبود، لا كما ادعى بعض المتكلمين: أن **(إلٰه)** يراد به (آلِه) على وزن (فاعل)؛ بمعنى: القادر على الاختراع، ففسروا الألوهية بالربوبية. فأبو جهل وقبيله من المشركين، أعرف منهم بـمعنى **(لا إلٰه إلا الله)**؛ وذلك أن أبا جهل ومشركي العرب جميعاً مقرُّون بربوبية الله، وأنه الخالق، الرازق، المالك، المدبر، وإنما ينازعون في ألوهية الله وعبادته، فهم على دراية بأن الإلٰه هو المألوه، الذي تألهه ـ أي: تنجذب إليه ـ القلوب محبةً وتعظيماً. وهذا الانجذاب يجب أن يكون في القلب، ليحقق الإنسان عبوديته لله، فإذا وُجد في قلبه تعلقاً وجاذبية إلى ربه؛ محبةً، وخوفاً، ورجاء، فقلبه حيٌّ، وإذا فقد هذه المعاني، فقلبه ميت، يحتاج إلى إسعاف بمادة الإيمان ليحيا.

قوله: **(وحده)**: تأكيد للإثبات **(لا شريك له)** تأكيد للنفي؛ لأن كلمة التوحيد **(لا إلٰه إلا الله)** تتضمن نفياً وإثباتاً؛ **(لا إلٰه)** نفي، و**(إلا الله)** إثبات.

قوله: **(وأن)**: على تقدير حذف العامل **(شهد)**.

قوله: **(محمداً عبده ورسوله)**: جمع له بين هذين الوصفين اللذين يقطعان الطريق على أهل الإفراط والتفريط:

١ ـ **فوصفه بالعبودية**: ردٌّ على أهل الغلو والإفراط، الذين رفعوا النبي ﷺ فوق منزلته، ووصفوه بما لا ينبغي إلا لله ﷻ؛ ولهذا قال: «**لا تطروني، كما**

أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[(١)]، فقولنا: **«عبد الله»** إنزال للنبي ﷺ المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها. والوصف بالعبودية كرامة، وشرف للموصوف بها؛ ولذا نجد أن ربنا سبحانه وبحمده، يصف نبيّه بالعبودية في أشرف أحواله:

١ ـ في حال تنزل القرآن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

٢ ـ في أشرف ليلة مرت به، وهي ليلة الإسراء والمعراج، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

٣ ـ في أشرف وظيفة يقوم بها بشر، وهي الدعوة إلى الله ﷻ فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. فالعبودية أشرف ما يتصف به العبد، كما قيل:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفاً وَتَيْهاً ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحتَ قَوْلِكَ: يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرتَ أَحمَدَ لِي نَبِيَّا[(٢)]

٢ ـ **ووصفه بالرسالة:** ردٌّ على أهل الجفاء، الذين نالوا منه ﷺ، ولم يقدروا قدره، فهو رسولٌ مِن عند الله ﷻ، ويا لها من منقبة! أن يصطفيه الله تعالى ليكون مهبط وحيه، ومستودع رسالته، فهذه منزلة عظيمة جدّاً، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فينبغي دوماً أن نقرن بين هذين الوصفين، فنقول: عبده ورسوله، وهذا أبلغ من أن نقول: نبيّه ورسوله.

قوله: (وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه) الشهادة بأن عيسى عبدٌ لله، وليس الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، كما تقول النصارى.

فتضمن ما مضى الرد على سائر ملل الكفر:

١ ـ **فقوله: (أن لا إله إلا الله)** ردٌّ على جميع أنواع المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] برقم (٣٤٤٥).

(٢) نسب البيتين في المفاخرة بين الماء والهواء (ص٤٦)، للقاضي عياض.

٢ ـ **وقوله: (وأن محمداً عبده ورسوله)** ردٌّ على أهل الابتداع، الذين يدخلون في دين الله ما ليس منه، ولا يرفعون رأساً باتباع محمد ﷺ.

٣ ـ **وقوله: (وأن عيسى عبد الله ورسوله)** ردٌّ على اليهود والنصارى الذين ضلوا في عيسى.

وقد انقسم الناس حيال عيسى ابن مريم عليه السلام، إلى ثلاث طوائف:

١ ـ **اليهود**: الذين كَفروا بالمسيح عليه السلام، وهو قد بُعث إليهم، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]. فاليهود كذبوا بعيسى عليه السلام، وكفروا به، وزعموا أنه ابن زنا، وسفاح، وأن أمه مريم العذراء، الطاهرة، البتول بغِيٌّ، ووصموه بأبشع الألقاب، مع أنه كان يعاملهم بالرفق، واللين، والموعظة، ولكن طبعهم اللئيم حملهم على الكفر به، وسعوا به إلى (بيلاطس)، الحاكم الروماني الذي يحكم بيت المقدس؛ كي يقتلوه ويصلبوه، ودلهم أحد المندسين في تلامذته، المسمى (يهوذا الإسخريوطي) إلى الموضع الذي كان هو وحواريوه مجتمعين فيه، فلما داهم جنود الرومان ذلك المكان، رفع الله عيسى ابن مريم من بينهم إلى السماوات العلى، وألقى شبهه على الخائن الدعِي (يهوذا الإسخريوطي)، فأخذوه، وجرجروه، وصلبوه على الخشبة، وظنوا أنهم قتلوه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

٢ ـ **النصارى**: الذين غلوا فيه، وزعموا أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فهؤلاء ضُلَّال النصارى أتباع (بولس)، لما رأوا عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى، وينبئهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، تسلل إليهم شياطين الإنس والجن، وقالوا: هذا دليل على حلول الإلٰه فيه، وأن فيه جزء لاهوتي، نسبة إلى الإلٰه، وجزء ناسوتي، نسبة إلى الناس.

والذي أدخل هذه البدعة الكفرية على النصارى (شاؤول اليهودي) الذي يسمِّيه النصارى (القديس بولس) أو (سانت بول)، فهو الذي أفسد دين النصارى، وإلا فقد كان النصارى أتباع المسيح عليه السلام، هم الحواريون، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢﴾ [آل عمران: ٥٢]، فجاء هذا اليهودي الخبيث (شاؤول)، وكان

يضطهد أتباع المسيح عليه السلام، فتظاهر بالإيمان به، وصار يدخل في دينه من الفلسفة الإغريقية الهيلينية ما أفسد عقائدهم، فصار النصارى يعتقدون بالأقانيم الثلاثة: (أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس) ويقولون: وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة! وكيف يستقيم أن يكون إلٰهاً واحداً، مكوناً من ثلاثة أجزاء؟ هذا لا تقبله العقول، لكنهم حملوا أتباعهم بالقوة على هذه العقيدة الفاسدة. فمنهم من يقول: المسيح ابن الله، ومنهم من يقول هو الله، ويسمونه في أناجيلهم (الرب يسوع المسيح)، ومنهم من يقول: ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، إله واحد، ولهم في هذا خوض، وضلال عظيم؛ لهذا اقتتلوا فيما بينهم، واختلفوا هل له طبيعة واحدة أم طبيعتان؟ وأريق بسبب ذلك دماء.

وجميع نصارى العالم أهل تثليث، لم يبق منهم موحد. وسبب ذلك أن الإمبراطور الروماني «قسطنطين» لما تظاهر باعتناق النصرانية، ووجد النصارى مختلفين في عقائدهم، دعا إلى مجمع في مدينة (نيقية) التركية؛ وكان مقر الإمبراطورية الرومية القسطنطينية، وحشد له جميع أساقفة النصارى، وحضر منهم آلاف، ودعاهم إلى أن يخرجوا برأي موحد، فكان هناك **اتجاهان**:

١ ـ اتجاه أتباع (آريوس)، وهو اتجاه أقرب إلى التوحيد.

٢ ـ اتجاه أتباع (بولس) الذي ينزع إلى التثليث. وكان قسطنطين مائلاً إليهم، فمكّنهم، وغلَّب رأيهم على رأي الموحدين، وجعل الأمر بيدهم، وأمر بمصادرة كتب الموحدين، وإحراقها، وتتبَّعهم، وقتلهم. فصارت الكلمة لأتباع (بولس). فتوثنت النصرانية، ولم تتنصَّر الوثنية الرومانية.

فجميع نصارى الأرض الموجودين الآن، يعتقدون ما صدر عن مجمع (نيقية)، وهو ما يسمِّيه النصارى: «الأمانة الكبرى»، ويسمِّيها ابن كثير رحمه الله: (الخيانة الحقيرة)(١)؛ إذ فيها النص على أن المسيح هو الله، أو هو ابن الله، وغير ذلك من الباطل، الذي ضلَّ النصارى عليه إلى يومنا هذا، فلم يبق في النصارى أحد على التوحيد.

٣ ـ **أهل الإيمان**: وهم الحواريون الكرام، ومن سار على طريقتهم من

---

(١) تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٢/٤٨).

بقايا أهل الكتاب، إلى أن بُعث نبيّنا محمد ﷺ، يعتقدون أن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه بشر، وليس فيه جزء إلٰهي، كما زعم النصارى، وأنه مرسل من عند الله، قال تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قوله: (وَكَلِمَتُهُ)؛ أي: أنّ الله تعالى خلقه بكلمته، لا أنّه نفسه الكلمة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، فعيسى ليس (كن) وليس هو الكلمة، ولكنه خُلق بالكلمة، وهذه محنة النصارى؛ ظنوا أن عيسى هو الكلمة؛ وبالتالي فهو جزء من الله، تعالى الله عما يقولون.

قوله: (أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) هي العذراء البتول الطاهرة، سليلة بيت علم ودين وفضل وحسب، وقد حكى الله تعالى قصتها في سورة آل عمران، وأنه كفَّلها زكريا، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. فلها منزلة عظيمة، فقد بشرتها الملائكة أولاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]، وبشَّرتها ثانياً، قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

ومعنى: **(أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ)**؛ أي: أنّ الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام بهذه الكلمة العلوية، والنفخة القدسية، إلى مريم، فنفخ فيها هذه النفخة المخلوقة، والروح المخلوق، فدخلت في فرجها، واستقرت في رحمها، أو أنه نفخ في

جيبها، فدخل في فرجها، كما يكون حال النساء، ثم تكوَّن هذا الخلق في رحمها، وحملت به.

وظاهر الأمر ـ والله أعلم ـ أنها حملت به، كما تحمل النساء، ومر بها ما يمر بهن؛ ولهذا اشتد كربها، وصارت تجد حرجاً، وقالت لما ظهر حملها، وداهمها المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: ٢٣]. وفي بعض الإسرائيليات: أنها حملت حملاً سريعاً، خلاف حمل النساء[1].

قوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ)؛ أي: أنّ عيسى عليه السلام روح من الأرواح التي خلقها الله. فمعنى: **(وَرُوحٌ مِنْهُ)**؛ أي: أنه صدر من الله تبارك وتعالى ابتداءً؛ كقول الله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، فلا يدل هذا على أن ما في السماوات وما في الأرض جزء منه، تعالى الله عن ذلك، وإنما معنى **(منه)**؛ أي: خلقه الله عز وجل، فمنه صدر، ومنه جُعل بكلمته هذه، فلا حجة للنصارى، لكن النصارى لُبِّس عليهم قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

فكلمة **(من)**: ابتدائية، وليست تبعيضية، حاشا وكلا! وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فليس شيء منه سبحانه في أحد من خلقه، ولا شيء من خلقه فيه سبحانه.

قوله: (والجنة حق والنار حق): الجنة: هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، جزاءً على إيمانهم، وحُسن أعمالهم، والنار: الدار التي أعدها الله عقوبة للكافرين، جزاءً وفاقاً على كفرهم، وسوء أعمالهم.

ومعتقد أهل السُّنَّة والجماعة: أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، باقيتان، لا تفنيان؛ لأن الله تعالى قال عن الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]. ولما صلّى النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين صلاة الكسوف، تقدم مرة، وتأخر أخرى، وحين سألوه عن ذلك قال: «**إني رأيت الجنة، أو أريت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما**

---

(١) وقد أشار ابن كثير للخلاف في مدة الحمل، والأقوال في ذلك، وقال في تفسيره (٥/ ٢٢٢): «فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن». وقال في البداية والنهاية (٢/ ٧٨): «ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذُكر».

بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط»(١)، فهذا يدل على وجود الجنة والنار. كما أنهما باقيتان، لا تفنيان؛ لأن الله ﷻ أثبت الخلود لأهل كل من الدارين، خلافاً لمن زعم أنهما تفنيان من الجهمية، وغيرهم.

قوله: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذا جواب الشرط وجزاؤه، فمن اعتقد هذه العقائد الصحيحة، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، وفي هذا ردٌّ على الخوارج؛ الذين يخلدون مرتكب الكبيرة في النار إذا لم يتب.

وللشراح في توجيه جملة: **«على ما كان من العمل» قولان:**

الأول: أنّه لا بد أن يدخل الجنة، إما دخولاً أوليّاً، أو دخولاً مآليّاً. فمن اعتقد هذه العقائد الصحيحة الصائبة، وسَلِم من الكبائر، فإن الله تعالى يدخله الجنة دخولاً أوليّاً، على ما كان من العمل. وإن اعتقد ذلك لكن تلطخ بالكبائر، فإن الله تعالى ربما عذبه بقدر ذنبه، جزاء ما اكتسب، لكن مآله إلى الجنة.

الثاني: أن منزلته في الجنة، تكون بحسب عمله؛ وذلك أن المؤمنين يتفاوتون، كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فإن كان من السابقين بالخيرات، فدرجته عليا، وإن كان من المقتصدين فدون ذلك، وإن كان من الظالمين لأنفسهم فدون ذلك.

مناسبة الحديث للباب:

بيان فضل التوحيد، وأنه سبب لدخول الجنة، وتكفير السيئات.

فوائد الحديث:

١ ـ فضل التوحيد.

٢ ـ أن الله تعالى واسع الفضل والمغفرة.

٣ ـ بيان الواجب تجاه أنبياء الله، وهو اعتقاد أنهم عباد الله ورسله، فنسلم من الإفراط والتفريط.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب كفران العشير وهو الزوج، وهو الخليط، من المعاشرة برقم (٥١٩٧)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار برقم (٩٠٧).

٤ ـ الرد على جميع أهل الملل الباطلة.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(ولهما)؛ أي: البخاري ومسلم، وهما إمامان جليلان، من أئمة الحديث، التزما في كتابيهما ألا يرويا إلا ما صح عن رسول الله ﷺ.

قوله: (في حديث عتبان) هو: عتبان بن مالك بن عمرو بن عجلان الأنصاري، من صحابة النبي ﷺ، مات في خلافة معاوية، وقد طلب مرة من النبي ﷺ أن يصلي له في موضع اتخذه في بيته؛ لكي يتخذه مصلى، فأجابه النبي ﷺ إلى طلبته.

قوله: (فإنّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله)؛ أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه، من اعتقد بقلبه، ونطق بلسانه.

قوله: (يبتغي بذلك وجه الله)؛ أي: قالها مخلصاً، وذلك يستلزم الانقياد والعمل الصالح.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا؟ قال: يا موسى لو أن السماوات السبع، وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»[1] رواه ابن حبان، والحاكم، وصحّحه.

الشرح

حديث أبي سعيد رواه جمع من أهل الحديث، كما تقدم تخريجه، منهم:

---

(١) أخرجه النسائي برقم (١٠٧٨٠)، والحاكم برقم (١٩٣٦).

النسائي في عمل اليوم والليلة[١]، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي[٢]، وأبو نعيم[٣]، وأبو يعلى[٤].

والحديث مختلف في تصحيحه، فقد صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، كما تقدم، والحاكم ـ كما هو معلوم ـ قد استدرك على الصحيحين أحاديث على شرطهما، أو على شرط أحدهما، فتعقبه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأقره على بعضها، وخالفه في أخرى. وممن صحَّحه أيضاً ابن حبان، كما تقدم، والحافظ ابن حجر[٥]، والمنذري[٦]. وضعّفه آخرون، بسبب أحد رواته، وهو دراج بن سمعان، حيث رواه عن أبي الهيثم، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن رواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة. والأقرب: أن هذا الحديث له شواهد، يرتقي بها إلى درجة الصحة.

قوله: (قال موسى) موسى: هو نبي الله الكليم، أحد أولي العزم من الرسل، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبة. وهذا مما أُدرك من كلام النبوة الأولى، فيدخل في قول النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى**»[٧]، حيث روى النبي ﷺ كلاماً عن نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مناجياً ربه: **(يا رب علِّمني شيئاً أذكرك، وأدعوك به)**.

قوله: (أذكرك به)؛ أي: أثني عليك وأحمدك به.

قوله: (وأدعوك به)؛ أي: أناجيك، وأسألك به، والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فطلب موسى من ربه عَزَّ وَجَلَّ ذكراً خاصاً يدعوه، ويسأله به.

قوله: (قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله) أحاله على كلمة التوحيد المشهورة.

قوله: (قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا) هكذا أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) عمل اليوم والليلة، للنسائي برقم (٨٣٤).
(٢) الأسماء والصفات، للبيهقي برقم (١٨٤).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٢٧).
(٤) مسند أبي يعلى الموصلي برقم (١٣٩٣).
(٥) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٢٠٨).
(٦) الترغيب والترهيب، للمنذري (٢/ ٤١٥).
(٧) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار برقم (٣٤٨٤).

بصيغة الجمع (**يقولون**) وفي بعض النسخ: (يقول)[(١)]، فصيغة الجمع ترجع إلى لفظ (**عبادك**)، وصيغة الإفراد ترجع إلى لفظة (**كل**). ويجوز الوجهان، وكلاهما ثابت أيضاً في الأصول.

قوله: (هذا): المشار إليه: كلمة التوحيد، ورد موسى عليه السلام ليس تقليلاً لهذه الكلمة، وإنما أراد شيئاً يختص به، معها.

قوله: (قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرَهن غيري) بالنصب، عطفاً على السماوات؛ أي: من فيهن من العمار، سوى الله عز وجل.

قوله: (والأرضين السبع) ولم يقل: وعامرهن غيري؛ لأن الله تعالى فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، فأخبر عن نفسه أنه في السماوات فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

ومعنى: أنه في السماء:

١ ـ إن أردنا بالسماوات: السماوات المبنية، التي هي السقف المحفوظ، فالمراد: أنه فوقهن.

٢ ـ وإن أردنا بالسماوات العلو، فـ(**في**) تدل على الظرفية. ولا شك أنّ الله موصوف بالعلو المطلق، وأما الأرضين، فإنّ الله تعالى ينزه أن يضاف إلى الأرضين؛ لأن من شأنهن السفول، والله مِن وصفِه العلو. وفي قوله: «السبع» تصريح بأن الأرضين سبع، وهذا موضع نادر يرد فيه تحديد الأرضين بسبع، وأما الموضع الآخر، ففي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيفهم من قوله: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾؛ أي: مثلهن في العدد.

قوله: (في كِفَّة): الكفة، بكسر الكاف، والفاء المفتوحة المشددة: هي التي يوضع فيها الثقل في الميزان، وكل ميزان له لسان وكِفتان.

قوله: (ولا إله إلا الله في كِفة) أراد الله تعالى أن يُبيِّن لموسى عليه السلام، ثقل (**لا إله إلا الله**)، وفضلها.

---

(١) هذه الرواية في الأسماء والصفات، للبيهقي برقم (١٨٤)، وفي عمل اليوم والليلة، للنسائي برقم (٨٣٤)، وفي صحيح ابن حبان برقم (٦٢١٨)، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم برقم (١٩٣٦)، ومسند أبي يعلى الموصلي برقم (١٣٩٣).

قوله: **(مالت بهن لا إلٰه إلا الله)**؛ أي: رجحت وثقلت بهن. **(رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه)**.

مناسبة الحديث للباب:

فيه دليل صريح على فضل التوحيد، وأنّ كلمة التوحيد ترجح بجميع المخلوقات.

فوائد الحديث:

١ ـ فضل **(لا إلٰه إلا الله)**؛ والترغيب في الإكثار منها.

ومما يدل على فضلها ما رواه الترمذي، وحسنه أن النبي ﷺ قال: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»[(١)].

٢ ـ ثقل هذه الكلمة في الميزان، ورجحانها بكل شيء.

ومما يدل أيضاً على رُجحانها وثقلها، حديث البطاقة المشهور، الذي رواه الترمذي، وحسَّنه: «**إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلّاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**»[(٢)].

وقد يعجب بعض الناس من ذلك، ويقول: تسعة وتسعون سجلّاً من

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الدعوات برقم (٣٥٨٥) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إلٰه إلا الله برقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة برقم (٤٣٠٠) وصححه الألباني.

الذنوب والخطايا ورجحت عليها **(لا إله إلا الله)**؟! ولا عجب من ذلك؛ لأن هذه الكلمة **(لا إله إلا الله)** إذا استقرت في سويداء القلب، وقامت معانيها من الخوف، والرجاء، والتوحيد، والتوكل، والاستعانة، والاستغاثة وغيرها من العبادات القلبية العظيمة، التي هي أشرف من العبادات البدنية، صار قائلها موحداً توحيداً حقيقيّاً لله تعالى، في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فعمرت قلب هذا الرجل الذي فَرَط منه خطايا وذنوب بلغت بكثرتها تسعة وتسعين سجلّاً، فصارت البطاقة بكيفيتها، أثقل من السجلات بكميتها، في الميزان.

وعلى هذا فلا يغتر أحد، فما أكثر من يقول: **(لا إله إلا الله)**، ويدخل النار، فليس كل من يقول: **(لا إله إلا الله)** يأتي بها على وجهها. وحديث البطاقة يدل على عظم هذه الكلمة وفضلها، وثقلها في الميزان، وأن من قالها بصدق، وإخلاص، يبتغي بذلك وجه الله، فإن الله ﷻ يثقل موازينه. وليس معنى ذلك أن صاحب البطاقة أفضل من غيره من المؤمنين، فلا شك أن المؤمنين الذين سلموا من الذنوب والخطايا والكبائر، وأتوا بـ**(لا إله إلا الله)** خير منه مقاماً، وأعظم درجة عند الله تعالى.

٣ ـ فضل موسى عليه السلام، وحرصه على العلم. وشواهد هذا كثيرة.

٤ ـ إثبات العلو لله ﷻ؛ لقوله: **«لو أن السماوات السبع، وعامرَهن غيري»**.

٥ ـ أنّ كلمة التوحيد، لا بد أن تقال بهذه الصيغة: **«لا إله إلا الله»** وأما ما استزل به الشيطان بعض المتهوكين من الجهلة والصوفية، حتى زين لهم الشيطان قول: **«إلا الله»** بحجة أنهم ربما أدركهم الأجل بعد النفي، وقبل الإثبات! ثم زين لهم أن يقتصروا على الضمير بدل الاسم الظاهر، فصاروا يقولون: «إلا هو»! ثم ما زال بهم حتى حملهم على أن يرددوا: «هو. هو». وقد رأيتُ في مدخل بعض الأربطة في بعض البلاد، مكتوب كلمة (هو)، منقوشةً على الجبل. وربما يُسمع بعضهم، وهو يطوف في البيت، يقول: «الله، الله، الله» وهذا ليس بدعاء ولا ذكر؛ لأنه لم يصدّر بياء النداء. ولا يكون دعاءً ونداءً إلا مصدَّراً بياء النداء، فلو قال: «يا الله» لكان أصوب وأقوم، ولا شك أن الأكمل أن يقول كما قال نبيّنا ﷺ: **«لا إله إلا الله»**، وكما علّم اللهُ موسى عليه السلام في هذا الحديث.

٦ ـ إثبات الميزان، وأنه حقيقي له كفتان.

٧ ـ حاجة الأنبياء إلى التعليم، وأنهم بشر قد تخفى عليهم بعض العلوم، وقد يذهلون عن بعض الحقائق العظيمة.

٨ ـ أنّ السماوات سبع، والأرضين كذلك، وأما كيفية ذلك، فالله أعلم به، فليس لنا أن نتخوض في كيفية هذه السبع السماوات الطباق، كأن نقول: هي المجرات! فهذا مما لا نقطع ولا نجزم به، وكذلك الأرضين، ليس لنا أن نقول: هي الطبقات الجيولوجية، وإنما نثبت أنها سبع سماوات، وسبع أراضين، كما أخبر الله، وأخبر نبيّه ﷺ.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وللترمذي وحسَّنه: عن أنس رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

الشرح

هذا الحديث رواه الترمذي، وحسنه، ورواه الإمام أحمد[2]؛ فالحديث حسن، والحسن من قسم المقبول؛ كالصحيح، غير أنه خفَّ فيه ضبط الراوي.

وأنس: هو أنس بن مالك بن النضر الخزرجي رضي الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، أتت به أمه، أم سليم رضي الله عنها، وهو ابن عشر سنين؛ ليخدم النبي ﷺ، وطلبت منه الدعاء له، فخدمه عشر سنين، ودعا له بأن يكثر الله تعالى ولده، وأن يدخله الجنة، فأدرك من ولده من صلبه أكثر من مائة، وكانت وفاته سنة (٧٢هـ)، وقيل: (٧٣هـ) وعمره قد جاوز المائة، ببركة دعاء النبي ﷺ.

قوله: (قال الله تعالى): هذا الحديث يُسمى «حديث قدسي» أو «إلٰهي»، وهو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه. والفرق بين الحديث القدسي والقرآن:

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٥٤٠).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢١٥٠٥) وقال محققو المسند: «حديث حسن».

١ ـ أن القرآن العظيم لفظه ومعناه من الله ﷻ، والحديث القدسي لفظه من النبي ﷺ، ومعناه من الله تعالى.

٢ ـ أن القرآن متعبَّد بتلاوته، بخلاف الحديث القدسي والنبوي، فلا يتعبد بتلاوتهما.

قوله: (يا ابن آدم): هذا خطاب يتناول كل آدمي، من حين أن أهبط الله آدم إلى آخر من يموت على وجه الأرض.

قوله: (لو أتيتني بقراب الأرض): يقال: (قُراب) بالضم، و(قِراب) بالكسر، والأولى أفصح وأشهر. وقراب الأرض: ملؤها، أو ما يقارب ملأها **(خطايا)**؛ أي: ذنوب.

قوله: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً): أي: مِتَّ على هذا الحال، عليه ذنوب، لكنه لا يشرك بالله ﷻ شيئاً.

قوله: (لأتيتك بقرابها مغفرة») المغفرة: هي الستر والتجاوز، ومنه سُمي المغفر مغفراً، وهو الخوذة التي تجعل على الرأس، فيستفيد منها لابسها فائدتين: الستر، والوقاية، فهي تستر رأسه، وتقيه من الضربات، أو السقطات، فكذلك مغفرة الله تتضمن الستر والتجاوز؛ وذلك أن الله ﷻ يقول لعبده المؤمن يوم القيامة: «**سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

فهذا حديث عظيم من أحاديث الرجاء، لكنه يتضمن شرطاً عظيماً، وقيداً ثقيلاً، وهو السلامة من الشرك. و**(شيئاً)** نكرة، والنكرة في سياق النفي والنهي والشرط تدل على العموم.

⁂ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، فهو يدل على فضل التوحيد، وكثرة ثوابه، وتكفيره للذنوب، فهو مطابق للترجمة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود: ١٨] برقم (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة قبول توبة القاتل وإن كثر قتله برقم (٢٧٦٨).

فوائد الحديث:

١ ـ فضل التوحيد.

٢ ـ جود الله، وكرمه، وحلمه.

٣ ـ إبطال مقالة الخوارج: أن الإنسان إذا مات وهو على كبيرة، فإنه لا يدخل الجنة، فهذا الحديث لم يشترط التوبة، وإنما اشترط التوحيد، والخلوص من الشرك.

٤ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى؛ لقوله: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم**».

٥ ـ إثبات البعث والحساب؛ لقوله: «**ثم لقيتني**».

٦ ـ بيان معنى: (لا إله إلا الله) التي يحصل بها تكفير الذنوب، وهي أن تكون خالصة من الشرك، ولا تكون مجرد قول باللسان، تخالفها الأفعال؛ بل لا بد أن يكون صاحبها سالماً من الشرك.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **سعة فضل الله.**

ويُستفاد ذلك من مجموع هذه النصوص.

الثانية **كثرة ثواب التوحيد عند الله.**

ويُؤخذ ذلك من الآية، ومن قول النبي ﷺ في الحديث: «**أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل**».

الثالثة **تكفيره مع ذلك للذنوب.**

ويُؤخذ هذا من قوله في حديث عتبان: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

الرابعة **تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.**

وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ والظلم هو الشرك، وهذا دليل على تفسير القرآن بالقرآن، وهو أعلى درجات التفسير، كما صنع النبي ﷺ في هذا الموضع. ثم يفسر القرآن بالسُّنَّة؛ كقول النبي ﷺ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»(١). ثم الدرجة الثالثة: تفسير القرآن بكلام الصحابة، فإن للصحابة منزلة ليست لغيرهم؛ لأنهم شاهدوا التنزيل، وسمعوا التأويل، من النبي ﷺ، فأقوالهم معتبرة، وهذه الدرجات الثلاث في تفسير القرآن هي التي سار عليها الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله.

الخامسة **تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة.**

فمن تأملها وجد أنها تدل على التوحيد وتوابعه، وترد على جميع ملل الكفر والضلال، من المشركين، والمبتدعة، واليهود والنصارى، ومنكري البعث، والقائلين بفناء الجنة والنار، والوعيدية.

السادسة **أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وما بعده تبيَّن لك معنى قول: «لا إلٰه إلا الله»، وتبيَّن لك خطأ المغرورين.**

أي: الجمع بين حديث عبادة، وحديث عتبان، وما بعده، يبين معنى: لا إلٰه إلا الله، وأنها ليست مجرد كلمة تقال باللسان؛ بل مقيدة بالقيود الثقال، وهي: الإخلاص لله تعالى، وعدم الإخلال بمقتضاها، فلا يغشى شركاً؛ بل يقولها معتقداً بالجَنان، ناطقاً باللسان، عاملاً بالأركان. والمغرورون الذين أشار إليهم المصنف رحمه الله، هم الذين زين لهم الشيطان بأن من قال: لا إلٰه إلا الله، يحرم على النار، ولو فعل ما فعل، من العكوف على القبور، ودعاء غير الله،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه برقم (١٩١٧).

والنذر لغير الله، والذبح لغير الله، فهذا غرور لا ريب. وقد فند دعاويهم في «كشف الشبهات».

السابعة التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

وهو الإخلاص، كما قال: «**يبتغي بذلك وجه الله**».

الثامنة كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل (لا إلٰه إلا الله).

وهذا بيّن في قصة موسى عليه السلام، فإنه طلب من ربه عز وجل شيئاً خاصّاً يدعوه ويذكره به، فأحاله الله على ما هو أولى وأكمل.

التاسعة التنبيه لرُجحانها بجميع المخلوقات، مع أنّ كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

وهذا ملحظ مهم، فكثير ممن يقول: (**لا إلٰه إلا الله**) يخف ميزانه، مع أن معه «**لا إلٰه إلا الله**»، والسبب أنه لم يأتِ بها على مراد الله، ولم يحققها التحقيق المطلوب، فلا يحصل له بها هذا الثقل الذي وُصف في الحديث.

العاشرة النص على أنّ الأرضين سبع؛ كالسمٰوات.

لقوله: «**والأرضين السبع**».

الحادية عشرة أنّ لهن عُمّاراً.

أي: أن في السماوات من يعمرهن، وهم ملائكة الرحمٰن، وهم كثر؛ لقول النبي ﷺ: «**إن السماء أطت، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجداً لله**»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء برقم (٤١٩٠)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**» برقم (٢٣١٢) وحسنه الألباني.

الثانية عشرة **إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.**

والصفات التي أثبتها الله في هذا الحديث هي: صفة الكلام لله ﷻ في قوله: «**قال الله تعالى**» وصفة الوجه لله تعالى؛ لقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**».

الثالثة عشرة **أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» أنّ ترك الشرك ليس قولها باللسان.**

فينبغي لطالب العلم التفطن لحمل النصوص بعضها على بعض، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل.

الرابعة عشرة **تأمُّل الجمع بين كون عيسى ومحمد عَبْدَيْ الله ورسولَيْه.**

فقد جمع الله تعالى بين عبديه ورسوليه عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بوصف العبادة والرسالة؛ لكي يُبيِّن أنّ شرط التوحيد: ألا يجعل لله نداً، ولا شبيهاً، ولا نظيراً، كما فعلت النصارى، حينما وصفت عيسى عليه السلام بأوصاف لا تنبغي إلا لله ﷻ، وألا يجعل مع الله شريكاً له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، فكل هذا منافٍ للتوحيد.

الخامسة عشرة **معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.**

أي: أنه مخلوق بكلمته، كما أن آدم عليه السلام مخلوق بكلمته، لا أنه هو ذات الكلمة.

السادسة عشرة **معرفة كونه روحاً منه.**

أي: أنه روح من الأرواح التي خلقها الله ﷻ، وصدرت منه ابتداءً، ولم يتسلسل كما تسلسل غيره من الآدميين، وهذا فيه حكمة: وهي أن خلْق عيسى ابن مريم تمت به القسمة الرباعية: فالله خلق بشراً من أب وأم، وهم سائر البشر، وخلق بشراً بلا أب ولا أم، وهو آدم عليه السلام، وخلق بشراً من أم بلا أب،

وهو عيسى ابن مريم، وخلق بشراً من أب بلا أم، وهي حواء؛ لأن آدم بالنسبة لها بمنزلة الأب، فإن الله ﷻ ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلعه الأيسر القصير؛ ولهذا يقول نبيِّنا ﷺ: «**استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه**»[(١)].

السابعة عشرة **معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.**

فمن فضل الإيمان بذلك: أن كان الإيمان بهما شرطاً في حصول هذا الموعود «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»، مع ما يثمره الإيمان بهما من عمل الصالحات، واجتناب السيئات.

الثامنة عشرة **معرفة قوله: «على ما كان من العمل».**

أي: من مات عاملاً بما ذُكر في الحديث، معتقداً له، دخل الجنة، على ما كان عليه من صلاح وفساد؛ لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ونال من مراتبها بحسب عمله.

التاسعة عشرة **معرفة أن الميزان له كفتان.**

يُستفاد ذلك من قوله: «**لو أن السماوات والأرض... في كفة، ولا إله إلا الله في كفة**».

العشرون **معرفة ذكر الوجه.**

لقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**» فالله تعالى له وجه كريم، يليق بجلاله وعظمته، وقد جاء في الحديث: «**حجابه النور ـ** وفي رواية: **النار ـ لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه، ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(٢)]. وقد أثبت الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم ـ صلوات الله عليه وذريته ـ برقم (٣٣٣١)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم (١٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**إن الله لا ينام**»، وفي قوله: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» برقم (١٧٩).

لنفسه الوجه في آيات كثيرة من كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠] وأثبت له نبيّه ﷺ ذلك في كثير من الأحاديث، منها: قوله: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**»(١)، فنؤمن بما أخبر الله تعالى به عن نفسه، وما أخبر به نبيه ﷺ، ونثبت ذلك إثباتاً بلا تمثيل، ولا نسلك مسالك المنحرفين من المتكلمين الذين حرَّفوا هذه النصوص؛ لما سبق إلى أذهانهم لوثة التشبيه، فأرادوا الفرار من التمثيل فوقعوا في التعطيل، فزعموا أن الله تعالى ليس له وجه كريم، ولا حجة لهم عند الله على إنكار ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، فليسوا أعلم بالله من الله، ولا أعلم بالله من رسول الله، ولا هم أصدق من الله قيلاً، ولا أحسن منه حديثاً، ولا هم أغير على الله من نفسه ومن نبيّه ﷺ، حتى يتجرأ أحدهم فيقول: المراد بالوجه الذات، أو الثواب! فمن أين له ذلك؟

فما أجرأ هذا القائل على إنكار شيء أخبر الله به تعالى عن نفسه! فليطب المسلم بإثبات الصفة نفساً، وليقر به عيناً، وليثبت لربه ما أثبته لنفسه، إثباتاً بلا تمثيل، وينزهه تنزيهاً بلا تعطيل.



---

(١) أخرجه ابن حبان في باب صفة الصلاة، ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله برقم (١٩٧١) وصححه الألباني.



باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حصين بن عبد الرحمٰن قال: كنتُ عند سعيد بن جبير، فقال: من منكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا، ثم قلتُ: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغتُ، قال: فما صنعتَ؟ قلتُ: ارتقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلتُ: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت عليَّ الأمم، فرأيتُ النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرتُ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض، فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»؛ فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب برقم =

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا من حسن ترتيب المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه لما عقد أولاً: كتاب التوحيد؛ ليبيِّن حقيقة التوحيد وماهيته، ثنَّى بعقد باب في: فضل التوحيد، وما يكفِّر من الذنوب، ثم ثلّث بهذا الباب؛ ليبين أن ذلك الفضل المشار إليه فيما تقدم، إنما يناله من حقق التوحيد.

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ جاءت هذه الآية في معرِض الثناء على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تخفى منزلة هذا النبي الحنيف، الموحد، الذي أخلص قلبه لله عَزَّ وَجَلَّ، حتى بلغ الدرجات العلى. فهو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إمام الموحدين في الأولين، وكان من توحيده لرب العالمين: أن فرّغ قلبه لله، فكان خليلاً له، والدليل على ذلك: أنه لما ألقاه قومه في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فأنجاه الله تعالى منها؛ لما علم صدق توحيده وإيمانه.

ومن عجيب أمره، أن الله تعالى ابتلاه في أحب الناس إليه، وهو ابنه الذي جاءه وقت الكبر، فأراه الله في المنام أنه يذبحه، ابتلاءً واختباراً له، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يرد بذلك استشارته، وإنما أراد التلطف في الإخبار، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: كما يصنع من يريد أن يذكي الشاة. ولم يكن مراد الله عَزَّ وَجَلَّ تعذيب هذا العبد الصالح، ولا إزهاق روح ولده، ولا إسالة دمه، ولكن أراد الله تعالى أن يخرج ما في قلبه من العبودية، فنجحا في الاختبار، ورأى الله تعالى منه ما يستحق للرفعة، فكان خليل الرحمٰن، فقال الله عنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾.

= (٦٥٤١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب برقم (٢٢٠) واللفظ لمسلم.

و(**أمة**) ترد في اللغة على معانٍ متنوعة، **منها**:

١ ـ **الزمن**؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]؛ يعني: تذكر بعد مرور زمن.

٢ ـ **قوم وجماعة**؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: جماعة وقوم.

٣ ـ **الدين والملة**؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ أي: على دين.

٤ ـ **الإمام**، كما في هذا الموضع: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾.

فقد وصف الله إبراهيم عليه السلام، **بأربعة أوصاف**:

الأول: الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ ولا شك أنه قد بلغ منها المراتب العلى. والإمامة في الدين تنال بالصبر واليقين، كما قيل: «بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين»[(١)]، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فمن أراد الإمامة في الدين، ولو كانت إمامة نسبية، فعليه بالصبر واليقين، فإنه ما من إمام إلا ويبتلى، فمن اعتصم بالصبر واليقين بالله عز وجل نال الإمامة في الدين.

الثاني: القنوت، قال تعالى: ﴿قَانِتًا﴾ والقنوت: طول العبادة، ودوام الطاعة؛ وذلك أن العبادة لا تكون عبادة حقة صادقة إلا بالديمومة، وأما صاحب الهبَّات فليس له ثبات، وقد قال النبي ﷺ: «**أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ**»[(٢)]، وكان عمله ﷺ ديمة[(٣)]؛ يعني: مستديم، فمن شأن الأئمة الهداة أن يكونوا مستديمي الطاعة لله عز وجل، وقد كان إبراهيم عليه السلام كذلك، وهذا دليل الإخلاص.

---

(١) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. ينظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى برقم (٢٨١٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يخص شيئاً من الأيام برقم (١٩٨٧)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره برقم (٧٨٣).

الثالث: أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن طريق الشرك إلى طريق التوحيد، وهذا يحصل به من الثواب والرفعة أعظم مما يحصل بالأعمال البدنية، والعبادات العملية.

الرابع: البراءة من المشركين، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ فكان إبراهيم عليه السلام أكثر الناس مجانبة للمشركين، يقول ربنا عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ ولما بقي على إبراهيم بقية في هذا الأمر، وهي وعده بالاستغفار لأبيه، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] نهاه الله عز وجل عن ذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة: ١١٤] فضرب إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة في الإخلاص لله عز وجل، والبراءة من أعداء الله، فلهذا نال الإمامة في الدين.

مناسبة الآية للباب:

مناسبة جلية؛ لأن فيها بيان صفات خليل الرحمٰن، التي نال بها الدرجات العلى، وهي تحقيق التوحيد، والله تعالى قد أمرنا أن نتأسى به، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

فوائد الآية:

١ ـ فضل إبراهيم عليه السلام، وإمامته في الدين.

٢ ـ الاتصاف بهذه الصفات العظيمة التي اتصف بها إبراهيم عليه السلام.

٣ ـ البراءة من المشركين، وأن من شأن المؤمن الحنيف أن يجانب أهل الإشراك، كما قال نبيّنا ﷺ عن المؤمن والكافر: «**لا تراءى ناراهما**»[1]، كناية

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود برقم (٢٦٤٥)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين برقم (١٦٠٤) وصححه الألباني.

عن البعد، وقال ﷺ فيما روى عنه بسند جيد: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**»(١)، فلا بد أن يكون في قلب المؤمن نفرة طبيعية ممن يشرك بالله العظيم، لا تطيب نفسه، ولا يرضى أن يخالط هؤلاء الذين يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة، أو يعبدون الأصنام والأوثان، إلا بقصد دعوتهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ أثنى الله ﷻ فيها على طائفة من عباده المؤمنين، الذين من جملة أوصافهم هذا الوصف البديع: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ فدل ذلك على أن البراءة من الشرك من أعظم أسباب تحقيق التوحيد.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة جلية، لما فيها من الثناء على هؤلاء المؤمنين وبيان فضائلهم، ومنها البراءة من الشرك.

فوائد الآية:

١ ـ فضل من حقق التوحيد.

٢ ـ الدعوة إلى تحقيق التوحيد.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(عن حصين بن عبد الرحمٰن) وهو حصين بن عبد الرحمٰن السلمي، من تابعي التابعين، كانت وفاته سنة (١٣١هـ) وعمِّر حتى جاوز التسعين.

قوله: **(كنتُ عند سعيد بن جبير)** سعيد بن جبير: إمام فقيه، ثبت، ثقة، أحد أكابر تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي، سنة (٩٥هـ) لما خرج مع الفقهاء في فتنة ابن الأشعث، فقبض عليه، وقتله صبراً، وتوفي رحمه الله ولم يبلغ الخمسين. وكان من أوعية العلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين برقم (١٦٠٤)، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود برقم (٢٦٤٥) وصححه الألباني.

قوله: **(فقال: أيكم رأى الكوكب؟)** الكوكب: المراد به الشهاب الثاقب الذي يلمع في السماء، وإن كان الكوكب، في اصطلاح أهل الفلك، يطلق على الأجرام السماوية الكبيرة؛ كالأرض، والقمر، والمشتري، وزحل، ويسمُّون الأجرام الملتهبة نجوماً؛ كالشمس.

قوله: **(انقض البارحة؟)**؛ أي: هوى وسقط، والبارحة: اسم يطلق على الليلة التي مضت، ولكنه لا يعبر بهذا التعبير عند العرب إلا بعد الزوال، وأما إذا كان قبل الزوال، فإنهم يقولون: الليلة.

قوله: **(فقلتُ: أنا)** القائل حصين، ثم استدرك فقال: **(ثم قلتُ: أما أني لم أكن في صلاة)** وذلك لشدة إخلاصه، ومداراته للرياء، خشي أن يتوهم القوم أنه كان قائماً يتهجد، وهذا يدل على عمق إخلاص السلف ـ رحمهم الله ـ، عكس من يوهم غيره بأنه على عمل صالح، وهو ليس كذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فشتان بين الحالين.

قوله: **(ولكني لدغتُ)**؛ أي: لسعتني العقرب بشوكتها، فأصابه السم منها، ومعلوم أن اللديغ لا يتمكن من النوم؛ لأن السم يجري في عروقه، ويجد له ألماً.

قوله: **(فما صنعتَ؟)**: سأله عن تصرفه عندما لدغته العقرب؛ لأن هذا مجلس علم ومذاكرة.

قوله: **(ارتقيتُ)**؛ أي: طلبتُ الرقية، وسوف يأتي ـ إن شاء الله ـ باب مستقل في الرقى؛ والجائز منها والممنوع.

قوله: **(فما حملك على ذلك؟)**؛ أي: ما الذي سوَّغ لك هذا الصنيع؟ وهذا يدل على أن السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا لا يأتون ولا يذرون إلا ببينة.

قوله: **(حديث حدثناه الشعبي)** الشعبي: إمام مشهور، وهو عامر بن شراحيل الهمداني، ولد في خلافة عمر، وكانت وفاته بعد القرن بثلاث سنين، سنة (١٠٣هـ) وهو من حملة الحديث، ورواته الثقات.

قوله: **(قال: وما حدثكم؟ قلتُ: حدثنا عن بريدة بن الحصيب)** بريدة بن الحصيب: من أجلة أصحاب رسول الله ﷺ، كانت وفاته سنة (٦٣هـ).

قوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة) هذا حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، والمنفي في قوله: «لا رقية» الصحة والجواز؛ لأن مراتب النفي ثلاث:

١ ـ إما نفي الوجود.

٢ ـ وإما نفي الصحة.

٣ ـ وإما نفي الكمال.

فأول ما ينبغي أن يتوجه النفي إلى نفي الوجود، فإذا قيل مثلاً: لا أحد في الدار، دل ذلك على نفي الوجود، فإن تعذر ذلك يُنتقل إلى نفي الصحة؛ كقول النبي ﷺ: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**(١)، فهذا النفي لا يتوجه إلى نفي الوجود؛ لأنه هيئة الصلاة قد تكون موجودة، فقد يقوم شخص يصلي الصلاة المعروفة، لكنه قد لا يقرأ بفاتحة الكتاب، فيكون المنفي حينئذٍ الصحة، فإن لم يمكن حمله على الوجود والصحة، انتقلنا إلى الكمال؛ كقول النبي ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**»(٢)؛ فصلاة الذي يرقب الطعام، أو يدافع الأخبثين صحيحة، لكنها لم تصل إلى درجة الكمال؛ لأن ذلك يسبب له تشويشاً.

قوله: (إلا من عين أو حمة) العين: هو ما يصيب العائن بعينه، بسبب تكيف نفسه تكيفاً شيطانياً يقوم في قلب الحاسد ـ والعياذ بالله ـ؛ فيمتزج به تأثير الشيطان، فيؤثر ذلك أذىً في هذا المعيون، فيقتله، أو يمرضه. والعين حق، وتأثيرها ثابت شرعاً، وواقع قدراً؛ ولا سبيل إلى إنكارها، ومن أنكرها فقد كذّب بالنصوص، وأنكر الواقع، ومن الناس من لا يعترف بمثل هذه الأمور، ويقول: هذه خرافات! والسبب أنه لا يؤمن إلا بالماديات والمحسوسات، وقد قال النبي ﷺ: **«العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»**(٣)، وقال النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة، للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت برقم (٧٥٦)، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة... برقم (٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين برقم (٥٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى برقم (٢١٨٨).

أيضاً: «**إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه، فليدع له بالبركة**»[1]. فالواجب الاعتدال في هذا الأمر؛ لأن من الناس من يخاف من العين خوفاً مبالغاً فيه، يصل إلى درجة «الرُّهاب»، ويسبب له إعاقة عن مصالحه، فلا يكاد يعمل عملاً، أو ينشئُ سفراً؛ خوفاً من العين، وهذا خوف منافٍ للتوكل. والواجب على العبد أن يؤمن بقدر الله، وأن يستدفع العين بالعِوذ الشرعية، والتوكل على الله ﷻ، وأن يتجنب ما يدعو إلى استفزاز النفوس الشيطانية له، فيتحدث بنعم الله عليه، ولا يباهي بذلك، لئلا يثير النفوس المحرومة، فيقع فيها نوع من هذا التكيف الشيطاني، فيلحقه منها أذى، ولا يحجزه ذلك عن مصالحه، وإلا وقع في الذم من الجانب المقابل.

أما الحُمة: فهي السم؛ كسم العقرب، أو الثعبان، أو النحل، والسبب في تسميتها بهذا أنها تؤدي إلى احتماء الجسم، فيلحقه نوع من الحمى والحرارة.

قوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) هذا يدل على أدب السلف ـ رحمهم الله ـ، وحسن تحاورهم عند المناظرة، فلا يثرِّب بعضهم على بعض، ولا يسفِّه بعضهم بعضاً، وإنما يتبيّن أحدهم من صاحبه ويستفهم عن السبب الذي حمله على فعله، فإذا ذكر خيراً حمده عليه، كما قال سعيد بن جبير: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» أي: قد أصاب من عمل بما بلغه من علم، كما صنع حصين بن عبد الرحمٰن بعمله بهذا الحديث، لكن سعيد بن جبير أراد أن ينقله إلى درجة أعلى وأكمل، فحدّثه بحديث عن ابن عباس، ورفعه إلى النبي ﷺ.

قوله: (عُرضت عليّ الأمم) هذا ليس عرضاً حسياً؛ لأن الأمم قد فنيت، ولكن هذا أمر قد جرى له ﷺ ليلة الإسراء، حيث عرض الله تعالى عليه أشباح الأمم، وأمثالها، وهيئاتها.

قوله: (فرأيتُ النبي) المراد جنس النبي، لا نبيّاً معيناً.

قوله: (ومعه الرهط) الرهط: الجماعة دون العشرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨].

قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان)؛ أي: لم يتبعه إلا رجل أو رجلان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب، باب العين برقم (٣٥٠٩) وصححه الألباني.

قوله: (**والنبي وليس معه أحد**)؛ أي: لم يتبعه أحد.

قوله: (**إذ رفع لي سواد عظيم**)؛ أي: بينما هو كذلك إذ أُبرز له سواد عظيم، والسواد أو الأسودة: الجماعة أو الأشخاص الذين يبدون من بُعد.

قوله: (**فظننت أنهم أمتي**) ظن ذلك لما أخبره الله تعالى من كثرة أتباعه.

قوله: (**فقيل لي: هذا موسى وقومه**) لأن موسى عليه السلام أعظم أنبياء بني لإسرائيل، وأكثرهم تابعاً.

قوله: (**فنظرتُ فإذا سواد عظيم**)؛ أي: سواد آخر، أعظم من السواد الأول، وذلك أن أمة محمد ﷺ يمثلون شطر أهل الجنة[(١)]، وفي حديث أنهم يمثلون ثلثي أهل الجنة، كما قال ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»[(٢)]. وفي حديث آخر قال: «**أنتم ثلث أهل الجنة؛ بل أنتم نصف أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الباقي**»[(٣)].

قوله: (**فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»**) هذا من مناقب أمة محمد ﷺ، فيهم هذه الطائفة المصطفاة، والثلة المميزة، الذين لا يحاسبون، ولا يعذبون.

قوله: (**ثم نهض، فدخل منزله**) نهوضه ﷺ، قد يكون لحاجة، أو أنه قصد أن يفكر الصحابة هذا الأمر، ويشحذوا أذهانهم، وهذا من حسن تعليمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: (**فخاض الناس في أولئك**)؛ أي: في هؤلاء السبعين ألفاً، من هم؟

قوله: (**فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ**)؛ أي: السابقون للإسلام، الذين لهم صحبة قديمة، مع النبي، أو أكثر ملازمة له ﷺ، وإلا فهؤلاء الناس صحابة أيضاً.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة برقم (٢٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ برقم (٤٢٨٩)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في وصف أهل الجنة برقم (٢٥٤٦) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٩٠٨٠) وقال محققو المسند: «حسن لغيره».

قوله: (وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام)؛ أي: لم يتلطخوا بشرك أبداً؛ كعبد الله بن الزبير، ومن كان على شاكلته، ممن ولدوا في الإسلام، ولم يدركوا شيئاً من أمر الجاهلية، فعدُّوا ذلك منقبة لهم.

قوله: (وذكروا أشياء)؛ أي: احتمالات أخرى، أضرب الراوي عن ذكرها.

قوله: (فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه)؛ أي: بما جرى بينهم من المحاورة.

قوله: («هم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون») هؤلاء السعداء هم من جمع هذه **الأوصاف الأربعة، وهي:**

الوصف الأول: عدم طلب الرقية؛ لقوله: «**لا يسترقون**»؛ أي: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم إذا أُصيبوا بشيء، وإنما يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء، أو يرقون أنفسهم بأنفسهم؛ وذلك لكمال توكلهم على الله ﷻ. ولا شك أنّ هذا دليل كمال التوكل، وكمال التوحيد، وتحقيقه. وهذا هو سبب إيراد سعيد بن جبير هذا الحديث على حصين بن عبد الرحمٰن؛ لأن حصيناً ارتقى لما لدغته العقرب، فأراد أن يرفعه إلى رتبة أعلى. ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن هذا من الترقي في الكمال، فكان الأليق به والأكمل له ألا يطلب من أحد أن يرقيه، وإنما يرقي نفسه بنفسه؛ لأن النبي ﷺ وصف السبعين ألفاً بأنهم لا يسترقون؛ وذلك لكمال توكلهم، ورضاهم بقدر الله ﷻ فلم يلجئوا إلى مخلوق، وهذا من تحقيق التوحيد.

الوصف الثاني: عدم الاكتواء؛ لقوله: «**ولا يكتوون**»؛ أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم. والكي: معروف، وهو علاج ثابت، أثبته النبي ﷺ، فقال: «**إن كان في شيء من أدويتكم خير، ففي شربة عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار، وما أحب أن أكتوي**»(١)، فأثبت النبي ﷺ الشفاء في هذه الأشياء، لكنه قال ﷺ: «**وأنهى أمتي عن الكي**»(٢)، وهذا النهي حمله العلماء على الكراهة، أو خلاف الأولى، بدليل أن النبي ﷺ كوى بعض أصحابه من ذات الشوكة؛

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الحجامة من الشقيقة والصداع برقم (٥٧٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث برقم (٥٦٨٠).

كأسعد بن زرارة[١]، وهو من الأنصار السابقين إلى الإسلام، وكوى النبي ﷺ أُبي بن كعب[٢]، فالكي نافع وجائز. وتزول الكراهة ـ كما قال بعض العلماء ـ: إذا تعين الكي شفاء لداءٍ معين، مثل ذات الجنب، وهو مرض معروف عند الأطباء، تلتصق فيها الرئة بالأضلاع فلا يتمكن الإنسان من التنفس إلا بمشقة بالغة، فهذا المرض إذا عُولج بالكي انفك هذا الالتصاق مباشرة. وقد رأيتُ بعيني بعض من أصيب بذات الجنب، بمجرد أن كوي انطلق نفَسُه، وعاد سوياً كما كان ـ بإذن الله. فتكون الكراهة في ما لم يتعين فيه الكي علاجاً. والوارد عن النبي ﷺ في مسألة الكي أنواع، قال ابن القيم: «فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: **أحدها**: فعله. **والثاني**: عدم محبته له. **والثالث**: الثناء على من تركه. **والرابع**: النهي عنه.

ولا تعارض بينها ـ بحمد الله تعالى ـ فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه؛ بل يفعل خوفاً من حدوث الداء، والله أعلم»[٣]. ولا شك أن من ترك الكي فقد استكمل أحد أوصاف السبعين ألفاً.

الوصف الثالث: عدم التطير؛ لقوله: «**ولا يتطيرون**»؛ أي: لا يتشاءمون بالطير، خلافاً لأهل الجاهلية؛ الذين كانوا يتشاءمون من السوانح والجوانح ـ كما سيأتينا إن شاء الله في باب الطيرة، فكان أحدهم إذا رأى مثلاً، بومة أو غراباً، وهو يريد سفراً صرفه ذلك عن سفره، تشاؤماً، وظناً بأن هذه السفرة غير محمودة العواقب، بسبب ما رآه، فهذا من أمر الجاهلية؛ لأنهم أثبتوا سبباً لم يجعله الله سبباً لا حساً، ولا شرعاً، فلا شأن للطيور بالأقدار.

وليس المقصود بقوله: «**لا يتطيرون**» أنه لا يقع في قلوبهم شيء من الطيرة،

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر أبواب الطب، باب ما جاء في الرخصة في ذلك برقم (٢٠٥٠) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٤٢٥٢) وقال محققو المسند: «إسناده قوي على شرط مسلم».

(٣) الطب النبوي، لابن القيم ـ الفكر (ص٥٠).

وإنما المقصود أنه إن وقع في نفوسهم شيء لم يصرفهم عن مصالحهم، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»(١)؛ أي: ربما وقع في نفس الإنسان شيء من التطير، إلا أن المؤمن يتوكل على الله، ويمضي.

الوصف الرابع: التوكل على الله؛ لقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**». التوكل: اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المفاسد، مع فعل الأسباب. وبناءً على هذا: فليس المقصود من هذه الأوصاف أن يدع الإنسان الأخذ بالأسباب، فهؤلاء السبعون ألفاً لم يتركوا الأسباب مطلقاً، وإنما تركوا الاسترقاء، والاكتواء، والتطير، وأخذوا بأعظم الأسباب، وهو التوكل على الله، ومن التوكل على الله أن يلح العبد على ربه بالدعاء، ويتوجه إليه بكليته، موقناً بأنه لا يكشف الضر إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

فهذا من أعظم الأسباب، وبهذا يتبيّن أنّ هذا الحديث لا يخالف مقتضيات الشريعة، ومقاصدها الدالة على الأخذ بالأسباب، فمحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والالتفات إلى الأسباب شرك، والتوحيد والمطلوب أن يأخذ العبد بالأسباب، مع تعلق قلبه بمسبب الأسباب. والحق موجب التوحيد والعقل والشرع.

فمن أحب أن يندرج في زمرة السبعين ألفاً، فليحقق هذه الأوصاف التي بيَّنها النبي ﷺ، ولا يلزم من ذلك ألا يتداوى؛ لأن مفهوم التداوي أوسع من الرقية والكي.

وقد اختلف العلماء في حكم التداوي، فذهب الحنابلة إلى أن التداوي مباح، وتركه أفضل، نصَّ على ذلك الإمام أحمد(٢)، وربما قال ذلك بناء على هذا الحديث. فالذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن التداوي مطلوب، لا سيما إذا كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة برقم (٣٥٣٨)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في الطيرة برقم (٣٩١٠)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة برقم (١٦١٤) وصححه الألباني.

(٢) المبدع في شرح المقنع (٢/٢١٧).

المرض يحجزه عن مصالحه، ويفوت عليه مقاصد دينية، ودنيوية، كما هو الغالب، ففي هذه الحالة ينبغي للإنسان أن يستدفع الضرر، وليس في هذا مناقضة للقدر؛ بل كما قال عمر رضي الله عنه لما وقع طاعون عُمواس في الشام، فلم يدخل دمشق، فكتب إليه أبو عبيدة، عامر بن الجراح، يعتب عليه، ويقول: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟[١]، فكون الإنسان يفعل الأسباب، ويستدفع القدر بالقدر، يعد ذلك منافياً للتوكل.

قوله: (فقام عكاشة بن محصن) هو: عكاشة بن محصن الأسدي رضي الله عنه، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهو ممن هاجر، وشهد بدراً، واستشهد في قتال أهل الردة، في السنة الثانية عشرة من الهجرة.

قوله: (فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم) هذه مبادرة من الصحابي، والمبادرة تأتي على صاحبها بالخير، أما التواني فإنه يفوت الإنسان الخير العظيم.

قوله: (قال: «أنت منهم») هذه بشارة عظيمة لهذا الصحابي.

قوله: (ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة») هذا الرجل مبهم، غير مُسمى، وقد قال بعض الشراح: إنه كان منافقاً، ولا يصح، ولا دلالة على ذلك من قول النبي ﷺ: **«سبقك بها عكاشة»** لأنه لو كان منافقاً ما حرص على هذا الخير، ولكن النبي ﷺ خشي أن ينفتح الباب، ثم يقوم من لا يستحق هذه الرتبة فيسألها، فأجاب بهذا الجواب البديع المؤدب، الذي فيه ما يشعر أن هذا الرجل قد يدخل في هذه الفضيلة؛ لأنه قال: «سبقك بها عكاشة» أي: هو سابق وأنت لاحق، فيكون تطييباً لنفسه.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأنه يدل على أن من ترك الاسترقاء والاكتواء، والتطير، وتوكل

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون برقم (٥٧٢٩)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها برقم (٢٢١٩).

على الله، حقق التوحيد، وأن من حققه دخل الجنة، كما في ترجمة الباب.

فوائد الحديث:

١ ـ جواز الرقية من العين، والحمة، لقوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**».

٢ ـ نفع الرقية الشرعية من هذين الأمرين (العين والحمة).

٣ ـ ليس من لازم قول النبي ﷺ: «**لا يسترقون**» أن يردَّ الإنسان من يرقيه من غير طلب منه، فمن رُقي دون طلب منه، لا يعد بذلك خارجاً من هذه الفضيلة.

تنبيه: زاد مسلم وحده: «**ولا يَرْقُون**»[١]، وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الزيادة وهماً من الراوي[٢]، واللفظ المحفوظ: «**لا يسترقون**».

* * *

(١) جاء الجمع بين اللفظين في صحيح مسلم: «**هم الذين لا يرقون ولا يسترقون**» في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب برقم (٢٢٠). وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/٤٠٨): «ووقع في رواية سعيد بن منصور عند مسلم: «**ولا يرقون**» بدل «**ولا يكتوون**» وقد أنكر الشيخ تقي الدين بن تيمية هذه الرواية، وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقي يحسن إلى الذي يرقيه، فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟ وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ، ورقى النبي أصحابه، وأذن لهم في الرقى، وقال: «**من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**» والنفع مطلوب، قال: وأما المسترقي، فإنه يسأل غيره، ويرجو نفعه، وتمام التوكل ينافي ذلك، قال: وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم، ولا يكويهم، ولا يتطيرون من شيء.

وأجاب غيره: بأن الزيادة من الثقة مقبولة، وسعيد بن منصور حافظ، وقد اعتمده البخاري ومسلم، واعتمد مسلم على روايته هذه، وبأن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه، والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المسترقي؛ لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل، فكذا يقال له، والذي يفعل غيره به ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى، ولا في فعل النبي ﷺ له أيضاً دلالة؛ لأنه في مقام التشريع، وتبيين الأحكام، ويمكن أن يقال: إنما ترك المذكورون الرقى والاسترقاء حسماً للمادة؛ لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه، وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة، وإنما منع منها ما كان شركاً، أو احتمله».

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/٢٧).

📖 قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى معرفة مراتب الناس في التوحيد.

فالناس في التوحيد مراتب، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبيّنا محمد ﷺ أكملهم توحيداً، حيث حازا أعلى الرتب، ثم يتفاوت المؤمنون في سلم التوحيد والإيمان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

الثانية ما معنى تحقيقه.

تحقيق التوحيد يكون بقيام القلب بالعبودية الخالصة لله عَزَّ وَجَلَّ، وعدم التعلق بسواه.

الثالثة ثناؤه سبحانه على إبراهيم؛ لأنه لم يكن من المشركين.

وفي هذا دليل على أنّ أخص أوصاف المؤمنين: البراءة من المشركين.

الرابعة ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

وذلك في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

الخامسة كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

لحديث الباب، حديث حصين، وفيه: «**لا يسترقون، ولا يكتوون**».

السادسة كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

لأنه ختم أوصافهم بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**» فبه يحصل تحقيق التوحيد.

السابعة **عمق علم الصحابة؛ لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.**

والدليل على ذلك: أنه لما ذكر لهم النبي ﷺ هؤلاء السبعين ألفاً، خاضوا في تحري هؤلاء، فقال بعضهم: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يقع منهم شرك، وقال بعضهم: إنهم الذين صحبوا النبي ﷺ، فعلّقوا الأمر على أمور عملية لمعرفتهم أن ذلك لا ينال إلا بعمل، بخلاف أهل الإرجاء الذين يقللون من شأن العمل.

الثامنة **حرصهم على الخير.**

لأنهم سألوا ذلك بقصد التأسي؛ ويظهر ذلك أيضاً من حرص عكاشة بن محصن على الخير.

التاسعة **فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.**

أما من ناحية الكم: فلأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.
وأما من ناحية الكيف: فلأن فيهم هؤلاء السبعين ألفاً؛ بل قد ورد في بعض الروايات: «إن مع كل واحد من السبعين ألفاً، سبعين ألفاً أيضاً»(١).

العاشرة **فضيلة أصحاب موسى.**

وذلك لكثرتهم، وتميزهم عن بقية الأمم التي لم تتبع أنبيائها.

الحادية عشرة: **عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.**

وهذه كرامة لنبيِّنا ﷺ، وآية من آيات نبوته، وقد قدمنا: أن ذلك كان ليلة المعراج.

الثانية عشرة **أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيِّها.**

وذلك لقول النبي ﷺ: **«فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل**

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٢٣٠٣) وقال محققو المسند: «صحيح».

والرجلان، والنبي وليس معه أحد»، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

الثالثة عشرة قلة من استجاب للأنبياء.

والدليل على ذلك: قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠]، وقال هنا: **«فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»**.

الرابعة عشرة أنَّ من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده.

لقوله: **«والنبي ليس معه أحد»** وهذا ليس فيه منقصة لهذا النبي الذي يأتي وحده، ولم يستجب له أحد؛ لأن النبي ليس عليه إلا البلاغ.

الخامسة عشرة ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

فالعبرة بالحق، كما قال ابن مسعود لميمون بن مهران: «إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك»[1]، فلا يغتر أحد بالكثرة، وإنما العبرة بموافقة السُّنَّة، واتباع الحق.

السادسة عشرة الرخصة في الرقية من العين والحمة.

لحديث بريدة بن الحصيب: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»**.

السابعة عشرة عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا» فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

فالسلف ـ رحمهم الله ـ لعمق علمهم، ودقة فهمهم، كان يعذر بعضهم بعضاً، ويعلمون أن ما صدر عن الشارع لا يعارض بعضه بعضاً؛ بل يصدِّق بعضه

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، للالكائي (ص١٠٩).

بعضاً، فلهذا لما رأى سعيد بن جبير ما احتج به حصين صواباً عذره، وقبله، وحدَّثه بما سمعه عن ابن عباس، وهو رتبة أعلى، فلا تعارض بين الأمرين؛ ولهذا لا يُلجأ إلى القول بالنسخ إلا **بشرطين**:

١ ـ العلم بالتاريخ.

٢ ـ وعدم إمكانية الجمع.

وبعض طلبة العلم لديه نزعة إلى نصب الخلاف، وهواية في ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض، وليس نصب الخلاف من دأب أهل العلم، ولم يكن الخلاف مقصوداً لذاته عند السلف، ولكنهم قد يختلفون، ويكون هذا الاختلاف بينهم رحمةً وسعةً، وعذراً لبعضهم البعض، وإذا عُرف الحق اتبعوه.

الثامنة عشرة **بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.**

لقول حصين بن عبد الرحمٰن: «أما إني لم أكن في صلاة» وهذا دليل على حرصهم على الإخلاص، وبعدهم عن الرياء.

التاسعة عشرة **قوله: «أنت منهم» عَلَمٌ من أعلام النبوة.**

هذا من دلائل نبوة نبيّنا ﷺ؛ لإعلام الله إياه أنّ عكاشة من هؤلاء السبعين.

العشرون **فضيلة عكاشة بن محصن.**

لدخوله في السبعين ألفاً، الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهي فضيلة عظيمة جدّاً، وقد قُتل شهيداً في حروب الردة رضي الله عنه.

الحادية والعشرون **استعماله المعاريض.**

وقد جاء في «الأثر»: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1]؛ فالمعاريض: هي إجابة الحكيم التي يكون فيها نوع من التورية، وقد يلجأ إليها

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٨٥٧). وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٣٢٧): «صحيح موقوفاً عن مطرف عن عمران بن حصين».

المرء لحاجة، فالنبي ﷺ هنا عرّض، ولم يصرِّح، فقال: «**سبقك بها عكاشة**»، وكما وقع منه ﷺ يوم بدر حينما خرج وأبو بكر، يتحسَّسان عن قريش، فوجدا رجلاً، فسألاه عن قريش، وعددهم، فقال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال النبي ﷺ: «**إن أخبرتنا أخبرناك**» فأخبره بعدة قريش، فقال: فممن أنتما؟ قال: «**نحن من ماء**»(١)، ثم انصرفا، فجعل الرجل يتساءل ويقول: من ماء؟ من ماء؟ والنبي ﷺ وأبو بكر فعلاً من ماء؛ لأن كل شيء قد خُلق من ماء. فلا بأس أن يستعمل الإنسان المعاريض إذا احتاج إليها، ولكن لا يكثر من المعاريض والتورية؛ لأن هذا يُؤدي إلى عدم ثقة الناس بكلامه، فينبغي استعمال الصدق والوضوح والبينة.

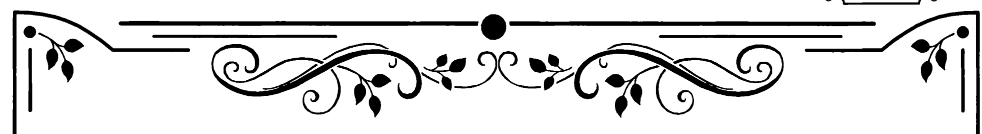
الثانية والعشرون حُسن خُلُقه ﷺ.

حيث أنه كان ﷺ لا يجبه أحداً في وجهه، فلما قام الرجل، وقال: «**ادعُ الله أن يجعلني منهم**» لم يقل له: لست منهم؛ بل قال: «**سبقك بها عكاشة**» فهذا جواب يدل على حسن الخلق، فإنه أراد ألا يُحرج أو يجرح السائل.

وقد كان النبي ﷺ لا يجبه أحداً في وجهه، حتى إنه ذات مرة، دخل عليه رجل من أصحابه، وعليه ثياب فيها صفرة، وكان النبي ﷺ ينهى عن الصفرة للرجال، ونهى عن لبس الأحمر والمعصفر، فكره النبي ﷺ ذلك، فلما ولّى الرجل، قال لأصحابه: «**لو أمرتم هذا، فغسل عنه هذه الصفرة**» قال الراوي: وكان لا يكاد يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه(٢).



(١) سيرة ابن هشام، ت: طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٨٩).
(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٢٦٢٨) وقال محقِّقو المسند: «إسناده حسن».



باب الخوف من الشرك

وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسُئل عنه، فقال: «الرياء»(١). (رواه أحمد، والطبراني، والبيهقي)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار»(٢)، رواه البخاري.

ولمسلم: عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»(٣).

الشرح

قوله: (باب: الخوف من الشرك): حقيقة الخوف: قال الجرجاني: (توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب)(٤)، وهو غريزة إنسانية جبل الله عليها بني آدم.

والخوف أنواع: منه ما يكون عبادة يُتقرب به إلى الله ﷻ، ومن ذلك توقي الشرك وأسبابه، ومنه ما يكون خوفاً طبيعيّاً جبليّاً غريزيّاً؛ كالخوف من السبع،

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٣٦٣٠) وقال محققو المسند: «حديث حسن».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥] برقم (٤٤٩٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار برقم (٩٣).

(٤) التعريفات. ص١٣٧، ط. دار الكتاب العربي.

والأفعى، والنار، والغرق، ونحو ذلك، ومنه ما يكون شركاً، أو معصيةً. وسيفرد المصنف له باباً مستقلّاً.

قوله: (من الشرك) الشرك تقدم تعريفه، وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

⌘ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف رحمه الله حقيقة التوحيد، وفضله، وتحقيقه، وما يترتب عليه من الآثار الحميدة، ناسب أن يذكر ما يضاده، وهو الشرك، وأن يحذر منه؛ لأن الشرك:

١ ـ أظلم الظلم.

٢ ـ وهو تنقُّص لربِّ العالمين.

٣ ـ وهو عدل غيره به سبحانه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

٤ ـ وهو صرف خالص حقه لغيره.

٥ ـ وهو مناقض للمقصود من الخلق والأمر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

٦ ـ وهو تشبيه للمخلوق القاصر، الناقص، الضعيف، بالرب الغني، القادر، الكامل من جميع الوجوه. لكن المحجوبين عن الله عز وجل لا يبصرون هذا القبح في الشرك، فلهذا يهيمون في عبادة الأصنام، ودعاء الأنداد.

قوله: (وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾) المغفرة مشتقة من (الغفْر) وهو: الستر والتجاوز، ومنه سُمي المغفر الذي يجعل على الرأس مغفراً؛ لأنه يستر الرأس ويقيه.

قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر إشراكاً به، قلّ، أو كثر.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ما دون الشرك، وهي الكبائر، والصغائر، فقيّد مغفرتها بالمشيئة.

⌘ مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، فإنها توجب الخوف من الشرك؛ لأن الله لا يغفره، وشيء لا يغفره الله عز وجل حريٌّ بأن يخاف منه.

قوله: (وقال الخليل عليه السلام) الخليل هو: إبراهيم عليه السلام؛ وسمي الخليل لكمال عبوديته، ومحبته لله، والخلة: أعلى درجات المحبة؛ لأنها تتخلل القلب. قال بشار:

قد تخلّلت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾؛ أي: اجعلني في جانب، والشرك في جانب آخر، وهذا كناية عن شدة المباعدة.

قوله: ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ الأصنام: جمع صنم، وهو ما صُور على هيئة ذوات الأرواح من إنسان، أو حيوان، أو طير. وأما الوثن: فقيل: هو ما عُبد من دون الله على صورة نُصُب، أو بيت، أو أسطوانة، أو عمود، أو شجر، أو قبر، ونحو ذلك، فكل ذلك يُسمى وثناً. وقيل: إن الوثن يشمل الصنم؛ أخذاً من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهم كانوا يعبدون الأصنام، فدل ذلك على أن لفظ الوثن يعم الصنم.

فإبراهيم عليه السلام دعا ربه بأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وهو إمام الموحدين؛ وهذا يدل على خطر الشرك؛ وضرورة الخوف من الوقوع فيه؛ ولهذا قال إبراهيم التيمي رحمه الله تعليقاً على هذه الدعوة: «من يأمن البلاء بعد الخليل؟!»[1]، فإذا كان إبراهيم عليه السلام الذي هو خليل الرحمٰن، والذي حقق التوحيد لله عز وجل في مواقف مشهورة عظيمة، يخشى على نفسه أن يقع في الشرك، فكيف يأمن الإنسان على نفسه بعد إبراهيم؟!

❋ مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، وهو أن دعاء إبراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه وبنيه الشرك، وهو إمام الحنفاء، دليل على أن الشرك أمر مخوف، حقيقٌ بالحذر منه.

فوائد الآيتين:

١ ـ أنّ الشرك أعظم الذنوب.

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٣٦٨).

٢ ـ أن الشرك لا يغفر، وظاهر الآية يتناول الأكبر والأصغر، فيدخل الأصغر في الموازنة بين الحسنات والسيئات.

٣ ـ أنّ ما عدا الشرك من الذنوب فإنه تحت المشيئة والإرادة؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فإن شاء الله تعالى عفا عنه ابتداءً، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة بسبب حسنة التوحيد.

٤ ـ الرد على الخوارج القائلين بكفر مرتكب الكبيرة.

٥ ـ الخوف من الشرك، وأن هذا دأب الأنبياء، ومنهم بالخليل.

٦ ـ مشروعية الدعاء للأبناء، والأهل، والقرابة. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام في ابنيه إسماعيل، وإسحاق؛ فعصمهما من الشرك، ببركة هذا الدعاء، وجعلهما نبيَّين، وأما الذرية: فإنه لما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي المقابل لا يشرع للإنسان أن يدعو على بنيه؛ وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً كان مع النبي ﷺ، وكان معه بعير قد أرهقه، فقال له: يا ملعون، لشدة تغيظه على بعيره، فقال النبي ﷺ: «**انزل عنه، فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم**»(١).

٧ ـ الرد على من زعم أنه لا يقع شرك في هذه الأمة، وأنها في مأمن من الشرك؛ كدعاة الشرك الذين يزعمون أن أمة محمد ﷺ لا يمكن أن يقع فيها الشرك، أرادوا بذلك أن يسوغوا شركهم وباطلهم. بل الحق أن الشرك أمر مخوف شرعاً، وممكن عقلاً وقدراً. وسوف يعقد المصنف رحمه الله باباً يدل على ذلك، وهو باب: (أن من هذه الأمة من يعبد الأوثان)، وساق فيه قول النبي ﷺ: «**حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر برقم (٣٠٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها برقم (٤٢٥٢)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٢٢٤٥٢) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم». وصححه الألباني.

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسُئل عنه، فقال: «الرياء») هذا الحديث لم يخرجه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد أخرجه الإمام أحمد، كما تقدم، والطبراني[١]، والبيهقي[٢]، والبغوي[٣]، وجمعٌ من المحدثين، وهو حديث حسن؛ وهو من رواية محمود بن لبيد. والمنذري رَحِمَهُ اللَّهُ يشكك في سماعه من النبي ﷺ، حيث قال: محمود بن لبيد قد رأى النبي ﷺ، لكن كان صغيراً، ولم يسمع منه[٤]، فلعله سمع هذا الحديث من غيره، ومما يُؤيد ذلك: أن الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ روى هذا الحديث بسنده عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج عن رسول الله ﷺ[٥]، وقد قال المنذري: إسناده جيد[٦]، وقال العراقي: رجاله ثقات[٧]، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح[٨]، وقال ابن حجر: إسناده حسن[٩].

قوله: (أخوف ما أخاف عليكم)؛ أي: أشد ما أخاف عليكم، والمخاطبون هم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فمن بعدهم من عموم الأمة من باب أولى.

قوله: («الشرك الأصغر» فسُئل عنه، فقال: «الرياء») الرياء: مشتق من المُراءة والرؤيا؛ أي: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس وحمدهم. وسيعقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ باباً في الرياء. فالنبي ﷺ لكمال شفقته ورحمته بأمته، خاف على أمته أن يقعوا في الشرك الأصغر؛ فكأنه لما رأى أن الله ﷻ عرّفهم بحقيقة الشرك الأكبر، وهو عبادة الأصنام، فعرفوا ذلك، خشي أن يتسلل إلى قلوبهم شيء أهون من ذلك، وهو التصنع، والتجمل للناس، وهو الرياء، فيطيل الإنسان قيامه وركوعه وسجوده لما يرى من نظر الناس إليه، أو يتصدق بالمال لكي يقال: فلان كريم، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٤٣٠١).
(٢) شعب الإيمان برقم (٦٤١٢).
(٣) شرح السُّنَّة برقم (٤١٣٥).
(٤) الترغيب والترهيب (١/ ٣٤).
(٥) المعجم الكبير، للطبراني (٤/ ٢٥٣).
(٦) الترغيب والترهيب (١/ ٣٤).
(٧) تخريج الإحياء (٣/ ١٢).
(٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨٠٧) (١/ ١٠٢).
(٩) بلوغ المرام من أدلة الأحكام (ص٥٨٠).

ومن صور الشرك الأصغر:

١ ـ قول الإنسان: ما شاء الله وشئت، فيعطف بالواو التي تقتضي التسوية.

٢ ـ الحلف بغير الله؛ كقول بعض الناس: والنبي، أو: والكعبة، أو: والأمانة، ونحو هذه الألفاظ.

٣ ـ أن يتخذ الإنسان سبباً لم يجعله الله سبباً؛ كمن يربط في عضده خيطاً، أو يضع في يده حلقة يستدفع بها العين.

٤ ـ وضع القلائد والتمائم في رقاب البهائم أو الأطفال.

٥ ـ قول بعض الناس: مُطرنا بنوء كذا وكذا.

٦ ـ قول بعض الناس: لولا فلان، وما أشبه ذلك.

فالشرك الأصغر يكون في النيات، والألفاظ، والأفعال، التي لا تبلغ حد الشرك الأكبر، وسيأتي لها أبواب مفردة.

وبين الشرك الأكبر، والأصغر، عدة فروق:

الفرق الأول: أن الشرك الأكبر مخرج عن الملة، والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة.

الفرق الثاني: الشرك الأكبر لا يغفره الله أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وأما الشرك الأصغر فقيل: إنه يمكن أن يغفره الله تعالى، كما يغفر الكبائر، وقيل: لا يغفره الله أبداً، عملاً بعمومات النصوص.

الفرق الثالث: أن الشرك الأكبر صاحبه مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الشرك الأصغر: فإن صاحبه لا يخلد في النار، حتى لو دخلها بسبب رُجحان سيئاته على حسناته، فإن مآله إلى الجنة بعد أن يطهر بالنار.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة؛ لأن فيه الخوف من الشرك الأصغر، ومن باب أولى الأكبر، فالشرك ينبغي أن يخاف منه، بنوعيه؛ أكبره وأصغره.

فوائد الحديث:

١ ـ شدة الخوف من الوقوع في الشرك، ومنه الشرك الأصغر، لدقته، وخفائه؛ فهو يتسلل إلى النفوس، ولا يُعلم به.

٢ ـ كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، كما وصفه ربه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣ ـ تأصيل تقسيم العلماء للشرك إلى قسمين: أكبر وأصغر؛ فالأكبر: هو تسوية غير الله بالله، فيما هو من خصائص الله، والأصغر: وهو ما دون ذلك.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار»، رواه البخاري) **(من)**: اسم شرط، و**(مات)** فعل الشرط، **«وهو يدعو»** جملة حالية؛ أي: يسأله، ويطلبه، ويستغيث به، وجواب الشرط وجزاؤه قوله: **«دخل النار»**. فمن مات وهو يدعو لله نِدّاً؛ أي: وهو مقيم على الشرك، دخل النار. والند: المثيل والنظير والشبيه.

ولا شك أنه لا يجوز اتخاذ الأنداد، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

مناسبة الحديث للباب:

أن الشرك موجب لدخول النار، فلهذا كان الخوف منه مطلوباً.

فوائد الحديث:

١ ـ الخوف من الشرك.

٢ ـ أن من دعا من دون الله نبيّاً، أو ملكاً، أو إنساناً، أو جنيّاً، أو حجراً، أو شجراً، أو أي شيء من الأشياء؛ فإنه يدخل النار؛ لأن كلمة: **«نِدّاً»** نكرة في سياق الشرط تدل على العموم، فالدعاء لا يكون إلا لله، والعبادة لا تكون إلا له.

٣ ـ أن الشرك لا يغفره الله؛ لعموم قوله: **«من مات وهو يدعو من دون لله نِدّاً دخل النار»**.

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ولمسلم: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «من لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»).** هذا الحديث رواه مسلم، وهو متضمن لما جاء في حديث ابن مسعود السابق، وزائد عليه، فإن النبي ﷺ ذكر في هذا الحديث **جملتين شرطيتين:**

أولاهما: قوله: «**من لقي الله**» أي: من وافى الله تعالى يوم القيامة، وهذا اللقاء لقاء تام؛ لأنه تحصل به الرؤية، وتكليم رب العالمين، تكليم رضا، «**وهو لا يشرك به شيئاً**»: جملة حالية. «**دخل الجنة**»: هذا الدخول إما أن يكون دخولاً أوليّاً؛ وذلك في حق من ليس عليه إلا اللمم، أو عليه كبائر غفرها الله له، وإما أن يكون دخولاً مآليّاً، في حق من شاء الله أن يعذبه بكبيرته، ثم يصير إلى الجنة، فهذان الصنفان يدخلان الجنة إما دخولاً أوليّاً، أو دخولاً ختاميّاً.

الثانية: قوله: «**ومن لقيه يشرك به شيئاً**» هذا اللقاء ليس كاللقاء الأول؛ لأن هذه بمعنى: الموافاة، فلا يحصل لهم فضل النظر إلى وجه الله الكريم، ولا التكليم، إهانةً لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾ [آل عمران: ٧٧]. «**دخل النار**»؛ يعني: دخولاً مؤكداً محققاً مؤبّداً؛ لأنه مات مشركاً.

❖ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من التخويف البليغ من الشرك؛ إذ أن مصير المشرك النار.

فوائد الحديث:

١ ـ الخوف من الشرك.

٢ ـ فضل التوحيد.

٣ ـ أن أثر التوحيد أعظم من أثر الأعمال، فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة.

٤ ـ قرب الجنة والنار، فما هي إلا مجرد حالة في القلب؛ فمن وحّد الله تعالى

بقلبه، ولم يدع غيره، فهو من أهل الجنة، ومن أشرك معه غيره، فهو من أهل النار.

* * *

📖 **قال المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **الخوف من الشرك.**

الخوف من الشرك: لكونه لا يغفره الله تعالى؛ ولأن إبراهيم إمام الحنفاء، قد خاف منه، ودعا الله أن يجنبه إياه؛ ولكون بعضه خفياً.

الثانية **أن الرياء من الشرك.**

لتسمية النبي ﷺ له بذلك، في قوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسُئل عنه، فقال: «**الرياء**».

الثالثة **أنه من الشرك الأصغر.**

لأن النبي ﷺ جعل الرياء تعريفاً للشرك الأصغر.

الرابعة **أنه أخوف ما يُخاف منه على الصالحين.**

لأن النبي ﷺ خاطب بذلك الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم خير القرون؛ فالصالح قد يأتيه الشيطان من هذا الجانب؛ لأنه يرى أن المنزلة والرفعة بالصلاح، والدين، والعلم، فقد يسعى لتحصيلها لبلوغ هذه المنزلة، أو يرائي بها. وليس معنى ذلك أن يترك الإنسان طلب العلم، أو فعل الطاعات خوف الرياء؛ لأن من الناس من يختل عنده الميزان، فيدع بعض الأعمال الصالحة خوفاً من الوقوع في الرياء، ليس هذا مراد النبي ﷺ قطعاً، وإنما مراده: أن يحرص الإنسان على العمل الصالح الخالص.

الخامسة **قرب الجنة والنار.**

حيث أخبر النبي ﷺ أن من مات غير مشرك دخل الجنة، ومن مات مشركاً

دخل النار، فلم يجعل بينه وبينهما شيئاً إلا الموت على ذلك.

السادسة **الجمع بين قربهما في حديث واحد.**

كما في حديث جابر رضي الله عنه، فقد جمع في حديث واحد بين قوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة**»، وبين قوله: «**ومن لقي الله يشرك به دخل النار**».

السابعة **أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.**

وهذا غير ممتنع؛ بل واقع! فإنه يوجد من يجتهد في العبادة ويقع في الشرك، فلا ينتفع بعمله، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] لأنه لم يكن خالصاً لله عز وجل؛ ولما سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن عبد الله بن زيد بن جدعان، وكان من أشراف قريش، وكان يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(١). وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام، أتاه راهب، شيخ كبير، متقهِّل(٢)، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين! طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤](٣). فهذا الراهب في عبادة سنين طويلة، ولكن على شرك؛ لأنه يدعو المسيح وأمه، فلم يغن عنه ذلك شيئاً؛ بل زاده من الله بعداً، وسخطاً.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل برقم (٢١٤).

(٢) أي: شعث وسخ، يقال: أقهل الرجل، وتقهَّل. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٢٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/٢٧).

الثامنة المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

فيجب على كل أحد أن يخاف من الشرك، ولا يدَّعي أنه بمأمن من الوقوع فيه؛ بل يتوقاه. وكلما عظم توحيد العبد، عظم خوفه من الشرك، فبينهما تلازم، فهذا خليل الرحمٰن يدعو ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، ولذا قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن من البلاء بعد إبراهيم»[(١)]، ومن الناس من يظن أنه بمنأى ومعزل عن الشرك، وأنه لا يمكن أن يقع فيه، وهذا الطمأنينة هي التي أدت بمشركي هذا الزمان إلى أن يستزلهم الشيطان إلى الوقوع في صور الشرك المختلفة.

التاسعة اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

أي: أن الأصنام كانت فتنة لكثير من الناس، فاعتبر إبراهيم عليه السلام بحال الأكثر، وهذا دليل على أننا عند التقويم، والاستنتاج، والتحليل، نعتبر بحال الأكثر، فالأكثرية معتبرة، إلا فيما خالف نصّاً.

العاشرة فيه تفسير: لا إلٰه إلا الله، كما ذكره البخاري.

أي: أن معنى: لا إلٰه إلا الله: إفراد الله بالعبادة، والبراءة ممن عبد سواه، وألا يجعل له ندّاً، فإن البخاري ساق الحديث، وهو قول النبي ﷺ: «**من مات وهو يدعو لله ندّاً دخل النار**» تحت باب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الحادية عشر: فضيلة من سَلِم من الشرك.

فمن سلم من الشرك دخل الجنة، وأي فضيلة أعظم من هذه؟! ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) تفسير الطبري برقم (١٧/١٧).



باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

الشرح

المقصود بـ(**الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**): الدعوة إلى التوحيد. ومعنى الشهادة: الاعتقاد بالجَنان، المعبَّر عنه باللسان، المصدَّق بعمل الأركان، بأن لا معبود بحق إلا الله.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف رحمه الله حقيقة التوحيد، وفضله، وتحقيقه، والخوف من الشرك، رأى رحمه الله أنه لا يتم ذلك إلا بالدعوة إليه، فعقد هذا الباب. وهذا من حسن ترتيبه، وكل موحِّد يذوق حلاوة التوحيد يجد في نفسه دافعاً للدعوة إليه؛ كأثر متعدٍّ بعد الأثر اللازم، فالأثر اللازم: أن يقوم في قلب الإنسان تحقيق التوحيد، والأثر المتعدي: الدعوة إليه.

قوله: (﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾) هذه الآية تتضمن المنهج الرشيد لكل داعية إلى الله، والخطاب موجه للنبي ﷺ ولأمته من بعده. وقد اشتملت على **ستة معالم دعوية:**

الأول: قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾: الحق واحد لا يتعدد، فإفراد السبيل دليل على أن الطريق واحد، وأن الحق واحد لا يتعدد، بينما طرق الباطل كثيرة، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وليس الأمر كما يزعم بعض المنحرفين من زنادقة الصوفية، ودعاة توحيد الأديان، وغيرهم، بأن جميع الطرق تُؤدي إلى الله، هذا زعم باطل، فليس إلا الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»(١)، رواه مسلم.

الثاني: قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: الإخلاص؛ فمن شأن المؤمن أن يدعو إلى الله، لا إلى نفسه، ولا إلى جماعته، ولا إلى حزبه، ولا إلى أي شيء آخر، سوى الله ودينه، وشرعته.

الثالث: قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: البصيرة: هي العلم، والبينة، بالشرع، وبالواقع، فمن شأن الداعية أن يكون عالماً بمراد الله سبحانه، عارفاً بالواقع.

الرابع: قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: التعاون على البر والتقوى، فإنه قد نبّه بهذا على معنى التعاون والاجتماع، ومنع الاختلاف والتفرق.

الخامس: قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه رب العالمين في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، من أعظم مقاصد الدعوة، فيجب أن تصطبغ هذه الدعوة بالتنزيه.

السادس: قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾: البراءة من الشرك وأهله.

مناسبة الآية للباب:

مطابِقة للترجمة، فإن قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تدل على أنه يدعو إلى عبادة الله، والإخلاص له في ذلك، وهذا هو معنى شهادة: أن لا إلٰه إلا الله.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ الحق واحد لا يتعدد؛ لأنه وحّد (السبيل).

٢ ـ الرد على من صوّب جميع الطرق والأديان والملل، وزعم أنها توصل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته برقم (١٥٣).

إلى الله، من زنادقة الصوفية، حتى قال كبيرهم الذي علمهم الزندقة، ابن عربي الطائي الأندلسي:

لَقد كُنتُ قبلَ اليومِ أُنْكِرُ صَاحِبي — إِذَا لَم يَكُنْ دِيني إِلَى دِينِهِ دَانِي
فَقدْ صَار قَلبي قَابلاً كُل صُورةٍ — فَمَرْعَى لِغِزْلَانٍ وَدَيرٍ لِرُهْبَانِ
وَبَيتٌ لَأوثانٍ وَكَعبةُ طَائِفٍ — وَألْوَاحُ تَوراةٍ وَمصْحَفُ قُرآنِ
أَدينُ بدينِ الحبِ أينَ تَوَجهتْ — ركائبُهُ، فَالحبُ دِيني وَإِيماني(١)

وقال أيضاً:

عَقَدَ الخلائقُ فِي الإلٰهِ عَقَائِدَ — وَأَنَا اعتقدتُ جَميعَ مَا اعتَقَدُوهُ(٢)

فهؤلاء الزنادقة يسوغون كل طريق، ويزعمون أن كل مشرك، وعابد وثن، على حق، وهذا من أكفر الكفر، وهو نتيجة لقولهم بالاتحاد ووحدة الوجود، وهي عقيدة كفرية.

٣ ـ الرد على من قال: لا إنكار في مسائل الخلاف، والصحيح: إنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمن اجتهد واستفرغ وسعه، وهو من أهل الاجتهاد، والعلم، والورع، وتوصل إلى أمر ما، فإنه لا يُنكر عليه. وأما قول: «لا إنكار في مسائل الخلاف»، فهذا يقتضي غلق باب العلم والبيان والنصيحة، وتسويغ الخطأ.

٤ ـ وجوب الإخلاص، فيجب على الداعية إلى الله أن يتعاهد قلبه، ويفرغه من حظوظ الدنيا ونزعاتها. وما أحوج طلبة العلم إلى هذا الأمر، فإن طالب العلم إذا كتب الله له القبول، حصل له حظوة وتصدُّر وإكرام، فعليه أن يعلم أن هذا محض فضل الله عليه، فلا يستطيل بهذا على عباد الله، ولا يستقضي به الحاجات، ولا يستغل منزلته لمصالحه؛ بل يجعل عمله خالصاً لله ﷻ، ولا يهين علمه، ويدنس نقاءه؛ بل يصون علمه، ويحفظ مكانته، كما قال علي بن عبد العزيز الجرجاني رحمه الله:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم — وَلَوْ عَظّمُوهُ فِي النُّفوسِ لَعَظَّما

(١) الأبيات له في الكشكول (١/ ٣٠).
(٢) البيت، للحلاج في ديوانه (ص٧٦)، وينسب أيضاً لابن عربي، وهو الأصح.

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا مُحيّاهُ بِالأطْمَاعِ حَتّى تَجَهَّمَا[١].

٥ ـ أن العلم من شروط الدعوة، فلا يتصدى للدعوة إلى الله جاهل؛ لأن الجاهل إذا دعا أفسد أكثر مما أصلح. ومن الناس من يشتغل بالدعوة إلى الله بلا علم، فيسأله الناس، فيفتيهم برأيه، وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[٢]، وليس معنى ذلك أن يسكت طالب العلم عن بيان الحق الذي يعلمه، فمن علم مسألة فهو بها عالم، فليبلغها لغيره، ولا يتجاوزها إلى ما لا يعلم.

وقد كان الأئمة ـ رحمهم الله ـ لا يفتون بما لا يعلمون، حتى إن رجلاً أتى إلى الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، من مكان بعيد، وسأله عن أربعين مسألة، فقال في ست وثلاثين منها: لا أدري، وأجاب عن أربع، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، كيف أرجع إلى قومي، قال: ارجع إليهم، وقل لهم: إني سألتُ مالكاً في أربعين مسألة، فقال في ست وثلاثين: لا أدري[٣]، فينبغي لطالب العلم أن يتحرى، ويتوقى أن يقول على الله بغير علم؛ لأنه موقِّع عن رب العالمين.

٦ ـ ضرورة العلم بالحال؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ والبصيرة هي التمييز بين الأمور، فينبغي أن يعرف حال المخاطبين، وحال المدعوين، وحال الناس، وتقلبات الأحوال؛ ليعينه ذلك على تنزيل الدليل الشرعي على الواقع، وتكييف المسألة تكييفاً صحيحاً، فيستدل استدلالاً صحيحاً، ليحكم حكماً صحيحاً. وهذا يحصل ـ بتوفيق الله ـ بالدربة.

٧ ـ وجوب التعاون بين الدعاة؛ لقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فينبغي لأهل الطريق الواحد، والمنهج الواحد: أن يتعاونوا على البر والتقوى، وليس من لازم

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٥٢)، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم برقم (١٠٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه برقم (٢٦٧٣).

(٣) الشرح الكبير، لابن قدامة (١١/ ٣٩١) وفي التمهيد اختلاف في عدد المسائل التي سُئل عنها، حيث قال ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٧٣): «عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري».

ذلك: أن لا يحصل بينهم اختلاف في الاجتهاد، فلم يزل الناس يختلفون في الفروع، حتى أصحاب النبي ﷺ ربما اختلفوا في بعض الفروع؛ في الفرائض وغيرها، ولكن هذا الخلاف كما قيل: لا يفسد للود قضية؛ لأن الكل قصده التوصل للحق، وقد استفرغ وسعه، والكل متفقون على أن المرجع الكتاب والسُّنَّة، فينبغي للدعاة إلى الله أن يتعاونوا، وألا يمنعهم خلاف يسير أن يكونوا جبهة واحدة؛ لأن الخلاف شر، وقد أمر الله عباده بالتعاون على البر والتقوى، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال نبيّه ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخواناً**»(١).

فينبغي لطلبة العلم أن يرسِّخوا هذا المفهوم في قلوبهم، وأن يعلموا أن من مقاصد الشريعة: الألفة، والتعاون، والتواد، وأن لا يستزلهم الشيطان تحت أي مسمى، أو دعوة، إلى التشاجر، والتنازع، والاختلاف، والفرقة، وأن يميزوا بين ما يستحق المفاصلة من المسائل الكبرى، وبين المسائل التي يسوغ فيها الخلاف.

٨ ـ وجوب تنزيه الله ﷻ؛ لقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وقد كان النبي ﷺ ينزه ربه أعظم التنزيه، فلما جاءه جماعة من الأعراب، فقال أحدهم: فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: «**ويحك! أتدري ما تقول؟**» وسبَّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا**»(٢)، فينبغي أن يعظم العبد ربه:

ـ في ذاته: فيعتقد أن له ذاتاً لا تشبه الذوات، سبحانه وبحمده، وأن كل ما خطر بباله من سمات المخلوقين، وشيات المحدثين، فالله ليس كذلك.

ـ في أسمائه: فيعتقد له الأسماء الحسنى التي بلغت الغاية في حسنها.

ـ في صفاته: فيعتقد له صفات الكمال التي لا يتطرق إليها النقص بوجه من الوجوه، فكل لازم يلزم على صفات الآدميين، فيه نقص، أو عيب، أو مماثلة، فالله بريء منه، ومنزه عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر برقم (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر برقم (٢٥٥٩).
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية برقم (٤٧٢٦) وضعفه الألباني.

- في شرعه: فيعتقد أن شرع الله منزه عن الظلم، والقصور؛ لأن من الناس من يظن أن الله شرع شرائع تصلح قبل أربعة عشر قرناً، ولم تعد صالحة الآن، فيقال لهؤلاء: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]. فمن تنزيه الرب، تنزيه شرعه، فلا يظن في شرعه نقصاً بوجه من الوجوه؛ ولما أنشد بعض الزنادقة منتقداً قطع اليد في السرقة، فقال:

يَدٌ بِخَمْس مِئِينَ عَسجدٍ وُدِيَتْ ... مَا بالُهَا قُطعتْ فِي رُبعِ دِينارِ؟
تَحكُّمٌ مَا لنا إِلَّا السُّكوتُ لهُ ... وَأَنْ نَعُوذ بِمولانا منَ النَّار[١].

أجابه بعض العلماء قائلاً:

عِزُّ الأمانةِ أغْلاها وَأرْخصها ... ذُلُّ الخِيانةِ، فافْهمْ حِكمةَ الْباري[٢]

- في قدره: فينزهه عن الظلم والحيف، والعجز، ويعتقد أن الله لا يقضي قضاء إلا لحكمة، ولا يقضي على عبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، فليست المقدورات خبط عشواء، ولا ضربة لازب؛ بل كل شيء عنده بمقدار، فينزه الله تعالى في جميع هذه الأمور.

٩ - البراءة من المشركين، والنفرة منهم؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ ونسمع في الآونة الأخيرة، من بني جلدتنا، من يسمي مسألة الولاء والبراء: ثقافة الكراهية! مع أن هذه الكراهة كراهة أَمر الله بها شرعاً، فيجب أن نحب ما يحب الله، ونبغض ما يبغض الله، كما نسمع كثيراً التعبير بلفظ «احترام الآخَر»، يهوديّاً أو نصرانيّاً أو مجوسيّاً، أو مشركاً! بما يقتضي مودته! والواجب علينا أن نبيِّن له الحق الذي هدانا الله إليه، وندعوه إليه، ولا نعتدي عليه، لا أن نغض الطرف عن ضلاله، وندعه في غيه.

* * *

(١) البيتان، للمعري في نكث الهميان في نكت العميان (ص٣٦)، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ١٤٣).
(٢) البيت لعلم الدّين السخاوي. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ١٤٣).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله»(١).

وفي رواية: «إلى أن يوحِّدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتقِّ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(٢)، أخرجاه.

ولهما: عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه» فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «أنفذ على رِسْلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم»(٣)، يدوكون: يخوضون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة برقم (١٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم (٧٣٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل برقم (٣٠٠٩)، وكتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب برقم (٣٤٩٨)، وفي كتاب المغازي، باب غزوة خيبر برقم (٣٩٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٠).

الشرح

قوله: (عن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ إلى اليمن) هو: معاذ بن جبل، صاحب رسول الله ﷺ، وقد تقدم ذكر طرف من ترجمته، وكان من فقهاء الصحابة، وشبانهم، وأتقيائهم، وكان النبي ﷺ يحبه، ويعده للمهام الدعوية والعلمية، فقد استخلفه على مكة، وبعثه إلى اليمن، وكان هذا البعث ـ على الصحيح ـ في السنة العاشرة من الهجرة؛ ولهذا لم يشهد معاذ وفاة رسول الله ﷺ؛ بل قدم المدينة بعد وفاة النبي ﷺ.

قوله: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) قال له ذلك لما بعثه إلى اليمن قاضياً، ومعلماً، وجابياً، حتى يكون على بيّنة، ويستعد لدعوتهم، ويعرف الواقع الذي يواجهه. فإن اليمن تعاقب عليه ممالك عدة، وأديان مختلفة، ففيه اليهود، والنصارى، والمشركون، وفيهم من أسلم.

قوله: (فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادةَ: أن لا إلٰه إلا الله) يجوز في لفظ **(أول)** الرفع والنصب، فالأول على اعتبار أنه اسم (كان) والثاني على أنه خبرها مقدم، ويجوز في لفظ **(شهادة)** الرفع والنصب، فالأول على اعتبار أنه اسم (كان) مؤخر، والثاني على أنه خبر (كان). فبدأ بالدعوة إلى «**شهادة أن لا إلٰه إلا الله**» لأنها الأهم.

قوله: (فإن هم أطاعوك لذلك)؛ أي: شهدوا، وانقادوا، ووحَّدوا الله ﷻ، وعبدوه، وكفروا بما سواه، فهذه أول منزلة.

قوله: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم)؛ أي: أوجب عليهم.

قوله: (خمس صلوات في كل يوم وليلة) بدأ بأهم العبادات العملية، وهي الصلوات الخمس المعلومة: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، فإنها عمود الدين، وتالية الشهادتين، كما رتبها النبي ﷺ في حديث أركان الإسلام، وهو قوله: «**بني الإسلام على خمس**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» برقم (٨)، ومسلم في الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام برقم (١٦).

قوله: (**فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة**) ثنّى بأهم العبادات المالية، وهي الزكاة، وهكذا هي في حديث مباني الإسلام المشار إليه سابقاً. وهذه الصدقة هي المفروضة، وهي الزكاة، فإن الزكاة تُسمى في كتاب الله صدقة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولكن إذا قرنت الصدقة بالزكاة صار المراد بالزكاة الفرض الواجب، والمراد بالصدقة النافلة.

قوله: (**تُؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم**) استدل العلماء بهذا على عدم جواز إخراج الزكاة من البلد؛ وقيل بجواز ذلك لأن النبي ﷺ كان يبعث المصدقين إلى القبائل، وأحياء العرب، فيأتون بصدقات أقوامهم. لكن الأصل أن تصرف الزكاة في نفس البلد؛ لأن نفوس فقراء البلد تتعلق بما في أيدي أغنيائهم، فلا يناسب أن تخرج من بين أيديهم، فإن طرأ على هذا الأصل ما يجعل نقل الزكاة أفضل من صرفها في البلد، فلا مانع من نقلها؛ كأن يدف بالناس دافة، وتقع مجاعة في أحد بلدان المسلمين، فيخرج الناس زكاتهم إليهم، فيصبح المفضول فاضلاً.

قوله: (**فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم**)؛ أي: إن هم أقروا بما تقدم، لا سيما آخرها، وهو الزكاة (**فإياك**) كلمة تحذير؛ أي: تجنب أموالهم النفيسة؛ كأن يكون عند الإنسان إبل، فليس للمصدق أن يختار كرائم الإبل، ويدع رديئها لصاحب المال؛ بل يأخذ من الوسط، وكذا البقر والغنم، والخارج من الأرض.

قوله: (**واتقِّ دعوة المظلوم**) نبّهه على أمر دقيق لكونه حاكماً وقاضياً وجابياً، وهو العدل، وتجنب الظلم، فلا يقع في سلطانه شيء من التجاوز.

قوله: (**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**) لأنها تخرج من نفس مكلومة مظلومة، فترتفع مع الغمام، حتى يقول الله لها: «**لأنصرنك ولو بعد حين**»(١)؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته برقم (١٧٥٢)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب الدعوات برقم (٣٥٩٨).

ولهذا ينبغي للإنسان أن يحذر من الظلم بجميع صوره، فإن الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته بئيسة، سواء كان ظلم النفس، أو ظلم الغير، إلا أن ظلم الغير أشد؛ لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة، وحق الله مبني على المسامحة، فظلم النفس قد يعفو الله عنه بالدعاء، والاستغفار، والتوبة الخالصة، فإنه الله يغفر الذنوب جميعاً، ولكن ظلم العباد في أعراضهم، وأموالهم، وأنفسهم محفوظ، قد لا يلقى الظالم من ظلمه إلا في عرصات القيامة، ولن يقول له في ذلك الموقف: اذهب، فأنت في حل! قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] فالواجب على المؤمن أن يبرأ من الظلم، قليله، وكثيره، ويراجع حساباته، ويتحلل ممن ظلمه، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار؛ ليخرج من هذه الدنيا خفيف الظهر؛ فلهذا ختم النبي ﷺ بهذه الوصية العظيمة.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لتضمُّنه الدعاء إلى (**شهادة: أن لا إله إلا الله**)، وفي رواية عند البخاري: «**إلى أن يوحِّدوا الله**»، وهذا يدل على أن معنى: (**شهادة أن لا إله إلا الله**): هو توحيد الله، ويتبين أن أعظم ما ينبغي أن يُعتنى به هو توحيد الله ﷻ، فهو أعظم المهمات.

ولا يجوز أن يقال: لا حاجة الآن إلى الدعوة إلى التوحيد كما يقول بعض الجاهلين، فالحاجة باقية ما دام على وجه الأرض كافر، وما دام الشرك موجوداً، فالمسلمون اليوم مطالبون بالدعوة إلى توحيد الله، وعدم التشاغل بالأمور الفرعية على حساب الدعوة إلى التوحيد؛ بل يجب أن تكون العمدة في الدعوة إلى الله ﷻ الدعوة إلى توحيده أولاً؛ لأن لها ما بعدها، فالقلب إذا عرف وجهته، وقبلته، ووحّد خالقه، فما بعده تبع له. وهذه طريقة القرآن، وطريقة النبي ﷺ، فقد كان النبي ﷺ يكتب إلى ملوك الأرض: «**من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: أسلم تسلم**»(١)، ولقد سمعتُ مرةً

---

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ برقم (٧)، ومسلم في المغازي والجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل برقم (١٧٧٣).

بعض المتحدثين يقول: انتهى زمن «أسلم تسلم»! ويجب أن نخاطب الغرب بلغته، لغة العلم! هذا انحراف منهجي. فكيف ندع طريقة النبي ﷺ، وطريقة القرآن، لطرائق محدثة؟!

إن أحوج ما يحتاج إليه الشرق والغرب اليوم، هو توحيد رب العالمين، فقبل أن نشتغل ببيان محاسن الشريعة، ومقاصدها، يجب أولاً أن نضبط الأساس والقاعدة، وهو التوحيد، ومعرفة الغاية من خلق العباد، فإذا أرسينا هذا الأساس فكل ما بعده يبنى عليه.

فوائد الحديث:

١ ـ مشروعية بعث الدعاة لتعريف الناس بدين الإسلام، كما كان النبي ﷺ يصنع. فينبغي لولاة الأمر من المسلمين أن يرسلوا الدعاة إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لدعوتهم إلى دين الله.

٢ ـ أن أول الواجبات: توحيد الله؛ شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

٣ ـ الرد على المتكلمين الذين زعموا أن أول واجب هو النظر، أو القصد إلى النظر، أو الشك.

٤ ـ تفسير (**شهادة: أن لا إلٰه إلا الله**)، وأنها تعني توحيد الله، وترك عبادة ما سواه، كما جاء في الرواية الثانية للبخاري: «**أن يوحدوا الله**».

٥ ـ أنه لا يقبل من كافر دعوى الإسلام إلا بالتلفظ بالشهادة.

٦ ـ التدرج في الدعوة، والبداءة بالأهم فالمهم؛ لقوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**».

٧ ـ أنه ربما كان الإنسان عالماً، قارئاً، مثقفاً، لكنه لا يعرف توحيد الله الذي هو أعظم العلوم؛ لقوله: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**» فهؤلاء قوم عندهم كتاب، ومع ذلك لم ينفعهم كتابهم، فلا عجب أن نجد في هذه الأمة من قد يكون فقيهاً، أصوليّاً، وهو لم يضبط التوحيد.

٨ ـ مراعاة أحوال المخاطبين؛ لقول النبي ﷺ: «**إنك تأتي قوماً أهل من الكتاب**» فلما كان المدعوون أهل كتاب، كان الخطاب الموجه لهم يختلف عن

الخطاب الموجه للمشركين؛ لأن لأهل الكتاب حجج، وشبهات، وإيرادات، قد لا تبدو للأميين الذين لا يعلمون؛ ولهذا سمى الله ﷻ مَن سوى أهل الكتاب بـ«الذين لا يعلمون» كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، وأما أهل الكتاب فعندهم أصل علم يرجعون إليه، فربما وقع منهم جدال؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فينبغي للداعية إلى الله أن يعرف ما هو مقبل عليه، حتى يعد للأمر عدته، فمن يناظر الرافضة مثلاً، عليه أن يحيط علماً بشبهات القوم، فقد يواجهونه بشبهة تطرق سمعه لأول مرة، فيعجز عن الرد عليها، وتفنيدها، مع أن شبهاتهم داحضة، كما قال الشاعر:

حُجَجٌ تَهافتْ كَالزُّجاجِ تَخَالها حقّاً وكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورُ[1]

٩ ـ عِظَم أمر الصلاة؛ فإنه ثنى بها بعد الشهادة، فأمر الصلاة عظيم؛ ولهذا ينبغي التمسك بها، والحث عليها، وتعظيمها. وبعض المنسوبين إلى العلم اليوم، تجد شغله الشاغل أن يقرر أن صلاة الجماعة، أو الصلاة في المسجد، ليست واجبة! أي فائدة من هذا التقرير؟! فالذي ينبغي أن نعظم أمر الصلاة، كما عظمها الله، ورسوله ﷺ، وأن نعظم أمر الجماعة، كما عظمها الله، وعظمها نبيّه ﷺ، وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يهادى بين الرجلين، حتى يُقام في الصف»[2]، فأين الحكمة والفقه عند من يقرر ضد ذلك؟!

هذا في الحقيقة نقص في الفقه، فينبغي تعظيم الصلاة، وأداؤها كما كانت تُؤدى على عهد رسول الله ﷺ بأوقاتها، وأركانها، وخشوعها، وسائر أحوالها. ولو أقام المسلمون صلواتهم كما ينبغي، لاستقامت أمورهم الدينية والدنيوية؛ ولهذا شبه النبي ﷺ الصلوات الخمس بتشبيه بديع، فقال: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى

---

(١) البيت بلا نسبة في طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى برقم (٦٥٤).

من درنه شيء، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**»(١)، وجعل الله تعالى من أخص أوصاف المؤمنين الخشوع، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

١٠ ـ عظم أمر الزكاة، وأنها قرينة الصلاة؛ لكونها أحد أركان الإسلام، وكونها حق الله في المال.

١١ ـ بيان مصرف من مصارف الزكاة الثمانية؛ وهم الفقراء والمساكين. والفقير والمسكين عند الانفراد كل واحد يعم الآخر، وعند الاجتماع يستقل كل منهما بمعنى، فإذا اجتمعا في نص واحد؛ كقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فالفقير أشد حاجة وأبلغ، فهو الذي لا يملك كفايته إلى الحول، والمسكين هو الذي يملك كفايته إلى نصف الحول.

١٢ ـ عدم إخراج الزكاة من البلد إلا لحاجة؛ لقوله: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم**».

١٣ ـ أنه يحرم على السعاة أخذ كرائم الأموال ونفائسها، وإنما يأخذون من الوسط، لا الرديء، ولا الكريم، إلا أن يرضى رب المال، فإن رضي فهو قربة له.

١٤ ـ التحذير من الظلم؛ لقوله: «**واتقّ دعوة المظلوم**».

١٥ ـ أن دعوة المظلوم مستجابة؛ لقوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

١٦ ـ أن أحوج الناس لاتقاء الظلم من كان له ولاية وسلطان.

قوله: (ولهما: عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر) هو: سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري، الخزرجي، كانت وفاته سنة (٨٨هـ) وكان من شبان الصحابة وفتيانهم، وقد عُمِّر رضي الله عنه حتى جاوز المائة. ويوم خيبر هو يوم من غزوات النبي ﷺ غزا فيه اليهود القاطنين في خيبر.

وكان لليهود مساكن في جزيرة العرب، أعظمها: المدينة، فقد كان فيها

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات برقم (٦٦٧).

ثلاث قبائل من اليهود: (بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير) وكان لهم مساكن في خيبر، ومساكن في فدك، التي تسمى الآن «الحايط»، وقد تم إجلاؤهم من المدينة، وأول من أجلي منهم بنو قينقاع، ثم بنو النضير، ثم بنو قريظة.

وأما أهل خيبر، فقد خرج إليهم النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، في السنة السابعة من الهجرة، وحاصر حصونهم المنيعة، وفتح الله تعالى على يديه، ثم أقرهم النبي ﷺ على سكناها ما شاء، فقال: «**نقركم فيها ما بدا لنا**»[1]، فزارَعهم مزارعة. ثم لما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تعد حاجة إليهم، فأجلاهم إلى أذرعات من بلاد الشام.

ويوم خيبر ليس يوماً واحداً؛ بل كان عدة أيام، والمقصود هنا يوم معين، حصل فيه تمنع أحد الحصون على النبي ﷺ، فلم يتمكن المسلمون من فتحه، فقال النبي ﷺ: «**لأعطين الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**».

قوله: (لأعطين) اللام لام القسم، والنون نون التوكيد؛ أي: والله لأعطين، فحلف وهو الصادق البار، من غير يمين ﷺ، لكنه أراد أن يؤكد الأمر.

قوله: (الراية) هي العَلَم الذي يلتئم حوله الجيش، حتى لا يتفرقوا، ويرجعوا إليه عند الكر والفر؛ لأن طريقة القتال فيما مضى، تختلف عما هي عليه اليوم، فجموع الجيش يحصل منهم كر وفر، وإقبال وإدبار، فلا بد لهم من راية يرجعون إليها، وحامل هذه الراية هو القائد الذي تصدر منه الأوامر، فلذلك وعد النبي ﷺ أن يعطي الراية في اليوم التالي رجلاً هذه صفته: **(يحب الله ورسوله)** وهذه شهادة ممن لا ينطق عن الهوى، ويا له من وسام شرف، وتزكية.

قوله: (ويحبه الله ورسوله) وهذه أعظم من الأولى، فإن حصول محبة الله ورسوله له، ثمرة لمحبته الله ورسوله. **(يفتح الله على يديه)** وهذه بشارة، ومنقبة ثالثة، فتحقق له **ثلاثة أمور**:

١ ـ الشهادة له بأنه يحب الله ورسوله.

٢ ـ الشهادة له بمحبة الله ورسوله له.

---

(١) شرح معاني الآثار برقم (٣٠٩٤).

٣ ـ الشهادة له بأن الله يفتح على يديه.

قوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم)؛ أي: تلك الليلة التي تسبق الغد الموعود. ومعنى: (يدوكون)؛ أي: يخوضون، ويُعملون فكرهم في مَن يكون ذلك الرجل؟ وأيهم يُعطاها؟

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ)؛ أي: جاؤوا وقت الغداة، مبكرين، وكلهم يرجو أن يُعطاها، وحق لهم بعد هذا الثناء العطر أن يتمنوا ذلك، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «فو الله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذٍ، وجعلت أنصب صدري له، رجاء أن يقول: هو هذا»[1] فكان يتطاول في الصف؛ ليراه النبي ﷺ، طمعاً في الحصول على هذه المنقبة، وهذا من حرص الصحابة على الخير، وحبهم له، ويدل على صفاء نية عمر رضي الله عنه، وصدقه، ومحبة الصحابة بعضهم لبعض؛ لأنه يتكلم عن أخ له، وهو علي بن أبي طالب.

قوله: (فقال: «أين علي بن أبي طالب؟») علي رضي الله عنه ابن عمه، وزوج ابنته فاطمة، وأول من آمن من الصبيان، وأحد المبشرين بالجنة، وكان استشهاده عام أربعين للهجرة.

قوله: (فقيل: هو يشتكي عينيه) اعتذروا له بأنه يشتكي عينيه؛ لرمد أصابهما.

قوله: (فأرسلوا إليه، فأتي به) أمر النبي ﷺ بإحضاره. ومن العجب أن يُعطى الأمر من لم يسأله، ويمنع من سأله، فالذين كانوا متشوفين له، وغدوا إلى رسول الله ﷺ لم ينالوا ما تمنوا، والذي لم يحضر لعذر، دُعي به، وأُحضر إلى النبي ﷺ.

قوله: (فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع)؛ يعني: تفل فيهما بريقه المبارك، فبرأت عيناه، كأن لم يصبهما ألم قط! وهذا من علامات النبوة، وأمثال هذا كثير في سيرة النبي ﷺ؛ فقد كان يمسح على موضع الوجع فيبرأ بإذن الله، فهو ﷺ مبارك في أموره العلمية، والعملية. وهذا من خصائصه ﷺ، فلا يصح أن يُطلب من أحد الصالحين أن يبصق أو يمسح على أحد.

قوله: (فأعطاه الراية، وقال: أنفذ على رسلك)؛ أي: امض على مهلك

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١١١٠).

وهيِّنتك، دون عجلة أو ضجيج؛ لأن التروي من قبل قائد الجيش، يعينه على الوصول إلى مقصوده، فينبغي أن يمضي على هذه الصفة. وجاء في بعض الروايات: «**أنفذ على رسلك ولا تلتفت**» فمضى علي، رضي الله عنه، ثم بدا له أن يستفهم من النبي ﷺ، فقال، تلقاء وجهه، غير ملتفت: «يا رسول الله، علام أقاتلهم؟»[(١)]، وهذا مثال بديع على حرص الصحابة على امتثال أمر النبي ﷺ.

قوله: (حتى تنزل بساحتهم) الساحة: الفناء المحيط بحصونهم؛ أي: امض، لا يردك شيء، حتى تقف قريباً من حصنهم.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) هذا هو الشاهد من الحديث، وهو أن أول ما يبدأ به: الدعوة إلى دين الإسلام، والدعوة إلى شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وهؤلاء القوم قد دُعوا من قبل، فإن النبي ﷺ لما بادأهم بالقتال دعاهم للإسلام، فدل قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» على أن الدعوة إلى الإسلام تكرر على المخالف، ولا يقال: يُكتفى بالدعوة الأولى.

قوله: (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)؛ أي: في الإسلام، فليس الدخول في الإسلام مجرد قول مجرد باللسان، أو دعوى لا حقيقة تحتها؛ بل لا بد أن يدرك الداخل في عقد الإسلام حقيقة هذا الدين، وماذا يعني انتماؤه له؟ وماذا يعني أن يقول: لا إله إلا الله. وكثير من الناس يظن أن الإسلام هو أن يقول: أنا من المسلمين، ولا يدرك أن مقتضى ذلك هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وما يستتبع من حقوق؛ كحق الله في الصلاة، وحق الفقير في الزكاة، ونحو ذلك.

قوله: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً) أقسم النبي ﷺ، وهو البار الصادق من غير قسم، بما يرغبه في إقناعهم في الدخول في الإسلام. والمقصود بالرجل هنا ليس الذكر خاصة، وإنما جنس الإنسان، رجلاً كان أو امرأة؛ لأن هذا لا يختص بالرجال دون النساء، ولكنه عبّر بالرجال لأنهم أهل الشوكة المحاربين.

قوله: (خير لك من حمر النعم) حمر النعم، هي الإبل الحمر، أنفس أموال العرب، فهداية الله على يديه رجلاً واحداً، خير له من كرائم الإبل.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٢)، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم (٣/ ٤٠).

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من الدعوة للإسلام، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، فهذا مطابق تماماً لقوله: «**لا إله إلا الله**».

فوائد الحديث:

١ ـ جواز القسم لغرض التأكيد، ولو لم يستحلف؛ لقوله: «**لأعطين**» ولقوله: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً**».

٢ ـ إثبات صفة المحبة لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله: «**ويحبه الله**».

٣ ـ أن المحبة تقع من الجانبين، من العبد لربه، ومن الرب لعبده، ولكن لكلٍّ محبة تليق به، فللَّه تعالى له محبة تليق به، وللآدمي له محبة تليق به.

٤ ـ الرد على من أنكر صفة المحبة، من المتكلمين، ومنهم الأشاعرة، الذين يقولون: لا يُحِب ولا يُحَب، ويؤولون أو يحرفون المحبة من العبد لربه: بطاعته، والمحبة من الرب لعبده: بالإحسان إليه، ولا يثبتون محبة حقيقية، بدعوى عدم المناسبة بين القديم والمحدث، إلى غير ذلك من الكلام المزخرف، الذي لا طائل من ورائه، ولا يجوز أن تعارض به نصوص الكتاب والسُّنَّة؟!

فيقال لهؤلاء: أأنتم أغير على الله من رسول الله ﷺ؟! أأنتم أصدق من الله قيلاً وحديثاً؟! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧].

٥ ـ علامة من علامات النبوة، وهي إخباره بأمر مستقبل، وهو الفتح؛ لقوله: «**يفتح الله على يديه**» فما كان لرسول الله ﷺ أن يخبر بأمر مستقبل مغيب إلا بوحي من الله.

٦ ـ فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا الحديث من أعظم الأحاديث الدالة على مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأصحاب النبي ﷺ، عموماً، لهم فضل عام، ومنزلة وفضيلة على سائر قرون الأمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١)، ومع هذا الفضل العام للصحابة، فلكل واحد منهم فضل خاص، فقد يكون لأحدهم من الفضائل ما ليس للآخر، لكن القاعدة: أن الفضل الخاص لا يقضي على الفضل العام، والمنقبة التي تكون لأحدهم لا تقضي على أن يكون غيره أفضل منه، فلأبي بكر رضي الله عنه فضائل، ولعمر فضائل، ولعثمان فضائل، ولعلي فضائل، ولطلحة، وللزبير، وعائشة، ونحو ذلك، كل له فضائل، لكن عند النظر إلى مجموع الفضائل يتبين أن: أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها ﷺ: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وقد اختلف بعض السلف في المفاضلة بين علي وعثمان، فمنهم من قدم عليّاً، ومنهم من قدم عثمان، ومنهم من توقف. أما في مسألة الخلافة: فإن السلف ـ رحمهم الله ـ لم يختلفوا أبداً في ترتيبهم في الخلافة، وأن أحق هذه الأمة بالخلافة بعد نبيِّها: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

ولم ينازع في مسألة الخلافة إلا الروافض، ولا عبرة بخلافهم، حتى إن الزيدية، من فرق الشيعة، مع تفضيلهم لعلي، رضي الله عنه، يثبتون خلافتهم، ويقولون بإمامة المفضول مع وجود الفاضل. وأما الفضل فقد اتفقت الأمة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، وأخبر بذلك علي نفسه في حديث متواتر عنه، حيث قال وهو يخطب على منبر الكوفة: «إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر»(٢)، وقال: «من فضلني على أبي بكر وعمر جلدتهم حد المفتري»(٣)، وهذا منقول عنه بالتواتر.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد برقم (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم برقم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٨٨٠) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٠/ ٣٨٣).

وبناءً عليه: فحصول هذه المزية لعلي بن أبي طالب ﷺ يوم خيبر، لا يقتضي أن يكون أفضل من أبي بكر، وعمر، وعثمان ﷺ، كما ادعت الرافضة، وإنما يدل على أنه هو الأفضل في مقام القيادة الحربية، وفتح الحصون، وما أشبه ذلك، بالإضافة إلى ما أثبت له النبي ﷺ من محبة الله ورسوله.

٧ ـ حصول البلاء على المسلم، بمرض ونحوه، ويكون ذلك تكفيراً للسيئات، ورفعة للدرجات، وابتلاءً واختباراً، فهذا علي ﷺ من سادات الصحابة، يبتلى في عينيه؛ بل إن البلاء من صفات الأنبياء، كما قال النبي ﷺ: **«إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**(١)، فإن كان في دينه شدة زيد له في البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه البلاء.

فالبلاء ليس بالضرورة علامة عقوبة للإنسان، وإن كان يجب عليه أن يحاسب نفسه، ويتهمها، ولكن لا يخرجه ذلك إلى حد الإحباط والقنوط، بحيث يرى كل ما يقع عليه عقوبة، فقد يكون ابتلاء من الله ﷻ ليستخرج ما في نفسه من عبودية، ومحبة، وخوف، ورجاء، وتوكل، واستعانة، واستغاثة، وقد يكون تكفيراً للسيئات، وقد يكون رفعة للدرجات، فعلى العبد المؤمن أن يتلقى أقدار الله المؤلمة بهذه الروح، فإن الله لا يقضي على المؤمن قضاءً إلا كان خيراً له.

٨ ـ بركة النبي ﷺ بآثاره الحسية؛ لقوله: «فبصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع».

٩ ـ علامة أخرى من علامات النبوة؛ وهو أنه برئ كأن لم يكن به وجع.

١٠ ـ وفيه جملة من آداب القتال:

الأول: سرعة النفاذ، وهو المضي والعزم، فلا يرده شيء، ولا يلتفت يَمنة ولا يَسرة.

الثاني: أن يصدر على رِسْله، ولا يجلب بالأصوات، وغير ذلك؛ لأن الحرب خدعة، بحيث يأتي عدوه في مكمنه.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٧٠٧٩) وقال محققو المسند: «حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن».

الثالث: أن ينزل بساحة القوم، حتى يجعلهم أمام المواجهة، لقوله: «**حتى تنزل بساحتهم**».

١١ ـ البداءة بالدعوة إلى الإسلام لقوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**».

١٢ ـ الرد على من اتهم الإسلام بأنه انتشر بالسيف، أو أنه دين دموي، فإن الفاتحين المسلمين يبدؤون بعرض الإسلام على المخالفين، ليحقنوا دماءهم، ويصونوا أموالهم، فلو كان الإسلام كما يزعم المستشرقون وأذنابهم متشوفاً للدماء؛ لما كان هناك عرضٌ للإسلام، ولهجموا على العدو وأفنوهم، وأزهقوا أرواحهم، واستباحوا أموالهم، لكنهم يرغبونهم في الإسلام، وإذا أسلموا كانوا مثلنا، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فلا يوجد أمة تصنع هذا بأعدائها ومخالفيها، حتى قال المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من المسلمين».

١٣ ـ وجوب التفقه في الدين لمن تولى إمارة، أو قيادة، سيما ما يتعلق بأبواب الجهاد.

١٤ ـ فضل الدعوة إلى الله، فإن من اهتدى على يديه رجل واحد، حاز أجراً عظيماً، وكان له مثل أجره، دون أن ينقص من أجره شيء.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.**

لقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، فإن كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل ﴿أَنَا۠﴾ فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به، دون غيرهم، وكلا المعنيين حق[1].

---

(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١١)، ومعاني القرآن، للفراء (٢/ ٥٥)، والكشاف، للزمخشري (٢/ ٣٢٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٤٦)، والدر المصون (٦/ ٥٦١)، ومفتاح دار السعادة، ص (١٦٧، ١٦٨).

الثانية **التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.**

لقوله: ﴿ٱدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، وهي مسألة دقيقة تتطلب تعاهد القلب وتنقيته.

الثالثة **أن البصيرة من الفرائض.**

لقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، والبصيرة فعيلة، صيغة مبالغة؛ فهي في القلب، والبصر في العين؛ لأن البصر يدرك المحسوسات، والبصيرة تدرك الحقائق، والمراد بالبصيرة هنا: العلم الذي يميز به بين الحق والباطل، فهي دعوة قائمة على العلم، والبيان، والحجة، والبرهان، وليست كسائر الدعوات التي يُدعى إليها لداعي الهوى والشهوة، بغير حجة ولا برهان.

الرابعة **من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه الله تعالى عن المسبَّة.**

لقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾، فنزه الله أن يكون له شريك، فدل ذلك على أن إفراده بالعبادة، الذي هو التوحيد، أصل عظيم، مأمور به.

الخامسة **أن من قبح الشرك كونه مسبَّة لله.**

كون الشرك مسبَّة لله تعالى ظاهر غاية الظهور؛ لأن المشرك يجعل لله ندّاً، يصرف له العبادة، فهو متنقص لله تعالى، بزعمه أن له سبحانه شريكاً، يستحق أن تصرف له العبادات. أو بتشبيهه بالمخلوقين، فكان من شرط التوحيد تنزيه الله عن هذه المسبة العظيمة.

السادسة **وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.**

لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾، فيجب أن يجانب المسلم المشركين، حتى ولو لم يكن على ملتهم، ولا ينخرط فيهم.

السابعة **كون التوحيد أول واجب.**

لحديث معاذ رضي الله عنه: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله**».

الثامنة **أنه يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.**

لقوله: «**فليكن أول**» ثم قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك**» على الترتيب، فذكر الصلاة.

التاسعة **أن معنى: «أن يوحدوا الله» معنى «شهادة: أن لا إله إلا الله».**

وذلك بالجمع بين الروايتين، فتفسر إحداهما الأخرى.

العاشرة **أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها، ولا يعمل بها.**

ومراده بقوله: «وهو لا يعرفها أو يعرفها»؛ أي: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»؛ لقوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**» إذ لو كانوا يعرفون (**لا إله إلا الله**) ويعملون بها؛ ما احتاجوا إلى الدعوة إليها؛ فلهذا أمر النبي ﷺ أن يبادئ هؤلاء القوم - مع أنهم أهل كتاب - بالدعوة إلى «**شهادة: أن لا إله إلا الله**»، فإنهم إما لم يعرفوها، أو عرفوها، ولم يعملوا بها.

الحادية عشرة **التنبيه على التعليم بالتدريج.**

لقوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**».

الثانية عشرة **البداءة بالأهم فالأهم.**

لأنه بدأ بالتوحيد، وثنّى بالصلاة، وثلّث بالزكاة.

الثالثة عشرة **مصرف الزكاة.**

وهم الفقراء؛ لقوله: «**تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم**».

الرابعة عشرة **كشف العالِم الشبهة عن المتعلم.**

لأنه قد يظن الجابي للزكاة من قوله: «**تُؤخذ من أغنيائهم**» أن أخذ كرائم الأموال أولى، صوناً لحق الله، فدفع ذلك ببيان أن المتعيَّن هو الأخذ من الوسط، لا من الكرائم.

الخامسة عشرة **النهي عن كرائم الأموال.**

لقوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**» لأن معنى: (إياك) احترز واتقِّ، فهي تدل على النهي والتحذير.

السادسة عشرة **اتقاء دعوة المظلوم.**

لقوله: «**واتقِّ دعوة المظلوم**» ويكون اتقاؤها بعدم ظلمه، بأي نوع من أنواع الظلم، وهذا لا يختص بالزكاة فقط.

السابعة عشرة **الإخبار بأنها لا تحجب.**

لقوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ أي: ليس لها ما يصرفها، ولو وُجد في المظلوم مانع من موانع الإجابة؛ كأن يكون مطعمه حراماً، أو غير ذلك، وليس من شرطها أن يكون المظلوم مؤمناً، فدعوة الكافر المظلوم تصعد إلى الله تعالى؛ لأن كفره على نفسه؛ ولأن الله قد تكفّل بنصرة المظلوم، كما جاء في الحديث: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»[(١)]، والتاريخ مليء بصفحات أمم سادت ثم بادت بسبب دعوات المظلومين والمعذبين. قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغالبُ أنَّ الظالمَ تُعجَّل له العقوبةُ في الدنيا، وإنْ أُمهل»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣٧١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٧١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٧).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٢٥).

الثامنة عشرة **من أدلة التوحيد: ما جرى على سيد المرسلين، وسادات الأولياء من المشقة، والجوع والوباء.**

كما جرى للنبي ﷺ وأصحابه يوم فتح خيبر، وفي غيرها، من البلاء والمشقة والعنت، ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده، وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء، فيتحقق التوحيد: استعانة بالله، وتوكلاً عليه، ودعاء إليه.

التاسعة عشرة **قوله: «لأعطين الراية... إلخ»، عَلَم من أعلام النبوة.**

ووجه كونه كذلك، قوله: «**يفتح الله على يديه**» حيث أخبر بأمر غيبي فتحقق.

العشرون **تفله في عينيه عَلَمٌ من أعلامها أيضاً.**

أي: تفله في عيني علي رضي الله عنه، حصل به الشفاء، وهذا من علامة نبوته ﷺ.

الحادية والعشرون **فضيلة علي رضي الله عنه.**

وهي فضيلة ظاهرة، فقد أخبر ﷺ أنه «**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**».

الثانية والعشرون **فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة، وشغلهم عن بشارة الفتح.**

أي: أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اشتغلوا تلك الليلة في التشوف لحصول هذه المنقبة لأنفسهم، طمعاً في فضل الله، ولم يفكروا في الغنائم والفتح، وإنما فكروا فيمن يُعطى الراية، وهذا يدل على فضلهم؛ لأنهم آثروا المنقبة المتعلقة بالآخرة على الفتح والغنائم.

الثالثة والعشرون **الإيمان بالقدر؛ لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى.**

فالذين غدوا وبكَّروا وتشوَّفوا لم يقع لهم ذلك، والذي لم يحضر، ولم يسعَ سيقت إليه، فهذا دليل على الإيمان بالقدر، وإن كان هذا لا يمنع المؤمن

من السعي في مصالحه، لكن مشيئة الله نافذة، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

الرابعة والعشرون **الأدب في قوله: «على رسلك».**

أدب من آداب القتال، وهو أن يمضي الإنسان على مهله، دون ضجيج، ليباغت العدو.

الخامسة والعشرون **الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.**

لقوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**».

السادسة والعشرون **أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك، وقوتلوا.**

فلا شك أن النبي ﷺ قد دعاهم أولاً، ولما أرسل إليهم حملة ثانية كُررت عليهم الدعوة؛ لعلهم يستجيبون.

السابعة والعشرون **الدعوة بالحكمة؛ لقوله: «أخبرهم بما يجب».**

فمن الحكمة أن تُرتب الأمور ترتيباً حسناً، فيبتدئ أولاً: بعقد الإسلام، فإن هم قبلوا به، انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تفاصيله ولوازمه.

الثامنة والعشرون **المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.**

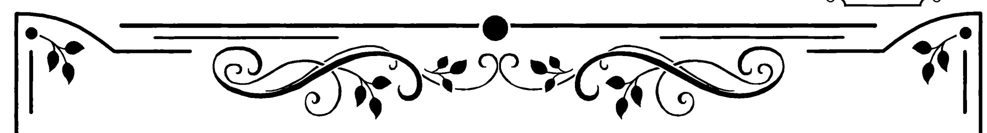
فينبغي على من دخل في عقد الإسلام أن يعلم بأن دخوله في عقد الإسلام يستلزم حقوقاً لله تعالى.

التاسعة والعشرون **ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.**

لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» وهذا ثواب عظيم، فلا يُزهد بالدعوة الفردية.

الثلاثون **الحلف على الفتيا.**

لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً**»، وهذا مما يبيح الحلف دون استحلاف.



باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله، وكفر بما يُعبَد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله ﷻ»(١).

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

الشرح

قوله: (باب: تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إلٰه إلا الله) عطف الشهادة على التوحيد لتغاير اللفظين، وإلا فالمعنى واحد، وقد تقدم في رواية البخاري في قصة معاذ رضي الله عنه: «فليكن أول ما تدعوهم إليه: أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله»، وفي رواية: «أن يوحِّدوا الله»(٢)، فدل على أنهما بمعنى واحد.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله برقم (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم (٧٣٧٢).

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف ما يتعلق بالتوحيد وحقيقته، وفضله، وما يكفر من الذنوب، وأن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وبين حقيقة الشرك، ووجوب الدعوة إلى شهادة: أن لا إلٰه إلا الله، أتى بهذا الباب مزيد بيانٍ لحقيقة التوحيد، وتفسير الشهادة، ورفع اللبس الذي يحصل لدى بعض الناس، فإن منهم من لا يحسن فهم التوحيد، ولا معنى: **(لا إلٰه إلا الله)**.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾:

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: الذين يدعونهم المشركون من دون الله، من الملائكة، والصالحين، والأنبياء، وغيرهم، أنهم أنفسهم.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ ففاعل (يدعون) المشركون، وفاعل (يبتغون) المدعوون، من الملائكة والصالحين والأنبياء، فكيف يدعونهم من دون الله، وهم عبادٌ أمثالهم يتقربون إلى الله، ويبتغون ـ أي: يطلبون ـ إليه الوسيلة؟! والوسيلة: مأخوذة من الوسْل، وهو الوصل، يقال: وسيلة ووصيلة، بمعنىً واحد، والمراد بهما: التوسل إلى الله ﷻ، وطلب القرب منه.

قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هذه الجملة تدل على التنافس بين هؤلاء الصالحين في طلب الوسيلة، ولا شك أن التنافس في مرضاة الله ﷿ وعبادته هو التنافس المطلوب، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فهم يحققون **ثلاث عبادات عظيمة**:

إحداهما: **المحبة**: فهم يبتغون إليه الوسيلة، وذلك يدل على التعلق والانجذاب.

الثانية: **الرجاء**، فهم يرجون رحمته.

الثالثة: **الخوف**، فهم يخافون عذابه، وعلّله بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: مخوفاً.

فالله ﷻ أخبر عن حال هؤلاء المشركين أنهم يدعون قوماً من الملائكة، والأنبياء، والصالحين، المتنافسين في طلب القرب من الله، ويعبدونه وحده، ولا

يشركون به أحداً سواه، ويرجون رحمته، ولا يرجون أحداً غيره، ويخافون عذابه، ولا يخافون أحداً غيره، فإذا كان هذا حالهم، فالأولى والأحرى بمن دعاهم أن يحتذي حذوهم، وينسج على منوالهم، ويدعو من دعوه، ويرجو من رجوه، ويخاف ممن خافوه.

وتبيّن من هذه الآية: أن المشركين ربما دعوا عبداً صالحاً، من الملائكة، والأنبياء، والصالحين، وربما دعوا أصناماً، وأوثاناً، فالمذكورون في هذه الآية من الصنف الأول.

❋ مناسبة الآية للباب:

أن هذه الأوصاف التي وصف الله تعالى بها هؤلاء المدعوين هي حقيقة التوحيد؛ إذ أنها جمعت أمهات العبادات القلبية، وهي: (الخوف، والرجاء، والمحبة):

وهذه الثلاثة تُصوّر **بصورتين:**

إحداهما: جناحا الطائر: فالطائر له جسم، وله جناحان، فكأن المحبة الجسم، والجناحان هما الخوف والرجاء.

الثانية: المركبة التي تسير: فالمحبة هي المركبة التي يستقلها السائر إلى الله ﷻ، والرجاء يحدوها إلى الأمام، والخوف يمنعها من الحيدة يَمنة أو يَسرة.

فهذه حقيقة الإيمان، فإن مداره على هذه **العبادات القلبية الثلاث:**

المحبة: وهي شعور يقوم في النفس يجذبه إلى ربه ومولاه، فيحس بالتعلق والانجذاب إليه ﷻ، وهذه أشرف الثلاث؛ لأنها لا تنقطع لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**أحبوا الله من كل قلوبكم**»[1].

الرجاء: فإنه يحفزه على العمل الصالح؛ لأنه يتشوف للوصول إلى جنته سبحانه، لكن الرجاء ينقطع بالوصول إلى المقصود، فإذا بلغ الإنسان مبتغاه، وهو رضوان الله وجنته، فقد تحقق مراده، وانقطع رجاؤه.

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٥٢٤).

الخوف: وهو ما يحجزه عن الشهوات والشبهات، ولكنه ينقطع، أيضاً، ببلوغ الجنة، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف: ٦٨] فتبيّن بهذا أن أصل هذه الثلاث: المحبة؛ لأنها تمتد من الدنيا إلى الآخرة، أما الخوف والرجاء فينقطعان.

فوائد الآية:

١ ـ بيان أمهات العبادات القلبية؛ وهي (المحبة، والخوف، والرجاء).

٢ ـ الرد على المشركين الذين يدعون الأولياء، والصالحين، زاعمين أن ذلك يختلف عن دعاء الأصنام، فمن دعا غير الله ﷻ في جلب نفع، أو دفع ضر، فلا فرق بين أن يكون المدعو عبداً صالحاً، أو شيطاناً رجيماً، أو صنماً، أو شجراً، أو حجراً، أو غير ذلك.

٣ ـ قوة الخوف والرجاء لدى الصالحين، فإن هذا من أخص أوصافهم لقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾، ويدل أيضاً على وجوب الحذر من عذاب الله ﷻ، وألا يغتر الإنسان بحاله.

٤ ـ الرد على الصوفية الذين يزعمون أن الله يعبد بالحب وحده، فمن عبده بالخوف والرجاء، فهو تاجر، وليس عابداً، حتى إنه ينسبون إلى بعض الصالحين، أنه قال: «ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك»[1]. وهذا باطل؛ لأن الذي أمرنا خوّفنا من عذابه، وعظم في قلوبنا رجاءه، هو الله ﷻ، فالواجب علينا أن نعبده بذلك؛ ولهذا قال بعضهم:

- من عبد الله بالخوف وحده، فهو حروري.
- ومن عبد الله بالرجاء وحده، فهو مرجئ.
- ومن عبد الله بالحب وحده، فهو زنديق.
- ومن عبد الله بالخوف والرجاء والمحبة، فهو المؤمن الحق.

وأيهما ينبغي أن يقدم الخوف أم الرجاء؟ الأصل أن يكون العبد بين الخوف

---

(١) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها (ص٦٦)، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والرجاء، يرجو رحمة الله، ويخشى عذابه. قال أبو علي الروذباري: «الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت»(١).

لكن لا بأس في بعض الأحوال أن يغلِّب الخوف، وفي بعضها أن يغلِّب الرجاء؛ ليبلغ في سيره إلى الله ﷻ، فإذا أقبلت عليه الدنيا، وأبدت له زينتها، وزخرفها، فينبغي له أن يغلب الخوف؛ ليمنع نفسه من الانحراف، والانجراف وراء زينة الحياة الدنيا، وإذا ادلهمت الخطوب، وضاقت به السبل، أو دنا أجله، وكان في ساعة الاحتضار؛ فالأولى أن يغلب جانب الرجاء؛ كي ينفس عن نفسه، ويتعلق برحمة بربه؛ ولكي يتحقق فيه قول النبي ﷺ: **«من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»**(٢)، وقول الله ﷻ: **«أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»**(٣).

* * *

📖 **ثم ساق المصنف** رحمه الله:

قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

حكي الله هذه المقالة الصادرة عن إبراهيم عليه السلام، وهو إعلان صريح جهر به عليه السلام بين ظهراني قومه، وخص بها أباه أولاً، لحقه عليه، فخاطبه كما في سورة مريم بقوله: «يا أبتِ» في أربع آيات، وعمّ بها قومه، كما صنع نبينا ﷺ حين دعا على جبل الصفا، فخصّ وعمّ.

قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ ولم يقل: بريء؛ لأن ﴿بَرَآءٌ﴾ صفة مشبهة، فهي أبلغ

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه برقم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد، ط. الرسالة برقم (١٦٩٧٩) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح» وأصله في الصحيح.

من (بريء) فكأنه جعل نفسه ظرفاً ومحلّاً للبراءة، وكأنه استحال بأكمله إلى براءة من المشركين.

قوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تبرأ عليه السلام من معبوداتهم، وقد كانوا في أرض حران يعبدون الأفلاك السماوية؛ كالمشتري وزُحل، ويتخذون لها الهياكل الأرضية، ويصورون لها التماثيل، والنصب، والأصنام، وكان إبراهيم بمدينة بين النهرين، يقال لها: أور، في زمن الكلدانيين، فأعلن بين ظهرانيهم بالبراءة من هذه المعبودات، وحاجَّهم في مواقف مشهودة.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ المستثنى هو الله تعالى؛ ولهذا استنبط العلماء أن قومه كانوا يعبدون الله؛ لأنه تبرأ من جميع معبوداتهم، واستثنى ربه عز وجل، هذا إذا قلنا: إن (إلا) على وجهها، وأن الاستثناء متصل. وأما إذا قلنا: إن الاستثناء منفصل، فإن (إلا) تكون بمعنى (بل)؛ أي: بل الذي فطرني، وحينئذٍ فالآية على هذا التوجيه لا تدل على أنهم كانوا يعبدون الله؛ بل كانوا يعبدون الأصنام فقط، وكلا التفسيرين له وجه. والأقرب ـ والله أعلم ـ أنهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره؛ ولذلك لم تنفعهم عبادتهم لله تعالى؛ لأن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»(١).

قوله: ﴿فَطَرَنِى﴾؛ أي: ابتدأ خلقي؛ لأن الفطْر معناه: ابتداء الشيء.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا من كمال ربوبيته الخاصة بالمؤمنين، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وهكذا موسى عليه السلام لما قال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]. وهكذا حال المؤمن فإنه يعلم أن الله تعالى هو الذي يهديه إلى طريق الحق الحسي والمعنوي.

❋ مناسبة الآية للباب:

لما فيها من بيان معنى: **(لا إله إلا الله)** فإنها تضمنت البراءة من الشرك في

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾ وإثبات العبادة لله في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهكذا، فإن التوحيد يقوم على ساقين: عبادة الله، والبراءة مما سواه، وقد تضمنت هذه الآية هذين المعنيين.

فوائد الآية:

١ ـ بيان معنى: (**لا إله إلا الله**)، وأن عمادها إخلاص العبادة لله وحده.

٢ ـ وجوب البراءة من الشرك والمشركين.

٣ ـ الجهر بذلك، والاستعلان به، كما صنع إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ إثبات الخلق لله تبارك وتعالى، وإثبات الهداية منه؛ فالله هو الخالق، وهو الهادي.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾؛ يعني: جعلوا، والضمير يرجع إلى أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى؛ فقد حكى الله تبارك وتعالى عنهم قبلها: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠]، فزعموا أن المسيح ابن الله، وأن عزيراً ابن الله، وفوق ذلك: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العُباد، وغالباً ما يطلق الأحبار على علماء اليهود، والرهبان على عُباد النصارى؛ لأن اليهود العلم فيهم أكثر، والنصارى العبادة فيهم أكثر. واليهود على وجه العموم فيهم قسوة وغلظة، والنصارى فيهم رقة ورهبانية.

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جاء في تفسيرها حديث عدي بن حاتم الذي سيورده المصنف لاحقاً، في باب مستقل، وكان عدي بن حاتم ركوسياً(١)، وهم طائفة من النصارى، فدخل على النبي ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، والنبي ﷺ يتلو هذه الآية، فقال: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم! ظن أن العبادة لا تكون إلا بالركوع والسجود، فقال: «**أجل، ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، فتلك عبادتهم لهم**»(٢)، فبيَّن أن منحهم حق التحليل، والتحريم، والتشريع، من اتخاذهم أرباباً من دون الله لأن ذلك من خصائص الربوبية، والألوهية. فالحكم لله، فهو سبحانه الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم ويشرع، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فالتشريع لا يكون إلا لله ﷻ، فمن جعله لغير الله، فقد وقع في شرك الربوبية، حيث أعطى ما ينبغي لله ﷻ لغير الله.

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: واتخذوا المسيح ابن مريم ربّاً، وهم يصرِّحون بذلك لفظاً، فيقولون في كتبهم وقدَّاساتهم: الرب يسوع المخلص!.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: أنهم ما أمروا إلا بتوحيد الله، ويشهد لهذا قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

لكن هاتين الطائفتين أفسدتا دينهما، فإن موسى عليه السلام أتى بالدين القويم، وهو توحيد رب العالمين، ونبذ الشرك، حتى إنه غضب أشد الغضب حينما رجع ووجدهم يعبدون العجل، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وغضب عليهم حينما قالوا له: ﴿... ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

---

(١) الرَّكُوسِيَّةُ، بالفتح: قومٌ لهم دينٌ بين النَّصارى والصَّابئين، ورويَ عن ابن الأعرابيِّ أنّه قال: هذا من نعت النَّصارى، ولا يعرَّب. تاج العروس (١٦/ ١٣١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٣٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٢١٨)، وبنحوه في سنن الترمذي، ت: شاكر في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة برقم (٣٠٩٥) وحسنه الألباني.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] فأغلظ عليهم في النكير، وهذا دليل على أن موسى عليه السلام جاء بالتوحيد الخالص، الذي جاء به إبراهيم عليه السلام.

وكذلك عيسى عليه السلام جاء بالتوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢] لكن القوم ينكرون هذه الصراحة التوحيدية، ويشركون بالله عز وجل؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. قال بعض السلف: رغبت اليهود عن ملة إبراهيم، ورغبت النصارى عن ملة إبراهيم[1]، فاليهود والنصارى خرجوا عن ملة إبراهيم؛ ولهذا برّأ الله إبراهيم منهم، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

ومع هذا الوضوح في هذه الآيات الكريمة، إلا أننا نجد بعض المنتسبين إلى الإسلام والدعوة يصوِّب دين اليهود والنصارى، ويطلق على الإسلام واليهودية والنصرانية: «الأديان الإبراهيمية»، وهذه تسمية باطلة، فحاشا إبراهيم عليه السلام أن يُنسب إليه اليهود، أو النصارى، فإن ملة إبراهيم، هي الإسلام، كما هي ملة محمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ، فلا يجوز أن يقال: «الأديان الإبراهيمية»، أو «الأديان السماوية»، أو «الأديان التوحيدية» الثلاثة، فليسوا بموحدين؛ فإن التوحيد هو دين الإسلام، الذي جدده نبيّنا محمد ﷺ. وأما اليهودية فهي صورة محرفة عما جاء به موسى عليه السلام، والنصرانية صورة محرفة عما جاء به عيسى عليه السلام، وليستا على التوحيد.

وأما اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله:

ـ فأحبار اليهود، وحاخاماتهم، عمدوا إلى التوراة، وأسفار أنبيائهم، فحرَّفوها، ووضعوا لها الشروحات التأويلية، فيما عُرف باسم «المشنا» و«الجمارا»، ومن مجموعهما تكوَّن «التلمود» الذي يعظمونه فوق تعظيم التوراة. فضمَّنوه من الأخبار الباطلة، والأحكام المحدثة ما ليس من عند الله، كما وصف تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا

---

(١) من قول الربيع. تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٣/ ٨٩).

هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

ـ ورهبان النصارى، وأساقفتهم، إذا أرادوا أن يغيروا شرع الله، عقدوا ما يُسمونه «المجمع المسكوني»، وحشدوا له جميع أساقفتهم على وجه الأرض، ثم يديرون الحوار بينهم حول قضية من القضايا، فما تمخض عنه ذلك المجمع، فإنه يُعد عندهم أحكاماً معصومة، يسمونها «دساتير» يزعمون إن الروح القدس يعصم هذا المجمع من الخطأ، ويضفون عليه صفة القدسية؛ بل إن بعضهم يجعل العصمة للبابا الذي يقف على رأس هرم الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يشرِّع، ويأمر، وينهى، ويحلل، ويحرم كيف شاء! وكان أول مجامعهم: مجمع «نيقية»: المنعقد سنة ٣٢٥م، وآخر مجامعهم: المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي انعقد في روما في الفاتيكان، ما بين عامي ١٩٦١م إلى ١٩٦٥م، ودام قريباً من أربع سنوات، واجتمع فيه أكثر من ألفي أسقف على وجه الأرض؛ ليناقشوا قضايا عدة، وخرجوا بمقررات كثيرة، نقضوا فيها بعض مقرراتهم السابقة. وهكذا اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يغيرون دين الله.

مناسبة الآية للباب:

بيان أن مما يناقض العبادة وشهادة أن لا إله إلا الله: طاعة غير الله في التحليل والتحريم، كما صنع اليهود والنصارى مع أحبارهم ورهبانهم.

فوائد الآية:

١ ـ انحراف اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم عليه السلام.

٢ ـ أن شهادة أن لا إله إلا الله، تقتضي إفراد الله بالتحليل والتحريم.

٣ ـ أن من نصّب مخلوقاً في التحليل والتحريم فقد أشرك مع الله.

٤ ـ الرد على اليهود والنصارى.

٥ ـ تنزيه الله عن الشرك؛ لقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

* * *

ثم ساق المصنف رحمه الله:

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (من): تبعيضية؛ أي: بعض الناس، أو فريق منهم.

قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ جمع ند، وهو المثيل والنظير.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ محبة العبادة، وللمفسرين قولان في معناها:

القول الأول: أن هؤلاء المذمومين يحبون غير الله من الأنداد كما يحب المؤمنون الله.

القول الثاني: أنهم يحبون أندادهم كما يحبون الله، فهم يحبون الله، ويشركون معه في المحبة غيره، وهذا هو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]، وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ[(٢)].

والقول الثاني أقرب، وهو الذي يدل عليه الواقع، فإن مشركي العرب، كانوا يظهرون محبة الله، ويحجون بيته، ويقفون في المشاعر، ويتقربون ببعض القرب لله عز وجل، لكنهم يفسدون ذلك بالشرك، وكذلك مشركو زماننا، الذين يطوفون بالأضرحة والقبور، وينادون الصالحين، يحبون الله، ويحبون هؤلاء محبة مماثلة لمحبة الله.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فمحبتهم لله عز وجل لا يدانيها، ولا يشاركها محبة، فقد أفردوا الله تعالى بالمحبة.

قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ومن كانت له القوة جميعاً حقيق بأن تكون له المحبة جميعاً.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ ما كان الله ليتوعدهم هذا الوعيد العظيم إلا لإقدامهم على أمر عظيم، وهو الشرك، والمراد به شرك المحبة.

---

(١) قاعدة في المحبة (ص٦٩).

(٢) جلاء الأفهام (ص٤٤٩).

مناسبة الآية للباب:

فيها بيان أن مقتضى لا إله إلا الله، إفراد الله تعالى بالمحبة، وعدم إشراك أحد معه فيها.

فوائد الآية:

١ ـ بيان معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن ذلك يتضمن إفراد الله بالمحبة.

٢ ـ أن المشركين يحبون الله محبة كبيرة، ولم ينفعهم ذلك؛ لأنهم أشركوا مع الله في المحبة، على أحد التوجيهين للمفسرين.

٣ ـ قبح الشرك، وشؤم عاقبته؛ لما ترتب عليه من الوعيد الشديد.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

(وفي الصحيح) لم تتبين لي طريقة منضبطة للمؤلف رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «وفي الصحيح» فتارة يقصد بذلك الصحيحين، وتارة البخاري وحده، وتارة مسلماً، وفي هذا الموضع أراد صحيح مسلم.

قوله: (من قال: لا إله إلا الله)؛ أي: بقلبه ولسانه؛ لأن القول ينسب إلى القلب واللسان.

قوله: (وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه حرم)؛ أي: امتنع ماله أن يُسلب، ودمه أن يُراق، واستحق العصمة في الأحكام الدنيوية.

قوله: (وحسابه على الله)؛ أي: ما دام قد سلم من غائلة الشرك، فحسابه في الآخرة، على الله عَزَّ وَجَلَّ إن كان قد وقع في شيء من الكبائر.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأنه تضمن شِقَّيْ التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، والبراءة من الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ بيان معنى: **(لا إله إلا الله)**، وأنها تتضمن الكفر بالأصنام.

٢ ـ أنه لا يكفي مجرد التلفظ بها؛ بل لا بد أن يقرن بذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فمن قالها، ودعا غير الله، أو ذبح لغير الله، أو استغاث بغير الله، لم تنفعه ولو ملأ بها الجو تهليلاً.

٣ ـ أن من أتى بالتوحيد وحقّقه، فإنه معصوم الدم والمال.

٤ ـ وجوب الكف عمن قال: **(لا إله إلا الله)**، حتى لو قالها في حال القتال؛ لقول النبي ﷺ لأسامة لما قتل الرجل، وهو قد قال: **(لا إله إلا الله)**، ظانّاً أنه قالها تعوذاً: «**وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**»[(١)].

٥ ـ تعظيم حُرُمات المسلمين.

(وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب).

مراده، رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه سيسوق أبواباً تفصيلية في تفسير التوحيد، وما ينافيه، إثر هذا الباب.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه مسائل:

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير الشهادة، وبيَّنها بأمور واضحة: منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين؛ ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

وهي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، وقد تقدم بيانها.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله برقم (٩٧).

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلٰهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

وهي قول الله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وتفسيرها في حديث عدي بن حاتم؛ لأن التحليل والتحريم حق خالص لله، فمن صرفه لغير الله فقد وقع في الشرك.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿...إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة، وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة: أن لا إلٰه إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وكلام الشيخ رحمه الله هنا يدل على أنه اعتبر الاستثناء متصلاً؛ لأنه قال: «فاستثنى من المعبودين ربه»؛ أي: أن القوم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره؛ ولما كانت هذه الكلمة ـ كلمة التوحيد ـ ثقيلة راسخة، جعلها باقية في عقبه.

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبّاً عظيماً، ولم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!

هذه دركات بعضها دون بعض، فبعضهم يحبون أندادهم كحب الله، أو أعظم من حب الله، وبعضهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله، وبعضهم لا يحبون الله أصلاً، فهؤلاء جميعاً داخلون في قول الله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ فهذا يفسر شهادة: أن لا إلٰه إلا الله.

ومنها: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»، وهذا من أعظم ما يُبَيِّن معنى: «لا إله إلا الله» فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها، مع لفظها؛ بل ولا الإقرار بذلك؛ بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده، لا شريك له؛ بل لا يحرم ماله ودمه، حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفر بما يُعْبَد من دون الله، فإن شك، أو توقف، لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع!

مراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يرفع اللبس والخلط الذي يدعيه بعض مشركي زمانه حين يتذرعون بقول: لا إله إلا الله، ويباشرون الشرك بصور مختلفة، فإذا أُنكر عليهم قالوا: نحن نقول: لا إله إلا الله، فيقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله**»، فلا يكفي أن يقولها بلسانه، ولا أن يعتقدها بقلبه، ولا ألا يدعو إلا الله؛ بل حتى يضم إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.

وهذا يدل على عظم شأن التوحيد! ولهذا قال: «فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه» لأن هذا المقام لا بد فيه من القطع والجزم.





باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء، أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة، فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً»[١]، رواه أحمد، بسند لا بأس به.

وله: عن عقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلَّق تميمة، فلا أَتَمَّ الله له، ومن تعلَّق ودعة، فلا وَدَعَ الله له»[٢].

وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»[٣].

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمَّى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦][٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمائم برقم (٣٥٣١)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٢٠٠٠٠) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف» وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٧٤٠٤) وقال محققو المسند: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٧٤٢٢) وقال محققو المسند: «إسناده قوي». لكن بلفظ: «من علق».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (١٢٠٤٠) عن عزرة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

الشرح

قوله: (باب من الشرك) «من»: هنا تبعيضية؛ أي: بعض أنواع الشرك، وقد أطلق المصنف وصف «الشرك» فيحتمل أن يكون شركاً أكبر، ويحتمل: أن يكون شركاً أصغر.

قوله: (لبس الحلقة والخيط) والحلقة: تطلق على كل شيء مستدير؛ ولهذا يقال عن القوم المتحلقين لقراءة القرآن أو للعلم: حلقة علم، وحلقة قرآن، ولكن الذي يُلبس هو ما كان من معدن كذهب أو فضة أو صُفر ـ أي: نحاس ـ، أو نحو ذلك. وأما الخيط: فهو معروف، ويكون من الصوف أو الكتان أو الحرير أو غير ذلك من أنواع الأنسجة.

قوله: (ونحوهما)؛ أي: من المعلقات، والمرصعات، وغير ذلك، فكل شيء يُتخذ سواء في اليد أو على الرقبة، أو يشد على الخصر مثلاً، أو يوضع في أي موضع، دخل في ذلك، وليس الأمر مقتصراً على الحلقة والخيط، وإنما أراد به التمثيل؛ لأن أكثر ما يقع من هذا القبيل.

قوله: (لرفع البلاء أو دفعه) الفرق بين الرفع والدفع:

١ ـ الرفع: يكون بعد الوقوع.

٢ ـ الدفع: يكون قبل الوقوع.

والدفع أسهل من الرفع، فمدافعة الشيء قبل أن يتمكن، ويرسخ، أهون من رفعه واجتثاثه بعد وقوعه. فأراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة أن يُبيّن نوعاً من أنواع الشرك المنافي للتوحيد، وصورة من صوره، وهو ما يقع من بعض الناس من لبس الحلقة والخيط ونحوهما، بنية رفع البلاء أو دفعه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب تفسير التوحيد وشهادة: **أن لا إله إلا الله**، بقوله: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب» أفاد أن الأبواب التالية، ومنها هذا الباب، شرح تطبيقي لحقيقة التوحيد، وما ينافيه من الشرك، على سبيل التفصيل. وذلك لأنه يتضمن ذكر ما يضاد التوحيد إما مضادة تامة لأصله، وإما لكماله الواجب.

فالشرك الذي يحصل بلبس الحلقة والخيط **يحتمل الأمرين**:

ـ فإن كان صاحبه يعتقد أن الحلقة والخيط مؤثرتان بطبعهما؛ أي: يستقلان بالتأثير؛ فيدفعان أو يرفعان، فهذا شرك أكبر؛ لمنافاته لتوحيد الربوبية، حيث اعتقد مدبراً غير الله.

ـ وإن كان يعتقد أن الحلقة والخيط سببان في حصول الأثر، ولا يستقلان بالتأثير، فهذا شرك أصغر؛ لأنه اعتقد سبباً لم يجعله الله ورسوله سبباً، لا شرعاً ولا قدراً.

وذلك أن الأسباب نوعان:

١ ـ أسباب حسية: كالدواء، فإنه سبب في الشفاء، فإذا تعاطى الإنسان الدواء المعين للداء المعين، فإنه يكون سبباً في شفائه ـ بإذن الله ـ وهذا يُدرك بالتجربة.

٢ ـ أسباب شرعية: كالرقية، كما لو لُدغ، فرقى نفسه بسورة الفاتحة، فبرأ، فهذا سبب شرعي؛ لأن الدليل دلّ على أن الرقية في سورة الفاتحة تشفي اللديغ، كما في قصة الرهط من أصحاب النبي ﷺ الذين رقوا سيد الحي لما لدغ[1].

والناس في مسألة الأسباب طرفان ووسط:

١ ـ فمن الناس من يلغي الأسباب بالكلية، وهؤلاء هم الجبرية، والأشاعرة، فيرون عدم تأثير الأسباب، وهذا قدح في الشرع، وقدح في العقل، فإنه ما من عاقل إلا ويُدرك تأثير الأسباب؛ فالعطشان إذا شرب الماء ارتوى، والجوعان إذا أكل الطعام شبع، والمريض إذا استعمل الدواء شفي، والمتعب إذا أوى إلى فراشه ونام، استراح، ولا ينازع في هذا إلا إنسان في عقله لوثة؛ ولهذا كان من ينكر تأثير هذه الأسباب، ويزعم أن الأثر يحصل عندها لا بها، أضحوكة للعالمين، فمن عطل الأسباب، فقد عطل العقل، وعطل النص.

٢ ـ ومن الناس من غلا في الأسباب، حتى اعتقدوا أن كل شيء يفسر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب برقم (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار برقم (٢٢٠١).

تفسيراً ماديّاً، ولم يلتفتوا إلى إرادة الله تعالى ومشيئته. وهؤلاء هم الماديون من الملاحدة، والفلاسفة، وغيرهم.

٣ ـ وهدى الله أهل السُّنَّة والجماعة إلى إثبات الأسباب الحسية، والشرعية، فأخذوا بها، مع التعلق بمسبب الأسباب، وهو الله ﷻ.

قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾؛ يعني: أخبروني؛ وذلك أن من لازم الرؤية الخبر؛ لأن من رأى شيئاً رؤية علمية فإنه يخبر عنه.

قوله: ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾؛ أي: دعاء عبادة، أو دعاء مسألة. فهؤلاء المشركون يدعون غير الله دعاء عبادة: بأن ينذروا القرابين لهذه الأصنام، ودعاء مسألة: حيث يستغيثون بها من دون الله ﷻ، فيسألونها كشف الضر، أو تحويله.

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من الأنداد والأصنام، ونحو ذلك.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ (رأى) تنصب مفعولين: فمفعولها الأول: (ما)، ومفعولها الثاني: جملة: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

قوله: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ أي: هل تستطيع هذه الأنداد أن تكشف الضر الذي أرادني الله به، والضر: كالفقر، والمرض، وسائر أنواع البلاء المؤلمة.

قوله: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ المراد بالرحمة: الصحة، والغنى، والمنفعة، ونحو ذلك.

قوله: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا استفهام إنكاري؛ أي: هل تملك أن تمنع رحمة الله تعالى من الوصول إلى محلها؟ الجواب ـ كما لا يخفى ـ: لا.

قوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ الحسب هو الكفاية؛ أي: يكفيني الله. و(حسب) مبتدأ، ولفظ الجلالة خبر المبتدأ، ويجوز العكس: أن يكون (حسب) خبر مقدم، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر، وكونها على الترتيب أولى؛ لأن الأصل عدم التقديم والتأخير؛ ولأن هذا يفيد حصر الكفاية في الله ﷻ، فكأنه قال: حسبي الله، لا حسب لي سواه. سبحانه وبحمده.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ التوكل: اعتماد القلب على الله في حصول المنفعة، أو دفع المضرة؛ يعني: أن القلب يفزع ويهرع إلى الله ﷻ في

تحصيل المنافع ودفع المفاسد، مع فعل الأسباب الموصلة إلى ذلك. والإتيان بهذه الصيغة: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ تدل على شمول تدبيره سبحانه للناس جميعاً، فالتوكل عبادة جليلة من أعظم العبادات، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فأمر الله تعالى نبيَّه بأن يتوكل على من اسمه الحي، ووصفه بأنه لا يموت؛ لأن من توكل على غير الله، فقد توكل على من يموت، فإذا مات وكيله انقطعت به السبل، أما من توكل على الحي الذي لا يموت فهو بمأمن؛ لأن وكيله باقٍ دائم، فما أعظم وقع هذه الآية على النفوس القلقة المضطربة!

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لأنها تضمنت بطلان الشرك، فمن لبس حلقة أو خيطاً، فقد تعلق بسبب لم يجعله الله سبباً، وهذا شرك. فهذا يدل على عميق فهم المصنف، واستنباطه الدقيق، حيث استدل بهذه الآية العامة، على بطلان لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه؛ لأنه علّق قلبه بهذا المعدن الذي وضعه على ذراعه، أو بذلك الخيط الذي ربطه في عضده، مما لا أثر له في دفع البلاء أو رفعه. فهذا يدل على أنه شابه شائبة الشرك.

فوائد الآية:

١ ـ بطلان الشرك، وأن أساسه على شفا جرف هار، ينهار به في نار جهنم.

٢ ـ تحريم اتخاذ الحلقة والخيط، وأن ذلك من موارد الشرك.

٣ ـ مشروعية مجادلة المشركين والمبتدعة؛ لأن الله أمره أن يجادلهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٤ ـ فضيلة التوكل، وأنه من أعظم مظاهر التوحيد.

* * *

📖 **قال المصنف** رَحِمَهُ اللهُ:

(وعن عمران بن حصين) هو: عمران بن حصين بن معبد، وقيل: ابن عبيد الخزاعي، صحابي مشهور، كان إسلامه عام خيبر، وتوفي سنة (٥٢هـ) وقد روى جملةً صالحةً من الأحاديث.

قوله: (أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً) هذا الرجل قد أبهم اسمه، فقيل: إنه عمران نفسه، ولكن عمران أبهم ذلك، ولم ينسبه إلى نفسه، ولا تضر جهالته، المهم ما تضمنه الحديث من حُكْم.

قوله: (في يده حلقة من صُفر) الحلقة تقدم بيان معناها، لكنه هنا حددها بأنها «من صفر» والصفر: هو النحاس.

قوله: (فقال: «ما هذا؟») سؤال النبي ﷺ يحتمل:

١ ـ أن يكون استفهاماً إنكارياً.

٢ ـ أن يكون استفهاماً للاستخبار؛ أي: لمعرفة السبب، فيكون على بابه، ويؤيد الثاني: أنه كان من شأن النبي ﷺ ألا ينكر على أحد حتى يتبين حاله، وشواهد ذلك كثيرة.

قوله: (قال: من الواهنة)؛ أي: بسبب الواهنة، أو لأجل دفع الواهنة. والواهنة: مرض يصيب الإنسان في يده، أو ذراعه، أو عضده، يحس فيه بالوهن والتعب.

قوله: (انزعها)؛ أي: اخلعها، واطرحها بقوة؛ فالنزع يدل على الطرح، والجذب بقوة.

قوله: (فإنها لا تزيدك إلا وهناً) هذه جملة تعليلية للأمر، ومعنى تزيده وهناً:

١ ـ أي: عقوبة له على تعلقه بشيء موهوم.

٢ ـ أو تزيده ضعفاً حقيقيّاً، وهذا الوهن ناتج عن الانفعال النفسي من التعلق بهذا الشيء، فتضعف المقاومة والمدافعة، ويشعر الإنسان بأنه مريض. والانفعال النفسي له تأثير في حصول الصحة والعافية، أو ضد ذلك، فإن كثيراً من الناس يسيطر عليه الوهم، ويشعر أنه مريض، وهو ليس كذلك. ومن الناس

من يكون مريضاً حقّاً، ويكون عنده من التفاؤل، والتوكل على الله، ما يلحقه بالأصحاء.

قوله: (فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً)؛ أي: مت وأنت مصر على هذا الفعل، بعد العلم لم تفلح أبداً. وهذا وعيد شديد. والفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن وقع منه ذلك، وأصر عليه فإنه لا يفلح أبداً، بشهادة من لا ينطق عن الهوى.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(رواه أحمد، بسند لا بأس به) هكذا عبّر المصنف، والواقع: أن هذا الحديث مختلف في تصحيحه وتضعيفه، وقد رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، كما تقدم، دون الزيادة الأخيرة، وابن حبان[(١)]، والطبراني[(٢)]، وكل هؤلاء رووه من حديث المبارك بن فضالة، وقد اختلف فيه، ورمي بالتدليس؛ ولذلك ضعّف الحديث بعض أهل العلم. وفيه علة أخرى: وهي الاختلاف في سماع الحسن من عمران بن حصين. وقد جوّد الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث المبارك بن فضالة عن الحسن، وقَبِلَه، واحتمله[(٣)]. والحديث له متابعات، فقد روي من غير طريق المبارك بن فضالة. والراجح في مسألة سماع الحسن من عمران بن حصين: أنها ثابتة، فالحديث ـ إن شاء الله ـ حسن، وليس ضعيفاً. وممن حسنه: البوصيري، فقال: إسناده حسن[(٤)]، وممن صحح إسناده الحاكم، ووافقه الذهبي على ذلك[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٦٠٨٥) وقال المحقق الأرنؤوط: «رجاله ثقات رجال الشيخين غير مبارك بن فضالة، فقد روى له أصحاب السنن، وعلق له البخاري، وهو صدوق لكنه يدلس وقد عنعن، والحسن ـ وهو ابن أبي الحسن البصري ـ لم يصرح بسماعه من عمران».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٤٨٢٨).

(٣) حيث قال: «مَا روى عَن الْحسن يحْتَج بِهِ». ينظر: العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية المروذي وغيره، ت: صبحي السامرائي (ص٨٣).

(٤) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (٤/ ٧٧).

(٥) المستدرك، للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٤/ ٢٤٠).

⁜ مناسبة الحديث للباب:

مطابقٌ للترجمة؛ لأن الحديث في من لبس حلقة لدفع البلاء أو رفعه، والغالب في هذه القصة الرفع؛ لأنه اتخذ تلك الحلقة لرفع الواهنة، ويحتمل أنه اتخذها دفعاً لما يخشى.

فوائد الحديث:

١ ـ المنع من لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه.

٢ ـ موافقة قول النبي ﷺ: «**إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام**»(١).

٣ ـ وجوب إنكار المنكر، وتعليم الجاهل، فإن النبي ﷺ حين رأى هذه الحلقة لم يسكت؛ بل استبان واستوضح، فلما علم أنه منكر، أنكر عليه. وكثير من طلاب العلم اليوم يرى لدى العامة؛ في أيديهم، وفي رقابهم تعليقات، وأساور، وخيوط، ولا يرفع رأساً بإنكار ذلك، ولا يرى بأساً بالسكوت عنه، وهذا خطأ، فكيف يتعلم الجاهل؟! وكيف ينبه الغافل؟! يجب على الإنسان إذا رأى ما يريبه في أخيه المسلم أن ينكر ويعلِّم، ولا يصح أن يقال: هذا تدخل في الحرية الشخصية، هذا مفهوم غربي للحرية، وأما الله تعالى فيقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. وفي الحديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»(٢)، هذا ليس تطفلاً؛ بل هو من الإحسان.

٤ ـ خطر الشرك، وشؤم عاقبته في الدنيا، لقوله: «**إنها لا تزيدك إلا وهناً**»، وفي الآخرة: «**فإنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبداً**».

٥ ـ ضرورة الاستبانة والاستيضاح قبل الإنكار؛ لأن النبي ﷺ لم يبادر الرجل بقوله: «إنك لو متَّ ما أفلحت أبداً» بل قال: «**ما هذا؟**» ليسمع منه، كما قال لحاطب بن أبي بلتعة لما أفشى سره: «**ما حملك على ما صنعت؟**»(٣)، هذا

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (١٣٩١) وقال الألباني: «حسن لغيره»، غاية المرام (٣٠ ـ ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره برقم (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي برقم (٣٩٨٣).

مقتضى العقل والحكمة، وبعض الناس إذا رأى ما يريبه تأخذه الحمية والغيرة، فيبادر بالهجوم على المخالف، والتشنيع عليه، ثم ربما تبيّن له بعد انجلاء الموقف أنه معذور، فيأسف ويندم على ما بدر منه، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

٦ ـ أن الشرك الأصغر أعظم من الكبائر؛ لأن هذا الرجل لم يعتقدها سبباً مؤثراً بطبعها؛ بل اعتقد أنها سبب مؤثر بقدرة الله، ومع ذلك قال له النبي ﷺ هذا القول الشديد.

قوله: (وله)؛ أي: للإمام أحمد، ورواه أيضاً: ابن حبان[(١)]، والطحاوي[(٢)]، وأبو يعلى[(٣)]، والحاكم[(٤)]، والطبراني[(٥)]، والبيهقي[(٦)] من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً. قد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي[(٧)]، وقال المنذري: إسناده جيد[(٨)]، وقال الهيثمي: رجاله ثقات[(٩)]، فهذا الحديث معتمد، ومحل قبول، فأقل أحواله: أنه حسن؛ لأنه قد تكلم في بعض رواته.

قوله: (عن عقبة بن عامر) وهو: عقبة بن عامر الجهني، صحابي مشهور، من أصحاب النبي ﷺ، وكان قاضياً، وقد ولي مصر في زمن معاوية مدة ثلاث سنين، ومات في حدود الستين.

قوله: (من تعلق) (من) اسم شرط، تدل على العموم؛ أي: علَّقها، وتعلَّق بها.

قوله: (تميمة) خرزات منظومة، أو شيء من عظام، أو ودع، تُعلَّق لاتقاء العين: إما أنه علقها على نفسه، أو علقها على غيره، من الصبيان، أو الدواب والبهائم؛ إذ كانوا في الجاهلية يعلقون السيور، والتمائم، في رقاب البهائم، ومرادهم ـ كما يزعمون ـ أن ذلك يكسر العين، فإذا رأى الإنسان في عنق

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٦٠٨٦). (٢) شرح معاني الآثار برقم (٧١٧٢).
(٣) مسند أبي يعلى الموصلي برقم (١٧٥٩).
(٤) بنحوه في المستدرك، للحاكم برقم (٧٥٠٢).
(٥) مسند الشاميين، للطبراني برقم (٢٣٤). (٦) السنن الكبرى، للبيهقي برقم (١٩٦٠٥).
(٧) المستدرك، للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٤/ ٢٤٠).
(٨) الترغيب والترهيب، للمنذري (٤/ ٣٠٧).
(٩) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ١٠٣).

البعير قلادة من سيور مهترئة، انكسر بصره، واشمأزت نفسه.

قوله: (فلا أتم الله له) هذا يحتمل أن يكون خبراً، أو يكون دعاءً. فإن قلنا: إنه خبر، فالنبي ﷺ يخبر أن من فعل ذلك فإن الله لا يتم له أمر، وإن قلنا: إنه دعاء، فمعنى ذلك: أن النبي ﷺ قد دعا عليه ألا يتم الله له أمر، وعلى كلا التقديرين؛ فالجملة تدل على تحريم تعليق التمائم.

قوله: (ومن تعلق ودعة)؛ أي: اعتقد بأن هذه الودعة تدفع العين. والودعة: هي الصَّدَفة التي يلقيها البحر على الشاطئ، وهي أشبه بالعظام، فتؤخذ هذه الصدفات، ثم تخرق وتنظم في سلك وتعلق.

قوله: (فلا ودع الله له) تحتمل الخبر والإنشاء؛ كسابقتها؛ أي: لن يكون في دعة، أو لا جعله الله في دعة وسكون، أو: لا تركه الله؛ بل سلط عليه الآفات.

قوله: (وفي رواية)؛ أي: عند الإمام أحمد، وإذا قيل: «رواية»؛ يعني: أنها من حديث آخر. وهذه الرواية حكم عليها بعض المحدثين بالحسن أيضاً.

قوله: (فقد أشرك) العلة فيها واضحة، وهو التعلق بهذه الأسباب الموهومة.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن تعليق التمائم والودع من الشرك؛ كلبس الحلقة والخيط، فهما من باب واحد.

فوائد الحديث:

١ ـ أن تعليق الودع والتمائم من الشرك.

٢ ـ أن من طلب شيئاً من غير بابه، عوقب بنقيض قصده، فهذا الذي علق تميمة، أو ودعة، يريد بذلك دفع البلاء أو رفعه، عومل بنقيض قصده: **«فلا ودع الله له»**، **«فلا أتم الله له»**.

٣ ـ جواز الدعاء على من فعل شركاً. ولكن ينبغي أن يكون دعاءً على الجنس، لا على المعين، كما نلعن الجنس، ولا نلعن المعين، فنقول كما قال النبي ﷺ: **«من تعلق تميمة فلا أتم الله له»** ولا تقول لمعين: لا أتم الله لك، إلا إن كان مصراً على منكره، فحينئذٍ يتوجه الدعاء عليه.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ولابن أبي حاتم) هو: الإمام محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي حاتم، التميمي، الحنظلي، الرازي، هو وأبوه وعمه أبو زرعة، من أئمة الحديث الكبار، وله كتاب «الجرح والتعديل»، توفي سنة ٣٢٧هـ.

قوله: (عن حذيفة) وهو: حذيفة بن اليمان العبسي، صاحب سر رسول الله ﷺ، هاجر هو وأبوه إلى النبي ﷺ، فوصلا المدينة يوم أُحد، وكان حليفاً للأنصار رضي الله عنه، فقتل المسلمون أباه خطئاً، فتصدق بديته على المسلمين. توفي سنة (٣٦هـ).

قوله: (أنه رأى رجلاً في يده خيط) الخيط: معروف، يكون من القطن، أو الكتان، أو الصوف.

قوله: (من الحمى)؛ أي: بسبب الحمى.

قوله: (فقطعه، وتلا قوله : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾) استدل بالآية على هذه الحالة، ومعنى الآية: أن المشركين في زمن النبي ﷺ آمنوا بالربوبية، لكن أشركوا بالعبادة. وهذا الأثر إسناده منقطع؛ فهو ضعيف.

مناسبة الأثر للباب:

مطابقة؛ لأن الصحابي قطع الخيط الذي يعتقد صاحبه أنه يدفع الحمى.

فوائد الأثر:

١ ـ إنكار لبس الخيط، لرفع البلاء أو دفعه. وفيما مضى ما يغني عن ذلك.

٢ ـ إزالة المنكر باليد لمن قدر عليه، وهي مرتبة ذكرها النبي ﷺ في قوله: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[1].

٣ ـ الاستدلال بالنصوص الدالة على تحريم الشرك الأكبر على تحريم الشرك الأصغر؛ لأن قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ المراد

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (١/ ٦٩) (٤٩).

به: الشرك الأكبر، وقد دلت نصوص عدة على جواز الاستدلال بالنصوص الواردة في الشرك الأكبر على مسائل الشرك الأصغر؛ كحديث (ذات أنواط)، وسيأتي لاحقاً.

٤ ـ إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، ولم يغنهم ذلك؛ لكونهم منكرين لتوحيد الألوهية.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لُبس الحلقة والخيط، ونحوهما؛ لمثل ذلك.

لقول النبي ﷺ: «**لا تزيدك إلا وهناً**»، وقوله: «**إنك إن مت على هذا ما أفلحت أبداً**».

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

ووجه ذلك: أن النبي ﷺ وجه هذا الوعيد لصحابي، فكيف بمن دونه؟! مما يدل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر؛ لأن الشرك من حيث جنسه أعظم من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يُعذر بالجهالة.

هذه المسألة من المسائل العظيمة، وهي مزلة أقدام، ومضلة أفهام. والأصل أن الجهل مانع من موانع التكليف، والله ﷻ قد عذر الجاهل، والناسي، والمكره. وقد جزم المصنف ها هنا بإطلاق القول بعدم العذر بالجهل، وله كلام آخر في بعض كتبه يثبت فيه العذر بالجهل، والتفصيل في هذه المسألة هو الصواب، فيُقال: **إن الجهل نوعان:**

١ ـ نوعٌ يُعذر به صاحبه.

٢ ـ ونوع لا يُعذر.

ـ فما كانت أسباب العلم فيه متوافرة، فإن هذا لا يعذر، فمن قصّر في تحصيل علمه، سواء كان ذلك في الأمور الاعتقادية، أو كان في الأمور العملية، فإنه لا يعذر.

ـ وما كان خفيّاً ولا ينال إلا بالكلفة، ووجد من الأسباب ما يحمل على احتمال العذر له، فإنه يعذر به، سواء كان في الأمور الاعتقادية، أو في الأمور العملية.

وهذا الأمر يرجع تقديره إلى اختلاف الحالات، وقد كان النبي ﷺ يحكم على من مات من المشركين على الشرك، بالكفر، حتى إنه أتاه رجل، فقال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «**أبوك في النار**» فتولى الرجل وعليه أثر الكراهة، فقال: «**أبي وأبوك في النار**»[1]. وقال النبي ﷺ: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي، فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**»[2]، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال في حديث مخاطباً أحد الصحابة: «**حيثما مررت بقبر مشرك، فبشره بالنار**»[3]، فدلت هذه النصوص على أن من غشي الشرك فإنه لا يعذر بذلك؛ لأن الله تعالى قد أودع في الفطر، والعقول، الإيمان به، فلو خفيت بعض الأمور لما خفي أصل التوحيد. لكن يعذر بعدم العلم بتفاصيل الأحكام الشرعية لعدم وجود الرسول، ولا يعذر بغشيان الشرك، وعبادة غير الله ﷻ.

لكن بعض المسائل العقدية قد تكون خفية، ولا يعلم مرتكبها أن ذلك يكون منافياً للتوحيد، كما في هذا الحديث، وفي غيره؛ فلهذا كان القول الوسط: أنه يُفرق في مسائل العذر بالجهل بين حال وحال، فمن مسائل الجهل

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في ذراري المشركين برقم (٤٧١٨) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه برقم (٩٧٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين برقم (١٥٧٣) وصححه الألباني.

ما يعذر به فاعله، سواء في الأمور الاعتقادية، أو في الأمور العملية. فلو قدرنا أن إنساناً نشأ في بادية بعيدة، وظل شطراً من عمره لا يغتسل من الجنابة؛ لعدم وجود من يعلمه، ويفتيه، فلا نأمره بإعادة كل ما مضى، ونلتمس له العذر بالجهل. ولو وقع مثل ذلك من إنسان يعيش في المدن، وبين ظهراني العلماء، ثم لم يسأل، ولم يستفت، فإنه لا يعذر بذلك، فمرجع ذلك إلى تقدير المفتي الواقف على حاله. فلا بد من قيام الحجة الرسالية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فمن استحكمت أسباب الجهل في قومه، ونشأ بين ظهرانيهم لا يحسن غير هذا، فإنه يكون معذوراً. وهذا إذا كان الأصل فيه الإسلام، وأما إن لم يكن مسلماً، فإن الله يختبره يوم القيامة، بما يتبين به إيمانه أو كفره.

الرابعة **أنها لا تنفع في العاجلة؛ بل تضر؛ لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً».**

فماذا يرجو المتعلق بمثل هذه الأوهام، إذا كانت لا تنفعه ولا تضره؟! وقد حرم الله الخمر والميسر، مع أن فيهما نفعاً، لغلبة إثمهما على نفعهما، فكيف بما لا منفعة فيه أصلاً؟!

الخامسة **الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.**

كما فعل النبي ﷺ، فدل على أن من فعل ذلك فإنه يغلظ عليه في الإنكار؛ وذلك ـ والله أعلم ـ في الأمور المشتهرة البينة التي توافرت الدواعي على العلم بها؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمن نشد ضالته في المسجد: «**لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا**»[1]، وهذا تغليظ عليه؛ لأنه خالف أمراً معلوماً مشتهراً، وهو أن المساجد ما بُنيت لهذا، وإنما بُنيت للصلاة وذكر الله.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد برقم (٥٦٨).

السادسة **التصريح بأن من تعلّق شيئاً وُكِل إليه.**

لقول النبي ﷺ: «**فمن تعلق شيء وُكِل إليه**» فمن تعلق بالله ﷻ، فالله وكيله، فليبشر بالفرج، ومن تعلق بغير الله ﷻ فإنه يُوكل إلى مضيعة.

السابعة **التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.**

كما جاء في الرواية الأخرى، عند الإمام أحمد.

الثامنة **أن تعليق الخيط من الحُمَّى من ذلك.**

كما في أثر حذيفة، وإن كان ضعيفاً؛ فالخيط كالحلقة من باب واحد، والناس يتفننون في إحداث بعض الأدوات التي يزعمون أن لها تأثيراً.

التاسعة **تلاوة حذيفة الآية، دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.**

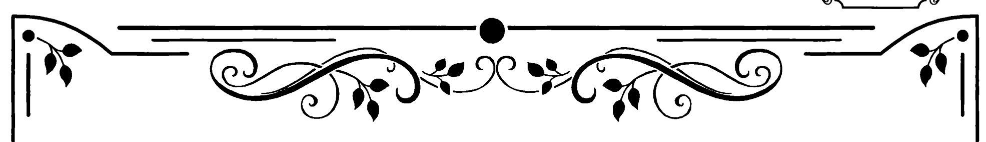
مراده باستدلال ابن عباس بقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

العاشرة **أن تعليق الوَدَع عن العين من ذلك.**

تعليق الودع والتمائم؛ كلبس الحلقة والخيط؛ فالعلة واحدة، وإن تنوعت الصور؛ لأنهم يتوهمون أن ذلك يدفع العين، وليس هناك مناسبة ظاهرة متعقلّة بين الأمرين لاعتباره سبباً.

الحادية عشرة **الدعاء على من تعلق تميمة: أن الله لا يُتِمُّ له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له.**

من وقع منه ذلك فإنه يستحق أن يُدعى عليه، ألا يتم الله له، أو بألا يتركه الله في دعة.



باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح: عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: «أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قُطِعَتْ»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك»(٢)، رواه أحمد، وأبو داود.

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد، يتقون به العين، لكن إذا كان المعلّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه(٣).

و(الرقى): هي التي تُسمى العزائم، وخص منها الدليل: ما خلا من الشرك، رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة.

و(التولة): هي شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلّق شيئاً وُكِل إليه»(٤)، رواه أحمد، والترمذي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل برقم (٣٠٠٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير برقم (٢١١٥).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣٦١٥)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمائم برقم (٣٥٣٠)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم برقم (٣٨٨٣) وصححه الألباني.

(٣) فقد جاء في مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٤٢٨): «عن إبراهيم عن عبد الله: أنه كره تعليق شيء من القرآن».

(٤) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٨٧٨٦)، والترمذي في أبواب الطب، باب ما جاء =

وروى أحمد: عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً بريء منه»(١).

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كَعِدْل رقبة»(٢)، رواه وكيع.

وله عن إبراهيم قال: كانوا(٣) يكرهون التمائم كلها، من القرآن، وغير القرآن(٤).

الشرح

قوله: (ما جاء)؛ أي: من النصوص، ولم يقطع بحكم، لوجود تفصيل.

قوله: (الرقى): جمع رقية، وهي العوذ التي تتخذ للاستشفاء من العين والأمراض.

قوله: (التمائم): جمع تميمة، وهي ما يعلق في أعناق الصبيان، لدفع البلاء أو رفعه.

والرقى تنقسم إلى قسمين: مشروع، وممنوع:

فالرقية المشروعة: ما كانت بكلام الله، أو بدعائه، وتحصل بالنفث مباشرة، أو بجمع الكفين والنفث فيهما، والمسح على النفس، أو على الغير، وسوَّغ بعض أهل العلم النفث في الماء فيشرب. والرقية الشرعية لا بد أن تجمع **ثلاثة شروط:**

١ ـ أن تكون باسم من أسماء الله تعالى، أو بصفة من صفاته.

= في كراهية التعليق برقم (٢٠٧٢) وحسنه الألباني.

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٦٩٩٥)، وأبو داود في كتاب الطهارة، باب ما ينهى عنه أن يستنجى به برقم (٣٦) وصححه الألباني.

(٢) المصنف، لابن أبي شيبة برقم (١٨).

(٣) يعني بذلك: أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة برقم (٢٣٩٣٣).

٢ ـ أن تكون بلسان عربي، فلا تكون بلغة أعجمية.

٣ ـ وأن تخلو من الشرك، ولا يعتقد أنها تؤثر بذاتها.

والرقية الممنوعة: التي تكون قائمة على الشرك، والاستغاثة بغير الله ﷻ، وسؤال غيره.

والتمائم فإنها تنقسم إلى قسمين:

١ ـ تمائم من القرآن.

٢ ـ وتمائم بغير القرآن.

فالتمائم بغير القرآن: ممنوعة مطلقاً؛ كتعلق الخرزات، والعظام، والودع، والأوتار، وغير ذلك.

والتمائم التي تكون بالقرآن: اختلف فيها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ:

ـ فذهب بعض الصحابة إلى جواز تعليق التمائم من القرآن في أعناق الصبيان، وإلى ذلك ذهب عبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة رضي الله عنهما، وغيرهما[١].

ـ وذهب آخرون؛ منهم: عبد الله بن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[٢] إلى منع التمائم مطلقاً، من القرآن ومن غيره، كما سيأتي تفصيله ـ إن شاء الله ـ. وهذا القول؛ أي: المنع مطلقاً، ولو من القرآن، هو القول الراجح **لأسباب:**

الأول: لعموم النهي عن التمائم.

الثاني: لسد الذريعة، فإن من الناس من قد يصنع التمائم يزعم أنها من القرآن، فيتبيّن أنها من غيره، فسد الباب من أوله أحوط.

الثالث: لأنها قد تمتهن، ولا سيما إذا كانت معلقة في أعناق الصبيان.

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠٠)، وممن قال بذلك كما قال في تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٠): «وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط، ورخص أبو جعفر محمد بن علي في التعويذ يعلق على الصبيان، وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان».

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠٠).

ومن المعلوم أن الصبي ربما سال لعابه عليها، وربما دخل بها الأماكن المستقذرة، وربما اضطجع عليها، فكان في ذلك امتهان للقرآن. ولا ريب أن بيوت المسلمين فيها مصاحف، فلا حاجة لتعليق المكتوب من القرآن على الرقبة، أو وضعه تحت الوسادة، والمصحف موجود في المنزل، فلا وجه لهذا التعليق.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»، بقوله: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب)، فعقد هذا الباب لبيان الحكم المتعلق بالرقى والتمائم، وأن منها ما يكون مشروعاً، ومنها ما يكون ممنوعاً.

قوله: (في الصحيح)؛ أي: في «الصحيحين»، وتعبير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «في الصحيح» غير منضبط، كما أسلفنا، فتارة يريد به المتفق عليه، وتارة يريد به ما في «صحيح البخاري»، وتارة يريد به ما في «صحيح مسلم»، وكأنه لحظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكون الحديث صحيحاً بصرف النظر عن اتفاق الشيخين عليه أم لا.

قوله: (عن أبي بشير الأنصاري) صحابي شهد غزوة الخندق، وكانت وفاته بعد الستين.

قوله: (أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره) لم يُبيِّن ذلك السفر، وعدم بيانه لا يضر.

قوله: (فأرسل رسولاً) جاء مبهماً، ولم يُبيِّن ذلك الرسول. وقد جاء مصرحاً به في حديث آخر: أنه زيد بن حارثة رضي الله عنه، حِبُّ رسول الله ﷺ[1].

قوله: (ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قُطعت) هذا أمر بقطع القلائد التي تقلد في أعناق ورقاب الإبل وغيرها من الدواب. فقد كان أهل الجاهلية إذا بليت أوتارهم وهي السيور التي تشدُّ في القسي، ويرمون بها النبال، وتكون من الجلود، وأرادوا أن يستبدلوها بغيرها، نزعوها، ثم عقدوها على رقبة البعير، زعماً منهم أن ذلك يدفع العين، كأن العين تنكسر إذا رأت هذا الشيء البالي، هكذا خُيِّل لهم! فصاروا يقلدون الإبل بهذه الأوتار البالية. فأرسل

(١) الآداب، للبيهقي (ص٢٦٠).

رسول الله ﷺ زيد بن حارثة؛ لينادي فيهم بهذا الحكم: **«ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر»**.

قوله: (أو قلادة) (أو) هنا شك من الراوي، هل قال: قلادة من وتر، مقيدة، أو قال: قلادة، مطلقة؟ وقال بعض أهل اللغة: إن القلادة، أصلاً، لا تكون إلا من الوتر. والصواب أن هذا الوصف طردي، لا مفهوم له؛ فالقلادة محرمة، مأمور بقطعها، سواء كانت من حبال، أو من جلود، أو غير ذلك؛ فالحكم واحد؛ لأن العلة واحدة، هي اعتقاد أن تلك القلادة تمنع العين، فلما كان ذلك الاعتقاد فاسداً، ليس مبنياً على سبب شرعي، ولا حسي، أبطله الشارع.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة؛ لأن النبي ﷺ نهى عن تقليد الإبل، ونحوها بهذه الأوتار، لكون ذلك من موارد الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم تعليق الأوتار لدفع الآفات، وأن حكمها حكم تعليق التمائم، لكن لو علق قلادة على دابة ليجذب الدابة، ويقودها، فلا محذور من ذلك؛ لأن السبب هنا ظاهر.

٢ ـ وجوب إزالة المنكر.

٣ ـ أن من كانت له ولاية عامة على الناس، فعليه أن يتعاهدهم بالتعليم، ولا سيما ما يتعلق بأمر العقيدة؛ لأنه لو خلي الناس وحالهم، لربما دب فيهم من البدع العقدية، والعملية ما يصعب كشفه، وهذا يحصل بانتداب جماعة للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذه الشعيرة من أعظم الأمور التي يحصل بها التنبه المبكر لظهور البدع، ودفعها قبل أن تستفحل.

٤ ـ حرص الرواة على ضبط الرواية، فإنه لما شك الراوي قال: «قلادة من وتر، أو قلادة».

❋ ❋ ❋

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد، وأبو داود) وذكر المصنف معنى هذه الكلمات:

فقوله: (التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين) كأن يعلق في رقبة الطفل شيئاً من خرزات، أو مكتوبات داخل جلد، أو غير ذلك، يظن أنه يقيه من العين.

قوله: (لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف) مراده بالسلف ها هنا الصحابة، وممن رخص فيه ـ كما تقدم ـ عبد الله بن عمرو، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

قوله: (وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه) منهم ابن مسعود، وأصحابه من فقهاء الكوفة، وابن عباس، وقد بيّنا رُجحان المنع من ثلاثة أوجه.

قوله: (والرقى: هي التي تُسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك) العزائم: جمع عزيمة، وهي آيات من القرآن، تُقرأ وينفث فيها على المصاب بالعين، أو بمرض من الأمراض، أو ينفث في ماء، ثم يُسقى إياه. وقد جاء في الحديث: أنّ النبي ﷺ أخذ من تراب بطحان، وهو وادٍ في المدينة، فجعله في قدح، ونفث فيه، ثم صب على المريض(١). وهذا يدل على أن الاستشفاء بالقرآن له صور متعددة، **منها**:

١ ـ القراءة مع النفث المباشر على المريض.

٢ ـ القراءة من غير نفث.

٣ ـ الرش بالماء المقروء فيه، وهذا فيه مناسبة ظاهرة.

٤ ـ شرب الماء المقروء فيه؛ ككتابة آيات على ورق بالزعفران، ثم غمسها في إناء ثم شربها، فهذا له وجه أيضاً، لكون المشروب يخالط البدن؛ كالنفث بالريق، ثم مسحه على البدن، ومباشرة الرقية للمرقي. وأما ما يفعله بعض الناس

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى برقم (٣٨٨٥).

عن طريق الهاتف، أو عن طريق قنوات فضائية، فهذا ليس رقية، وإنما هو سماع للقرآن؛ لأنه لا مباشرة بين الراقي والمرقي، بنفث أو مسح. فالرقية عبادة شرعية توقيفية تؤدى على الصفة الواردة، وما كان في معناها.

قوله: (وخص منه الدليل ما خلا من الشرك) ودليل التخصيص قول النبي ﷺ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[١]، وقوله ﷺ: «**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»[٢]، فدل ذلك على صحة بعض أنواع الرقى.

ولحديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قصة: وهي أن زوجته زينب قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جنبي، فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلتُ: خيط أرقي لي فيه، قالت: فأخذه، فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**». قالت: فقلتُ له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقيتِها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «**أذهب الباس، رب الناس، اشف، أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»[٣].

قوله: (والتولة هي شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته) ويسمى أحياناً: الصرف والعطف: فالعطف: شيء يصنعونه يعطف المرأة على زوجها، أو يعطف الزوج على زوجته، فينجذب إليها، أو تنجذب إليه انجذاباً غير طبيعي. والصرف: شيء يصنعونه ينفر المرأة من زوجها، أو ينفر الزوج من زوجته، نفرة غير طبيعية. وكلا الأمرين واقع، ويجد منه المبتلى أذى كثيراً، وهو نوع من أنواع السحر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك برقم (٢٢٠٠).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٣٦١٥) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

مناسبة الحديث للباب:

مطابِقة، وذلك لذكر الرقى والتمائم فيه، ودلالته على أن استعمال هذه الأشياء منافٍ للتوحيد.

فوائد الحديث:

١ ـ الحرص على أمر التوحيد.
٢ ـ سد جميع الطرق التي تفضي إلى الشرك.
٣ ـ أن الرقى والتمائم والتولة شرك.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه»): (شيئاً): نكرة جاءت في سياق الشرط فدلت على العموم؛ أي: من تعلق شيئاً من الأشياء، سواء كان خيطاً، أو ودعاً، أو إنساً، أو جِنّاً، لجلب نفع، أو دفع ضر، وُكِلَ إليه، ومن تعلق قلبه بالله وُكِل إلى الله، وهو نعم المولى، ونعم الوكيل.

قوله: (رواه أحمد والترمذي) وقد ضعّف بعض أهل العلم هذا الحديث **لعلتين**:

الأولى: في إسناده محمد بن أبي ليلى، وهو سيِّء الحفظ.

الثانية: عدم سماع عبد الله بن عكيم من النبي ﷺ. وهو أبو معبد الجُهني، أدرك زمن النبي ﷺ لكن لم يثبت له سماع منه ﷺ. ولكن الحديث له شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن، وممن حسّنه من المتقدمين: السيوطي[1]، ومن المتأخرين الألباني[2].

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن فيه النهي عن التعلق بغير الله؛ فيشمل ما نص عليه المصنف من الرقى والتمائم.

---

(١) الجامع الصغير من حديث البشير النذير (٢/ ٣٢٢).
(٢) غاية المرام (ص١٨١) (٢٩٧).

فوائد الحديث فوائد:

١ ـ النهي عن التعلق بغير الله.

٢ ـ وجوب التعلق بالله.

٣ ـ شؤم الشرك، وسوء عاقبته؛ لقوله: «**وُكِلَ إليه**»، ومن وكل إلى غير الله فقد وكل إلى مضيعة؛ ولهذا يدعو العبد ربه: ألا يكله إلى نفسه، ولا إلى أحد من خلقه، فيهلك؛ بل يكله إليه وحده.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه لما تعلق بغيره وَكَله إليه، جزاءً وفاقاً.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**وروى الإمام أحمد عن رويفع**) وهو: رويفع بن ثابت بن السكن، فخذ من الأنصار، من بني النجار، كان من المجاهدين في سبيل الله في بلاد المغرب، وقد ولي ولاية برقة وطرابلس، وكان له فتوح في إفريقية، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (٥٦هـ).

قوله: (قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك») (لعل) للترجي، والترجي من النبي ﷺ يُشعِر بالوقوع، فقد مد الله في عمره إلى سنة (٥٦هـ). فهذا علم من أعلام النبوة؛ لأن النبي ﷺ أخبره بأن الحياة ستطول به، فوقع كما أخبر.

قوله: (فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً بريء منه) والحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، كما تقدم، والطبراني[1]، وهو حديث صحيح. وقد تضمن وعيداً شديداً، وهو تبرؤ النبي ﷺ من فاعل هذه الخصال الثلاث، **وهي**:

الأولى: عقد اللحية؛ لقوله: «**من عقد لحيته**» حيث كانوا في الجاهلية يعقدون لحاهم، ويجعلونها ضفائر مجدولة، واختُلف في علة النهي عن عقد اللحية:

ـ فقيل: إن العلة في ذلك التشبه بالأعاجم، ولا يصح أن نشابه الكفرة في عاداتهم.

---

(١) المعجم الكبير برقم (٤٣٦٤).

ـ وقيل: إن عقد اللحية يراد به تجعيدها، وهذا نوع من التأنث والتخنث، لا يليق بالرجال.

ـ وقيل: إن ذلك من أفعال المتكبرين.

ـ وقيل: إن هذا نهي عن عقد اللحية في الصلاة خاصة؛ فقد ورد في الأحاديث النهي عن كفت الشعر، والثوب، فكذلك عقد اللحية، ولكن لفظ الحديث أعم، فإنه قال: «**من عقد لحيته**»، ولم يقيد ذلك بالصلاة.

فهذه تعليلات عدة، مفادها جميعاً: أنه لا يجوز عقد اللحى، فمن كانت له لحية مسترسلة طويلة، فليس له أن يعقدها بأي شكل من الأشكال؛ لبراءة النبي ﷺ من فاعل ذلك، لكن لا بأس أن يمشطها، وينظفها، كما هو معلوم في كتاب الطهارة.

الثانية: تقلد الأوتار؛ لقوله: «**أو تقلد وتراً**» وهذا هو موضع الشاهد، وسبب إيراد المصنف لهذا الحديث في هذا الباب، والمراد بتقلد الوتر؛ أي: جعله قلادة في العنق، سواء كان في عنق الشخص، أو في عنق الدابة، أو في عنق الصبي، وقاية من العين، فمن فعل ذلك، فإن النبي ﷺ بريء منه.

الثالثة: الاستنجاء برجيع دابة، أو عظم؛ لقوله: «**أو استنجى برجيع دابة أو عظم**» الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهي الحجارة، لجواز استعمالها في إزالة الخبث. قال ابن الأثير: الرجيع: العذرة والروث، سمي رجيعاً لأنه رجع عن حالته الأولى بعد أن كان طعاماً أو علفاً[(١)]. وهذا النهي من النبي ﷺ قد ورد في أحاديث أخر. فلا يجوز الاستنجاء بالروث والعظم:

ـ أما الروث: فلقذارته؛ ولأنه ربما زاد في تلويث البدن.

ـ وأما العظم: فلأنه طعام إخواننا من الجن؛ كما قال النبي ﷺ حين سألوه الزاد: «**لكم كل عظم ذُكِر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم**»[(٢)]، فمن استنجى بالعظم، فقد أفسده على إخوانه الجن، ومن

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن برقم (٤٥٠).

استنجى بالروث فقد أفسده على دوابهم. فلذلك لا يجوز الاستنجاء بالرجيع، ولا بالعظم.

قوله: (فإن محمداً)؛ يعني: نفسه ﷺ **(بريء منه)** هذا من صيغ الوعيد، وقد قال بعض الشراح: إن معنى قوله: «**بريء منه**»؛ أي: بريء من فعله، وهذا نوع تأويل؛ بل النبي ﷺ بريء من الفعل والفاعل معاً، وهذه البراءة لا تستلزم إخراجه عن الملة، وإنما هو من ألفاظ الوعيد.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لقوله: «**أو تقلد وتراً**»، وبراءته ﷺ من فاعله.

فوائد الحديث:

١ ـ علم من أعلام النبوة، بإخباره ﷺ رويفعاً بأن حياته ستطول، وقد كان ذلك.

٢ ـ وجوب نشر العلم والدعوة إلى الله ﷻ، وتعليم الناس؛ لقوله: «**فأخبر الناس**» فهذه هي وظيفة الأنبياء والمرسلين، فعلى كل مؤمن أصاب طرفاً من علم، أن يسعى في نشره، وألا يحرم نفسه وإخوانه الخير.

٣ ـ إكرام اللحية؛ لأن عقدها إهانة لها، والمشروع في اللحية توفيرها وإكرامها، وعدم الأخذ منها، لا بحلق، ولا بقص، ولا بنتف، فقد كان لرسول الله ﷺ لحية عظيمة، تملأ ما بين منكبيه. وقد كان السلف ـ رحمهم الله ـ يحرصون على أن توفير لحاهم. ويذكر أن عبد الله بن الزبير رحمه الله لم يكن تنبت له لحية، فقال: «عالجتُ لحيتي لتتصل، إلى أن بلغت ستين سنة، فلما أكملتها يئست منها»[1].

٤ ـ تحريم تقلد الأوتار، وأن ذلك من الشرك.

٥ ـ تحريم الاستنجاء بالروث والعظم.

٦ ـ أن هذه الخصال الثلاثة المذكورة من الكبائر؛ ويستفاد ذلك من لفظ (التبري) لأنه قد قيل في تعريف الكبيرة: «ما ترتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد

---

(١) إكمال تهذيب الكمال (٧/ ٣٥١).

في الآخرة، أو قُرِنَ به لعن، أو غضب، أو براءة»[١]، وأما الصغيرة فتعريفها: ما لم يبلغ حد الكبيرة.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع) هو: وكيع بن الجراح، إمام، عالم، مشهور، ورع، ثبت، ثقة، له كتاب في الزهد، وكانت وفاته سنة (١٩٧هـ) وهو الذي جاء ذكره في بيت الشافعي المشهور:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي[٢]

ومعنى: «كعدل رقبة»؛ أي: أن له ثواباً كثواب من أعتق رقبة؛ لأنه أعتقه من الشرك، وإعتاقه من الشرك أعظم من إعتاقه من الرق؛ لأن الرق إعتاق له من ملك إنسان، لكن الشرك إعتاق له من عبادة غير الله، وإعتاق له من النار.

قوله: (وله عن إبراهيم) هو: إبراهيم النخعي، أحد أصحاب ابن مسعود، من كبار الفقهاء.

قوله: (كانوا)؛ أي: أصحاب عبد الله بن مسعود، فقهاء الكوفة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا يستريب عالم في مثل أصحاب عبد الله بن مسعود؛ كعلقمة، والأسود، وعبيدة السلماني، والحارث التيمي، وشريح القاضي، ثم مثل إبراهيم النخعي، والحَكَم بن عتيبة، وأمثالهم من أوثق الناس وأحفظهم»[٣].

قوله: (يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) هذا يؤيد القول الذي أشرنا إليه ورجحناه، وهو أن التمائم من القرآن، وغير القرآن ممنوعة، وهو قول ابن مسعود، وعبد الله بن عباس، ومن تبعهم.

---

(١) ينظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، الداء والدواء (ص١٢٦).
(٢) ديوان الإمام الشافعي (ص٦١).
(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٠/ ٣١٧).

❋ مناسبة الأثرين للباب:

ظاهرة؛ لأن فيها المنع من تعليق التمائم مطلقاً.

فوائد الأثرين:

١ ـ فضل قطع التمائم، فينبغي لمن رأى في عنق أحد تميمة أن يبادر إلى قطعها، إلا أن يخشى مفسدة أكبر، وهذا يختلف باختلاف البيئات، فإن من البيئات ما يفشو فيها هذا الشيء، حتى لو أنكر الإنسان ذلك لربما وقع له أذى عظيم، لكن إن لم يتمكن من إنكارها بيده فلينكر بلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.

٢ ـ تحريم التمائم مطلقاً.

٣ ـ حرص السلف على صون جناب العقيدة في الأمور العلمية والعملية.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى تفسير الرقى والتمائم.

وقد تقدم بيانها من كلام المصنف.

الثانية تفسير التولة.

وقد تقدم بيانها أيضاً من كلام المصنف.

الثالثة أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الثلاث التي هي: الرقى، والتمائم، والتولة، ومراده بالرقية الرقية الشركية. وإلا فلا يُظن به رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه يمنع من الرقية مطلقاً، وقد ثبت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إباحتها، ما لم تكن شركاً، وأنه رقى، ورُقي. والدليل أنه استثنى الرقية بالكلام الحق، كما في الفائدة التالية، كما حكى الخلاف بين السلف في جواز التمائم التي من القرآن.

الرابعة **أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.**

وقد قال: «إلا ما استثناه الدليل، وهو ما خلا من الشرك» وللأدلة الأخرى؛ كقول النبي ﷺ: **«اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»**.

الخامسة **أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أو لا؟**

أي: من الشرك أم لا؟ وقد تقدم الكلام في ذلك.

السادسة **أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك.**

لأنه أثبت سبباً لم يثبته الله تعالى سبباً.

السابعة **الوعيد الشديد على من تعلق وَتَراً.**

وهو براءة النبي ﷺ منه.

الثامنة **فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.**

ثوابه: كأنه أعتق رقبة.

التاسعة **أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده: أصحاب عبد الله بن مسعود.**

قول إبراهيم: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن» يقصد بذلك أصحاب ابن مسعود، وأما من عداهم فالخلاف بينهم محفوظ، فلا يعد ذلك منافياً لما ذكر من الاختلاف.





باب من تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(باب: من تبرَّك بشجرة، أو حجر، ونحوهما)؛ أي: باب حُكم من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

ختم المصنف رحمه الله، «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله»، بقوله: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب)، وهذا من الأبواب التي تشرحها، وتبين ما يضادها من الأعمال والأقوال.

قوله: (من تبرَّك بشجرة): التبرك: طلب البركة، ورجاؤها، واعتقادها. والبركة: كثرة الخير، فالذي يتبرك بالشيء يطلب ما يترتب عليه من آثار حميدة. والتبرك نوعان: مشروع، وممنوع:

فالتبرك المشروع: هو التبرك بكل ما جعله الله تعالى سبباً للبركة، من: الكلام، والمكان، والزمان، والطعام، والشراب، والأشخاص:

ـ **الكلام**: فالقرآن العظيم، مبارك، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩].

ـ **المكان**: فالمسجد الحرام مبارك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

ـ **الزمان**: فليلة القدر مباركة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

ـ **الطعام**: فالزيتون مبارك، كما قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

ـ **الشراب**: فالمطر مبارك، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩].

ـ **الأشخاص**: فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مبارك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

وقد تكون البركة في الأمور الشرعية، وقد تكون في الأمور الحسية، فنبيّنا محمد ﷺ مبارك بركة شرعية، بما جاء به من الهدى ودين الحق، ومبارك بركة حسية بآثاره الشخصية؛ كفضل وضوئه، وشعره، وثيابه، وغير ذلك فقد ثبتت فيه أحاديث متعددة، ووقائع متنوعة.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتنافسون على فضل وضوئه، حتى أنهم يوم صلح الحديبية كان لا يتفل إلا وقعت في يد أحد منهم، فيمسح بها وجهه وجسده(١)، طلباً للبركة؛ وليظهروا لقريش منزلته في قلوبهم، وأنهم لا يسلمونه. وكذلك فعل معه أصحابه في غزوة أُحد حينما ازدرد أحدهم الدم الذي امتصه من النبي ﷺ(٢)، ولما رمى الجمرة، ونحر نسكه، وحلق، ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري، فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: «**احلق**» فحلقه، فأعطاه أبا طلحة، فقال: «**اقسمه بين الناس**»(٣)، وكان لأم

---

(١) بنحوه في المغازي، للواقدي (ص٥٩٨).

(٢) كما جاء عن ربيح بن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن جده، أن أباه مالك بن سنان لما أصيب رسول الله ﷺ في وجهه يوم أُحد، مص دم رسول الله ﷺ وازدرده، فقيل له: أتشرب الدم؟ قال: نعم، أشرب دم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**خالط دمي بدمه، لا تمسه النار**» في المعجم الأوسط برقم (٩٠٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب بيان أن السُّنَّة يوم النحر أن يرمي، ثم ينحر، ثم يحلق والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المحلوق برقم (١٣٠٥).

سلمة ﵂، جلجل من فضة، تضع فيه شعرات النبي ﷺ، حتى بعد وفاته، إذا أصيب أحد بداء، كانت تجعل هذه الشعرات المباركة في إناء، وتخضها فتسقى للمريض، أو تنثر عليه، فيشفى ـ بإذن الله ـ[(١)].

وأما غيره من الصالحين: فقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز التبرك بآثارهم الحسية، ولكن هذا خلاف الحق، فإنه لا يُتبرك بأثر حسي من الآثار إلا بآثار النبي ﷺ، ولم يبق منها شيء اليوم.

والتبرك الممنوع: فهو اعتقاد البركة والتماسها فيما لم يثبته الشارع سبباً لها.

قوله: (بشجرٍ، أو حجرٍ ونحوهما) أما الشجر: كل ما نبت على وجه الأرض. والحجر: هو الجماد الصلب من الأرض، وكلاهما معروف، وأراد بقوله: «ونحوهما» ألا يقصر الحكم على هذين النوعين، فيدخل في ذلك: البقاع، والأبنية، والمشاهد، والقبور، والمزارات، وغير ذلك.

ومن التبركات الباطلة:

ـ التبرك بذوات الصالحين، أو من يظنونهم صالحين: بالتمسح بهم، ولحس أياديهم، وربما أعجب الحال ذلك المفتون، فقدم لهم يده، ومكَّنهم من فعلهم.

ـ التبرك ببعض الأحجار، والمسكوكات، والمشغولات: كمن يقف عند الحُجرة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ، ويمسح بيديه ووجهه على الحاجز المعدني المجعول عليها، وهو حادث مصنوع، لم يكن في عهد النبي ﷺ، ولم يباشره. أو يعمد إلى بعض أبواب المسجد الحرام، أو المسجد النبوي، ويتمسح بها، ثم يمسح على بدنه، أو يتخذ منديلاً يمسح به حلق الأبواب، والعتب والدرج، في المسجدين، ويحملها معه إلى بلده، يتبركون بها.

ـ التبرك بالحجر الأسود: ولا شك أن الحجر الأسود يسن استلامه، وتقبيله، والإشارة إليه، لكنه لا يتبرك بالتمسح به، وإنما هو كما قال عمر بن الخطاب ﵁ لما قبّل الحجر: «أما إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر،

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (١/ ٢٣٦)، ومسند إسحاق بن راهويه (٤/ ١٧٢) (١٩٥٨).

ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك»[١]؛ فالسُّنَّة: أن نمسح الحجر، ونقبِّله، ونستلمه، وليس من السُّنَّة أن نمسح وجوهنا وأبداننا.

وقد ذكر أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «البدع والحوادث»، طرفاً مما وقع فيه الناس في زمانه، في بلاد الشام، وغيرها، فقال: «وبهذه الطرق وأمثالها، كان مبادئ ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها، ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان، والعُمُد، وسرح مواضع مخصوصة في كل بلد، يحكى لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن اشتهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم، بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر، وحائط وحجر»[٢].

كل هذا مما أدخله الشيطان على المسلمين، فصار هناك مشاهد، ومقامات، تقصد، وتشد إليها الرحال، وقد نهى النبي ﷺ أن تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

* * *

واستدل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ استفهام إنكاري، كما يدل عليه السياق. ومعناها: أخبروني، وعبّر بالرؤية؛ لأن العلم بالشيء لا يكون إلا بعد رؤية، سواء كانت رؤية علمية، أو رؤية بصرية، فالإخبار ثمرة هذه الرؤية. والخطاب لمشركي العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ.

قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ قرأ الجمهور (اللات) بالتخفيف، وأما ابن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود برقم (١٥٩٧)، ومسلم في الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف برقم (١٢٧٠).

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٢٥، ٢٦).

عباس ومجاهد وجمع، فقرؤها بالتشديد (اللّات)[١]، فـ(اللات) بالتخفيف صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت، كانت في الطائف، وكانت تعبدها ثقيف وتعظمها، وتفتخر بها على قبائل العرب، فلما فتح الله تعالى على نبيِّه ﷺ الطائف، بعث بالمغيرة بن شعبة الثقفي، فأحرقها، وهدمها، ومحا أثرها[٢].

وأما (اللّات) بالتشديد، فرجل صالح، كان يلتُّ السويق؛ أي: يخلط الدقيق بالسمن، ويبذله للحجاج، أو للناس، فلما مات ذلك الرجل، عكفوا على قبره وعبدوه. قال بعض أهل العلم: لا منافاة بين المعنيين، فلعله كان يلت ذلك السويق، وينشره على تلك الصخرة البيضاء الملساء، فيطعم الناس، فلما مات عبدوا تلك الصخرة، التي كان يلتُّ عليها.

وأما العزى: فإنها عبارة عن ثلاث سَمُرات، عليها أستار، وكانت في وادي نخلة بين مكة والطائف، وكانت لقريش، وكانت تعظمها، حتى أن أبا سفيان يوم أُحد قال: «لنا العزَّى، ولا عزَّى لكم» يفتخر بذلك، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**»[٣]، فشتان بين الفريقين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقد بعث إليها النبي ﷺ خالد بن الوليد، فأمره بإتلافها، فأقبل عليها خالد بن الوليد، وحرقها، ثم رجع أدراجه، فأخبر النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**إنك لم تصنع شيئاً**» فرجع خالد، فلما رآه السدنة، فروا، وصاروا ينادون: يا عزى! يا عزى!، فإذا امرأة سوداء، ناشرة شعرها، تحثو التراب على رأسها، فحمل عليها بالسيف، فقتلها[٤]؛ ولعلها كانت شيطانةً متلبسة بهذه المرأة الموصوفة.

فـ(اللات) تنطبق على الحجر، و(العزى) تنطبق على الشجر، ويقاس عليهما كل شجر وحجر، عُظِّما كذلك التعظيم.

قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (مناة): كانت في مكان يقال له:

---

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٧٩). (٢) السيرة النبوية، لابن كثير (٤/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أُحد برقم (٣٠٣٩).

(٤) السنن الكبرى، : للنسائي برقم (١١٥٤٧).

المشلَّل، قريباً من القديد بين مكة والمدينة، وكانت عبارة عن صنم تعبده هذيل وخزاعة، وبعض الأوس والخزرج، وكانوا يهلون للحج منها؛ قيل: إنها سميت مناة؛ لكثرة ما يمنى عندها من الدماء؛ أي: يراق. ووصفها بالثالثة من باب التحقير؛ أي: المتأخرة، الوضيعة الرتبة.

والمتأمل يجد أن هذه الألفاظ الثلاثة تأنيث لبعض أسماء الله الحسنى، إذ كان من إلحاد المشركين أن يسموا آلهتهم بأسماء لله مؤنثة:

١ ـ فـ(اللات): مشتقة من الإلٰه.

٢ ـ و(العزى): مشتقة من العزيز.

٣ ـ و(مناة) مشتقة من المنان.

وهذه الأصنام الثلاثة أشهر أصنام العرب، التي كانوا يعظمونها، حتى أنهم يقسمون بها، وينذرون لها، وينحرون عندها. ولديهم أصنام أخرى غيرها؛ كهُبلَ، كما قال أبو سفيان يوم أُحد: «اعلُ هبل» فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلا وأجل**»[١]، وكالأصنام التي ذكرها الله تعالى في سورة نوح في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]؛ وهذه كانت لقوم نوح، فطمرتها السيول، فنبشها عمرو بن لُحي الخزاعي، وبثها في قبائل العرب، وصار لكل قبيلة في موضعها صنم، فلا يكاد يخلو حي من أحياء العرب إلا وعنده صنم يعبد. بل لقد كان في البيت الحرام ثلاثمائة وستون صنماً! ودخل النبي ﷺ عام الفتح، وصار يطعنها بالرمح، وهي تتهاوى، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١][٢]. بل فعل النبي ﷺ ذلك حتى قبل الهجرة، حين أمكنه، فقد جاء في السيرة أن النبي ﷺ خرج ليلة ومعه علي بن أبي طالب، يستتران بالظلام، حتى رقيا على سطح الكعبة، وكان فوقها صنم من الأصنام، فألقياه، حتى تردى، وخرجا يستتران بالظلام[٣].

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي برقم (٣/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ برقم (٤٧٢٠).

(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم برقم (٤٢٦٥).

قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ استفهام إنكاري؛ أي: كيف تجعلون لله ما تكرهون، وتختارون لأنفسكم ما تحبون؟! كانوا في جاهليتهم يكرهون البنات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] فيجعلون لله البنات، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين.

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: جائرة، لا عدل فيها ولا إنصاف.

قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ﴾ إذا جاءت (إن) وبعدها (إلا) دلت على الحصر؛ أي: لا تعدو ذلك.

قوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾؛ أي: مجرد مسمَّيات لا تغني من الحق شيئاً، ولا حقائق تحتها.

قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ منها ما تابعوا فيه آباءهم الضالين، ومنها ما أحدثوه بأنفسهم **قوله:** ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ﴾؛ أي: لا دليل لهم ولا حجة ولا برهان، على اتخاذها.

قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتبعون إلا الظن، وهو التخرص. والظن أكذب الحديث.

قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ الهوى نقيض الهدى. وفي هذا إشارة إلى نوعي الضلال:

- فمن الضلال ما يكون ناشئاً عن شبهة. وهو الظن والرجم بالغيب، والتخمين والخرص.

- ومنه: ما يكون ناشئاً عن شهوة، وحظ نفس، وملاحظة مصلحة دنيوية.

فعلى العبد أن يستعيذ بالله من كلا الضلالتين، من الشبهة المضلة، ومن الشهوة المزلَّة، ليسلم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: أن الله تعالى أقام عليهم الحجة، وبيّن لهم المحجة، لكنهم تنكبوا الطريق. و(الهدى) هو ما بعث الله تعالى به نبيّه ﷺ من الدلائل الباهرات، والآيات البينات.

مناسبة الآيات للباب:

لكونها تضمنت ذكر اللات والعزى ومناة، واللات عبارة عن حجر، والعزى عبارة عن شجر، فطابق ترجمة الباب: «من تبرك بشجر أو حجر»؛ أي: فقد أشرك.

وقد كان في زمن المصنف رَحِمَهُ اللهُ فحل نخل، يقال له: (فحل الفحول)، وكان الناس في نجد يقصدونه، فتأتي المرأة التي لم تتزوج، فتطوف به، وتدعوه قائلةً: يا فحل الفحول، أعطني زوجاً قبل الحول، ويتبركون بذلك الفحل.

فلما مكّن الله تعالى للتوحيد على يدي الإمامين: محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود، قطع ذلك الفحل، وهدمت قبة زيد بن الخطاب، التي كانت قريبة من العيينة؛ في منطقة اليمامة، وقضي على مظاهر الشرك[(١)].

وقد كان أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شديد التنبه لهذه الأمور، فلما رأى بعض الناس يختلفون إلى شجرة الحديبية، ويصلون عندها، أمر بأن تقطع[(٢)]؛ لأن تلك الشجرة ليس لها مزية شرعية، ووقوع بيعة الرضوان تحتها موافقة عادية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. لكن ما أسرع ما دبت البدعة إلى النفوس، فزين الشيطان لبعض من كان في زمن عمر التبرك بها، فما بالك بمن بعدهم؟!

فوائد الآيات:

١ ـ أن التبرك بالأشجار والأحجار من الشرك؛ والمقصود طلب البركة منها، أما التبرك بما يخرج منها كشجرة الزيتون، بالأكل منها، والادِّهان بزيتها، فسائغ، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وكذلك التمر، فقد قال عنه النبي ﷺ: «**نِعم سحور المؤمن التمر**»[(٣)]، وقال: «**من تصبَّح كل يوم سبعَ تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم**

---

(١) انظر: مقدمة تاريخ ابن غنام المسمَّى: (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام).

(٢) أخبار مكة، للفاكهي (٥/٤٨) (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصوم، باب من سمَّى السحور الغداء برقم (٢٣٤٥) وصححه الألباني.

سم ولا سحر»[١]، فهذا تبرك مشروع؛ لأنه تبرك بسبب حسي.

٢ ـ مشروعية مجادلة المشركين؛ لقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ فهذا أسلوب حجاج ومجادلة، فمن العقول ما تحتاج إلى مجادلة وتمحيص. كما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فقد دلت على وسائل الدعوة، وأساليب الإقناع، **وهي**:

الحكمة: وهي الحجة والبرهان، بأن يأتي الإنسان بكلام مستقيم مقنع.

الموعظة الحسنة: وهو أن يستخدم المؤثرات القلبية والوجدانية.

المجادلة بالتي هي أحسن: وذلك إذا لم ينتفع المخاطب بالأسلوبين السابقين، فحينئذٍ ينتقل إلى تدقيق وتحقيق، وتزييف لحجج الخصم؛ ولهذا قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ والمجادلة: مأخوذة من الجدْل والفتْل، وهو يدل على نوع معاناة، ولكن ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ لأن كثيراً من المتجادلين يحملهم الجدل على نوع من الإساءة والتجريح، وخدش شعور المخاطب، فينبغي ألا يخرج الإنسان في حال الجدال عن حد الأدب، وعفة اللسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٣ ـ ذم الظن والهوى، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال النبي ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[٢]، فعلى المسلم أن يعتمد على اليقين، أو على غلبة ظن، أما الظن الذي بمعنى الشك فهذا لا يعول عليه؛ لا في فهم العلم، ولا في معاملة الخلق، فإن كثيراً من الناس يقع في الظلم بسبب سوء الظن؛ يخيل إليه أن فلاناً أمر بكذا، وقصد كذا، فيعامله وفق هذا الذي ألقاه الشيطان في قلبه، ثم يتبيّن له بعد حين أن ذلك من نسج الخيال، وأن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب العجوة برقم (٥٤٤٥)، ومسلم في الأشربة، باب فضل تمر المدينة برقم (٢٠٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع برقم (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس برقم (٢٥٦٣).

صاحبه بريء. وكذلك الهوى، فالهوى: ميل النفس إلى الباطل، قال الله تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فالهوى مضل، فليسأل المسلم ربه كلمة الحق في الغضب والرضا.

٤ ـ أن الله تعالى قد أقام الحجة، وكشف الشبهة، وأتاهم بالبينة، فلا عذر لأحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السَّنَن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، لتركبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم»(١)، رواه الترمذي، وصحَّحه.

الشرح

قوله: (عن أبي واقد الليثي) هو: الحارث بن عوف الليثي، صحابي مشهور، كانت وفاته سنة (٦٨هـ) وقد بلغ من العمر خمساً وثمانين سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين) حنين: موضع المعركة التي خلدها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] وقد قعت هذه المعركة بعد فتح مكة، في السنة الثامنة من الهجرة، حيث اجتمعت هوازن وثقيف وحشدت حشداً عظيماً، لمحاربة رسول الله ﷺ، فخرج إليهم ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم برقم (٢١٨٠) وصححه الألباني.

باثني عشر ألفاً: عشرة آلاف قدموا مع النبي ﷺ من المدينة، وما حولها، وألفان من الطلقاء من أهل مكة، حتى قال قائلهم: «لن نُغلب اليوم من قلة» فأنزل الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، فقد كمنت هوازن لرسول الله ﷺ وأصحابه في وادٍ يقع شرقي مكة، على بعد بضعة عشر ميلاً منها، دون أن يشعر المسلمون، فهجموا عليهم، فانكشف الناس، وثبت رسول الله ﷺ، وليس معه إلا نفر القليل من المهاجرين والأنصار، فجعل النبي ﷺ ينادي: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[(١)]، وقال: «**أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة**»، فقال عباس: وكان رجلاً صيِّتاً، فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها[(٢)]، حتى فاؤوا إلى رسول الله ﷺ، ثم كانت الكرة للمسلمين.

قوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر)؛ أي: أسلمنا عن قرب، ولم نتفقه بعدُ في الدين، وهذه الجملة جملة اعتذارية، قالها أبو واقد معتذراً عما طلبوه من النبي ﷺ.

قوله: (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) السدرة: نوع من الشجر معروف، ومعنى يعكفون: أي: يقيمون ويمكثون عندها تعظيماً لها. وهذا هو محل الشاهد من هذا الحديث للباب؛ لأن فيه ذكر السدرة التي يعكفون عندها.

قوله: (وينوطون بها أسلحتهم)؛ أي: يعلقون بها أسلحتهم، تبركاً بها.

قوله: (يقال لها: ذات أنواط) جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط، وهو المعلَّق، من سيف وغيره من الأسلحة، فلكثرة ما يعلق عليها من السلاح قيل لها: ذات أنواط، وهي لا تعدو أن تكون سدرة نبتت على وجه الأرض، أمثالها كثير، لكن أوحى إليهم الشيطان أن في تعليق أسلحتهم عليها بركة، واستفتاح بالنصر.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر برقم (٢٩٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين برقم (١٧٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين برقم (١٧٧٥).

قوله: (فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط)؛ أي: طلب هؤلاء الحدثاء عهد بكفر، من النبي ﷺ محاكاة المشركين في عباداتهم، وعاداتهم، واعتقاداتهم؛ لأنه لم يتمكن الدين من قلوبهم، أن يضاهوا المشركين بسدرة مماثلة لسدرتهم.

قوله: (فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر!») وفي رواية عند الترمذي: «**سبحان الله**»[1]، كبر النبي ﷺ أو سبّح تعجباً من تسلل الشرك إلى نفوس بعض أصحابه، لكونهم حدثاء عهد بكفر.

قوله: (إنها السنن) السنن: جمع سُنَّة، وهي الطريقة، والعادة المتبعة.

قوله: (قلتم والذي نفسي بيده) هذا قسم النبي ﷺ المؤكد؛ إذ نفسه بيد الله ﷻ؛ لكونه هو الذي يحيها ويميتها ويدبرها

قوله: (كما قالت بنو إسرائيل لموسى) إسرائيل هو: يعقوب ﵇، و(إيل) عند اليهود بمعنى: الله، كما يقال: عبد الله. فيعقوب ﵇ هو الجد الأعلى لأسباط بني إسرائيل، وكان له اثنا عشر ولداً، ومنهم تناسل الأسباط. وموسى ﵇، نبيهم الأكبر.

قوله: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ...﴾ كما أخبر تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

فهذا الطلب من الصحابة يشبه قول بني إسرائيل لموسى، وإن كان هناك فرق بين ما جرى لأصحاب محمد ﷺ، وما جرى لأصحاب موسى، فما جرى من بعض أصحاب محمد ﷺ من باب الشرك الأصغر، وما طلبه بنو إسرائيل من باب الشرك الأكبر، فدل على جواز الاستدلال بالآيات الدالة على الشرك الأكبر على مسائل الشرك الأصغر، وقد تقدم هذا المعنى.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم برقم (٢١٨٠) وصححه الألباني.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة لقوله: «فمررنا بسدرة» فأرادوا التبرك بها، فبيّن لهم النبي ﷺ أن ذلك عين الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ أن التبرك بالأشجار والأحجار ونحوهما، من الشرك، كما هو نص ترجمة الباب.

٢ ـ أن حديث العهد بالشرك لا يؤمن عليه أن تبقى عنده بقية من شرك؛ ولهذا ينبغي التنبيه على مسألة مهمة، وهي أن بعض المسلمين، أحياناً، لفرحهم باعتناق بعض المشاهير، من مفكرين، وساسة، وقساوسة، وإعلاميين للإسلام، يُقدِّمونهم، ويُصدِّرونهم، من باب الاحتفاء بهم، حتى يظن العامة أن هؤلاء صاروا أئمة في الدين، فتُجرى معهم المقابلات، ويخوضون في أمور لا يحسنونها، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، بسبب حداثة عهدهم بالكفر، قبل أن يتفقهوا في الدين، وينشأ عن ذلك خلط، ولغط، وخطأ. والواجب أولاً: تعليمه أمور الدين، حتى إذا امتلأ قلبه بالإيمان، وتفقه في الدين، حينئذٍ يمكن أن يتكلم، وأن يُصدَّر؛ ولهذا أمثلة يطول المقام بذكرها، لكن في الإشارة ما يغني عن العبارة.

٣ ـ أن تعظيم الأشجار والأحجار، والعكوف عندها، سبب لوقوع الشرك؛ فلا يجوز العكوف عند المشاهد؛ وقد قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢]، حتى عند القيام على القبور، لا ينبغي أن يطيل الإنسان إطالة ملفتة، وأما قول عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[1]، فهذا اجتهاد منه، وليس حديثاً مرفوعاً، فلا يصح المكث الطويل عند القبر، لا بعد الدفن، ولا عند الزيارة؛ بل يكتفي الإنسان بالسلام

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج برقم (١٢١).

على عموم أهل المقابر، ولو شاء أن يقصد قبراً بعينه، فلا حرج أن يقوم عليه، ويدعو له، ثم ينصرف، ولا يطيل المكث والعكوف؛ لأن هذا قد يفضي إلى أمر مذموم.

٤ ـ أن مبدأ البدع، والشرك، ربما كان ناتجاً عن حسن نية، فهؤلاء قالوا: «يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط» ولم يقصدوا الشرك، وإنما زُين لهم أن هذا عمل حسن.

٥ ـ أن الشرك يمكن أن يقع في أمة محمد ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: **«الله أكبر، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»**. فقول بعض المبتدعة: أمة محمد بمعزل عن الشرك، قول باطل، فقد أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة سيقع فيها الشرك؛ كقوله: **«ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»**[1]، وشواهد هذا كثيرة.

٦ ـ عَلَم من أعلام النبوة؛ لوقوع الشرك، كما أخبر النبي ﷺ.

٧ ـ النهي عن التشبه باليهود والنصارى والمشركين؛ في عباداتهم، وعاداتهم، وأخلاقهم السيئة.

٨ ـ شدة نصح النبي ﷺ لأمته، وشفقته عليهم.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان إذا تعجب من شيء أن يكبِّر، أو يسبِّح؛ ولا يصفق.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية النجم.

وهي قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩﴾، وقد تقدم بيانها.

---

(١) أخرجه أبو داود في باب ذكر الفتن ودلائلها، باب ذكر الفتن ودلائلها برقم (٤٢٥٢) وصححه الألباني.

الثانية **معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.**

أراد بذلك ما جرى في قصة أبي واقد الليثي، بطلبهم من النبي ﷺ أن يجعل لهم سدرة؛ ليتبركوا بها، فقصدوا البركة، ولم يقصدوا العبادة، ومع هذا أنكر عليهم، وأخبر أنهم شابهوا بني إسرائيل.

الثالثة **كونهم لم يفعلوا.**

أي: أصحاب النبي ﷺ طلبوا ولم يفعلوا، ولم يقع ذلك منهم، فإن النبي ﷺ حال بينهم وبين الوقوع في هذا الشرك الأصغر.

الرابعة **كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك؛ لظنهم أنه يحبه.**

أي: أن الذي حملهم على ذلك ليس إرادة الشرك، أو محادَّة الله ﷻ، وإنما اعتقاد صواب هذا الأمر، ومحبة الله تعالى له، وهذا عين ما يقع من كثير من الجهال، حينما يُحدثون في دين الله، فيفعلون أفعالاً يظنون أنها تقربهم إلى الله، وهي لا تزيدهم من الله إلا بُعداً.

الخامسة **أنهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولى بالجهل.**

أي: إذا كان بعض أصحاب النبي ﷺ جهلوا حكم هذه المسألة، فجهل غيرهم ممن يأتي بعدهم من باب أولى.

السادسة **أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.**

هذا من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتذار للصحابة الكرام، الذين وقع منهم هذا الطلب، ولم يفعلوه، وهو أن لهم من الحسنات الماحية، والسوابق الفاضلة، ما يغمر هذا الخطأ؛ إذ أنهم جاهدوا مع النبي ﷺ، وبذلوا دماءهم وأموالهم، لكن أنَّى لمن وقع منهم ذلك؟! وأنى لهم بحسنات ماحية، تمحو ما يقع منهم من الشرك؟!

السابعة **أن النبي ﷺ لم يعذرهم الأمر؛ بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر! إنها السنن، لتتبعن سَنَن من كان قبلكم» فغلّظ الأمر بهذه الثلاث.**

مراد المصنف رحمه الله بقوله: «**إن النبي ﷺ لم يعذرهم**»؛ أي: لم يقرهم على ما فعلوا، وإنما أنكر عليهم، وأغلظ في النكير، فقال: «**الله أكبر!**»، وفي رواية: «**سبحان الله! إنها السنن؛ لتركبن سنن من كان قبلكم**» فالنبي ﷺ أنكر عليهم بهذه الطرائق: كبَّر أو سبَّح، وأخبر بأن هذا من السنن، وأنهم ركبوا ما ركب غيرهم من أهل الكتاب، ففي هذا عدم إقرار منه على هذا القصد، فضلاً عن العمل.

الثامنة **الأمر الكبير ـ وهو المقصود ـ: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل؛ لما قالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾.**

سمَّاه الشيخ كبيراً لمشابهته لطلب بني إسرائيل، الذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلٰهاً كما للمشركين آلهة، وهذا أمر عظيم مستفظع، حيث قال موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. فالنبي ﷺ نظّر بين مقالة الصحابة، حدثاء العهد بالكفر، ومقالة أصحاب موسى، مع وجود الفارق؛ إذ أن أصحاب محمد ﷺ طلبوا ما فيه شرك أصغر، بينما طلب أصحاب موسى ما فيه شرك أكبر.

التاسعة **أن نفي هذا من معنى: «لا إلٰه إلا الله»، مع دقته وخفائه على أولئك.**

نفي هذا ومنعه هو مقتضى: لا إلٰه إلا الله؛ إذ أن معنى: لا إلٰه إلا الله؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، وتعلق هذا التبرك بالتوحيد أمر قد يخفى؛ لأنه دقيق، فلا يتاح لكل أحد أن يدرك أن التبرك بالشجر والحجر ينافي مقتضى: لا إلٰه إلا الله، إذ لا يربط بعض الناس بين مسألة التبرك بالشجر والحجر، وكلمة التوحيد، لكن النبي ﷺ عد ذلك من مقتضاها وفروعها. ولهذا جعل المصنف هذا الباب وأمثاله شرحاً عملياً لتفسير التوحيد والشهادة.

العاشرة **أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.**

وقد تقدمت هذه المسألة فيما مضى، في قوله: «**فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم**»، وهنا أيضاً، حلف ﷺ على الفتيا، حيث أتى بواو القسم، فقال: «**قلتم والذي نفسي بيده**» فيجوز الحلف على الفتيا من باب التأكيد. أما أن يحلف الإنسان على كل شيء فهذا خطأ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فينبغي للإنسان أن يحفظ يمينه، فلا يبذلها في كل شيء، وإنما لأمر عظيم، وألا يحنث فيها إلا لمصلحة.

الحادية عشرة **أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.**

هذه أيضاً فائدة جليلة، ومسألة مفيدة، وهو أن الشرك منه أصغر، وأكبر، وقد اختلف العلماء في التفريق بين الأصغر والأكبر، فمنهم من جعل الشرك الأصغر ما يكون وسيلة إلى الأكبر، ومنهم من جعل الشرك الأصغر هو ما يتعلق بالألفاظ، وبعض الأفعال التي لا تبلغ حد الأكبر.

الثانية عشرة **قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه: أن غيرهم لا يجهل ذلك.**

أي: أن هذا الذي جرى من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لا يعني أنه جرى منهم جميعاً، وإنما جرى من بعضهم، وهم الطلقاء، الذين أسلموا عام الفتح، وأما أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه من المهاجرين والأنصار، فحاشا وكلا أن يقع منهم ذلك.

الثالثة عشرة **التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.**

أشار المصنف رحمه الله إلى أن هناك من كره التكبير عند التعجب، إلا أن الحديث دليل على مشروعيته عند التعجب، فليكبر الإنسان إذا تعجب من شيء. والإنسان قد يتعجب من شيء استحساناً له، وقد يتعجب من شيء إنكاراً له، وعلى كلا الحالين ينبغي أن يكبِّر، أو أن يسبِّح.

الرابعة عشرة سد الذرائع.

«سد الذرائع»: أصل معتبر في الاستدلال، دلت نصوص الشريعة على اعتباره، والذرائع: الوسائل والطرق المفضية إلى حصول شيء من الأشياء، وهي نوعان: حسنة، وفاسدة. فالذي يُسَد هو الذرائع الفاسدة، وأما الذرائع الحسنة فإنها تُستجلب، فكل ذريعة حسنة، توصل إلى أمر حسن، لا تخالف نصاً، فهي مستحبة، فهذا اللاقط الذي يلقط الصوت ويكبره، وهذه الأجهزة التي تبث الدروس إلى أماكن بعيدة من الذرائع الحسنة التي ينبغي أن تُتخذ، ويُفرح بها، ويُستفاد منها. وثَمَّ ذرائع فاسدة توصل إلى أمر فاسد، فمثلاً: اختلاط الرجال بالنساء، من الذرائع الفاسدة التي تفضي إلى المعاصي، والوقوع في الفاحشة، فكل ذريعة توصل إلى مفسدة، فإنه ينبغي سدها. وعلينا ألا نهوِّن من هذا الباب (باب سد الذرائع) بل ينبغي لنا أن نتحقق من كونه ذريعة أم لا؛ فلا نضيق على الناس في أمر لهم فيه سعة، بدعوى سد الذرائع، والأصل في دين الإسلام: أنه الحنيفية السمحة. كما لا نلغي الذرائع، وندع الباب مفتوحاً على مصراعيه، بدعوى عدم ورود نص معين بخصوص المسألة الموصلة إلى المفسدة.

الخامسة عشرة النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يتبركون بهذه الأشجار، ويخلعون عليها ألقاباً؛ كقولهم: ذات أنواط، لشجرة معروفة، مقصودة، يذهبون إليها، فنحن منهيون عن التشبه بهم بمثل هذا الأمر.

السادسة عشرة الغضب عند التعليم.

هذا الغضب يتناسب مع المقام، فمن المقامات ما يكون مقام تعليم ابتدائي، بمعنى: أن المعلم يبتدئ الطلبة بالتعليم، فهذا لا يتطلب غضباً، ومن التعليم ما يكون رد فعل لأمر طرأ، ثم هذا الأمر الذي طرأ منه ما يستوجب الغضب؛ وذلك لكون الأمر عظيماً، أو سبق تقريره، فإذا وقع فيه من وقع استدعى ذلك غضب المعلم، ومن الأمور ما يكون دون ذلك، فلا يستدعي

الغضب. فينبغي أن يتناسب الغضب مع الحال. وظهور الغضب على المعلم في بعض الأحوال له أثر تربوي في تعظيم الشيء؛ لأنه إذا ظهر عليه التأثر والانفعال، فإنه يقع في قلوب المتعلمين أن هذا الأمر جلل، يستحق التعظيم.

السابعة عشرة **القاعدة الكلية لقوله: «إنها السُّنن».**

القاعدة الكلية هو ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: «**لتتبعن سَنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**»(١)، والمقصود: أن سُنَّة الله تعالى جارية، وعادته في خلقه مطردة، وهو أن هذه الأمة تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة، ولكن وجود هذه السنن لا يسوِّغ إقرار المنكر، وعدم إنكاره. ومن الناس من يتذرع بالقدر والسنن الكونية للتنصل من الواجبات الشرعية، فإذا علم بوقوع شيء من الشرك، قال: هذا أمر طبيعي، قد أخبر به النبي ﷺ أنه سيقع! نعم، هو طبيعي من الناحية القدرية، لكنه ليس طبيعياً من الناحية الشرعية، فيجب إنكار المنكر، وتعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وألا يُحتج بالقدر على تسويغ المعاصي والمنكرات؛ بل الواجب العمل بالشرع، وأما القدر فنكله إلى مقدره سبحانه وبحمده.

الثامنة عشرة **أن هذا عَلَم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.**

أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، فلما وقع ذلك، وحصل هذا الموقف كان عَلَماً من أعلام النبوة أن وقع وفق ما قال، وما أكثر ما أخبر به النبي ﷺ ووقع كما أخبر.

التاسعة عشرة **أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.**

هذه المسألة تحتاج إلى توجيه وبيان؛ فقد يُفهم من هذه الجملة، بادي الرأي، أن كل الذم الذي وقع على اليهود والنصارى فهو ذم لنا، وليس هذا مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن هذه الأمة أكرم الأمم على الله ﷻ؛ وهي خير أمة أخرجت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).

للناس، وهي ثلثا أهل الجنة، كما في الحديث: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»[١]، والمقصود: أن جميع الأفعال التي ذمها الله في حق اليهود والنصارى، فهي مذمومة في حقنا، فيجب أن نتقيها وندعها، لا أن ذلك وصف لنا.

العشرون **أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر؛ أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾... إلى آخره.**

هذه فائدة دقيقة من استنباطات المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي أنه متقرر عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن أمور الدين مبناها على الدليل؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فهذا الطلب منهم يدل على أنهم قد تقرر عندهم أنه لا سبيل لاعتماد عبادة من العبادات إلا عن طريق النبي ﷺ، فهم لم يعمدوا إلى هذه الشجرة، ويعلقوا عليها أسلحتهم، حتى يحصلوا على إذن شرعي، وتأييد نبوي، فهذا يدل على أنه قد استقر في قلوبهم أن التعبد لله لا بد أن يكون عن طريق رسوله ﷺ؛ فصار ذلك دليلاً على مسائل القبر الثلاثة.

فأما قوله: «من ربك؟» فواضح؛ لأن كل عمل لا بد فيه من الإخلاص لله تعالى، وأما «من نبيك؟» فلما فيه من دلائل النبوة، حيث دل هذا الحديث على إخباره ﷺ بأمور مغيبة، فوقعت وفق ما أخبر به، وأما «ما دينك؟» فلكونهم سألوا عما يتعبدون الله تعالى به، وطلبوا أن يقروا على ذلك؛ ولهذا جاء في أسئلة القبر، في بعض الروايات، كما في حديث البراء بن عازب: أنه إذا سأله عن هذه المسائل، قال: «وما علمك بذلك؟» يعني: ما دليلك على هذا الأمر؟ فيقول: «قرأتُ كتاب الله، فآمنتُ به، وصدقتُ»[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ برقم (٤٢٨٩) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر برقم (٤٧٥٣) وصححه الألباني.

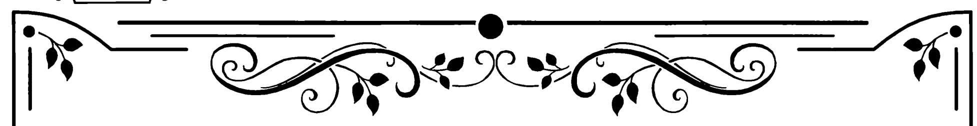
الحادية والعشرون **أن سُنَّة أهل الكتاب مذمومة؛ كسُنَّة المشركين.**

المقصود بسُنَّتهم: طريقتهم التي خرجوا بها عن ملة إبراهيم، مما أحدثوه في دينهم من البدع والمخالفات، فهي مذمومة، كما أن سُنَّة المشركين مذمومة، فلما طلب أصحاب النبي ﷺ الذين هم حدثاء عهد بالكفر، أمراً كان أهل الجاهلية من مشركي العرب يفعلونه، استدل عليه النبي ﷺ بصنيع اليهود من بني إسرائيل، لا بصنيع المشركين، فدل على أن ذم أهل الكتاب كذم المشركين، فيما خالفوا فيه الحق.

الثانية والعشرون **أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه، لا يُؤْمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».**

المنتقل من الباطل إلى الهدى، قد يبقى فيه بقية؛ ولهذا قلنا: لا ينبغي أن يصدر، ولا يقدم، ولا تفسح له الأماكن، لتوجيه الناس، حتى يصفو قلبه، ويفقه في دين الله. وقريب من ذلك ما يفعله بعض الدعاة، حينما يهتدي على أيديهم شخص من الأشخاص، الذين كانوا من أهل الغواية، فيقدمونهم للكلام والبيان، ويدعونهم إلى إلقاء الكلمات، فهذا ليس صواباً، فلا ينبغي أن يتقدم، حتى يتمكن من دين الله، ويحصل له من الفقه والعلم ما يؤهله لذلك، أما أن يدفع به ليقول ما هب ودب، من غير تمييز، فهذا ليس مسلكاً شرعيّاً.





باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيَّر منار الأرض»(١)، رواه مسلم.

الشرح

قوله: (باب: ما جاء في الذبح لغير الله) الذبح: معروف، المراد به ذبح بهيمة الأنعام، ونحوها لغير الله، وذلك أن الذبح: إما أن يكون لله، وإما أن يكون لغير الله. والذبح الذي يكون لله ثلاثة أنواع: إما نسك، وأما أضحية، وإما عقيقة.

فالنوع الأول: الأنساك المتعلقة بالحج والعمرة، فهذه:

ـ إما هدي؛ كهدي التمتع، وهدي القرآن، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهو واجب.

ـ وإما فدية؛ كفدية الأذى، بسبب ارتكاب محظور، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، أو جبراً لترك واجب.

النوع الثاني: الأضاحي: وهو ما يُذبح يوم النحر، وأيام التشريق بعده، تقرباً إلى الله عز وجل، وجمهور العلماء على أن الأضحية سُنَّة مؤكدة. وذهب أبو

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله برقم (١٩٧٨).

حنيفة[١]، وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ[٢] إلى وجوبها على القادر.

النوع الثالث: العقيقة؛ لقول النبي ﷺ: «**كل غلام مرتهن بعقيقته، تذبح عنه يوم السابع**»[٣]، وجمهور العلماء على أن العقيقة في حق الأب سُنَّة مؤكدة، وذهب بعض العلماء إلى وجوبها. فهذه الدماء الثلاثة دماء مشروعة، إما واجبة، وإما مستحبة.

وأما الذبح لغير الله:

١ ـ فقد يكون جائزاً؛ شرط أن يذكر اسم الله عليه، ولا يذكر اسم غيره. كالذبيحة للضيف.

٢ ـ وقد يكون شركاً؛ كالذبح للجن والمشعوذين، أو تعظيماً للكبراء والسلاطين، بحيث يقصد إهراق الدم بين يديه، وقد لا يطعمها، فهذا لم يقصد الإكرام وإنما قصد التعظيم، فلا يحل أكله؛ لأنه شرك، وربما وقع فيه بعض الجهال، فيجب التنبيه عليه، والتحذير منه.

٣ ـ وقد يكون محرماً، مع حل أكله، لسبب؛ كمن ذبح إكراماً لضيفه، وذكر اسم الله عليه، لكنه أسرف.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف أن يُبيّن نوعاً من أنواع الشرك المضاد للتوحيد، وهو الذبح لغير الله، ليكون تفسيراً للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، كما وعد.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الخطاب للنبي ﷺ. والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادعُ لهم، قال الأعشى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَربْتُ مُرْتَحِلاً: يَا ربُّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ وَالوَجَعَا
عَلَيْكِ مِثْلُ الذي صَليتِ فَاغْتَمِضِي نَوْماً فَإِنَّ لِجَنبِ المرءِ مُضْطَجَعَا[٤]

فقوله: «عليك مثل الذي صليت»؛ أي: دعوت.

---

(١) النتف في الفتاوى، للسغدي (١/ ٢٣٩)، وتحفة الفقهاء (٣/ ٨٢).
(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢٠٠).
(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الذبائح، باب العقيقة برقم (٣١٦٥) وصححه الألباني.
(٤) البيتان في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي (١/ ٢٥٨)، ونهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (٢/ ٣٥)، للأعشى ميمون.

وأما في الشرع، فإن الصلاة: عبادة ذات أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾: النسك يحتمل **أحد أمرين**:

١ ـ مطلق العبادة، فالعابد يقال عنه: ناسك.

٢ ـ الذبيحة خاصة، وهو ما اختاره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، ويؤيده أنه عطفه على الصلاة.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ يعني: ما أحيا عليه، وما أموت عليه.

قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾؛ أي: خالصاً لله.

قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ لا أصرفه إلى أحد سواه.

قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ الإشارة إلى الإخلاص؛ أي: وبذلك الإخلاص لله في الصلاة، والنسك، والمحيا، والممات أمرني ربي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١، ١٢].

قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ هذه الأولية تحتمل أن تكون أولية حقيقية (زمنية)، أو أولية معنوية.

ـ فإذا قلنا: إنها أولية زمنية؛ فالمقصود أنه أول المسلمين من أمته؛ لأنه هو الذي أتاهم بالإسلام.

ـ وإذا قلنا: إنها أولية معنوية، فمعنى الكلام: أنني أولى الناس بهذا الأمر. كيف لا؟! وهو سيد ولد آدم، وأعبد الناس لرب العالمين، فيكون فعلاً وحقّاً هو أول المسلمين؛ لأنه أكثرهم تحقيقاً للعبودية لله عَزَّ وَجَلَّ. وكلا التوجيهين صحيح.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لقوله: ﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبحي، فجعل النسك لله رب العالمين.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٢ ـ أن الذبح عبادة، كما أن الصلاة عبادة، فلا يجوز صرف أي منهما

لغير الله تعالى، فكما أن الرجل لو صلى لغير الله لقلنا: أنت مشرك، فإنه إذا ذبح لغير الله فإنا نقول له: أنت مشرك.

٣ ـ أن الصلاة أشرف العبادات البدنية، وهذا بيّن؛ لأن الصلاة عمود الدين، قيل: والذبح أشرف العبادات المالية؛ لأن الله قرن بينهما في موضعين في كتابه. وفي هذا نظر؛ فإن أشرف العبادات المالية الزكاة؛ لأنها أحد أركان الإسلام، وقرنها بالصلاة أكثر.

٤ ـ أن العبادات توقيفية؛ لقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ فلا يتعبد الإنسان لله ﷻ إلا بناء على أمر شرعي، حتى نبيّنا ﷺ لا يتعبد لله ﷻ إلا بما أمره الله تعالى به.

٥ ـ إثبات توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، فأما إثبات توحيد الربوبية فمن قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ لأن الله هو المصرِّف للمَحيا والممات. وأما توحيد الألوهية، فمن قوله: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لأن هذا توحيد لله بأفعال العباد، فهو توحيد الألوهية.

قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ الفاء: للعطف، وهي تعقيبية على ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، ومعنى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ أي: اجعل صلاتك لله وحده لا لغيره.

قوله: ﴿وَانْحَرْ ۝٢﴾؛ أي: وانحر لربك، ولا تنحر لغيره، والنحر يستعمل في حق البُدن، والذبح في حق الغنم، هكذا دلت اللغة، وليس المقصود النحر فقط، وإنما يدخل فيه الذبح، فإن الحكم واحد؛ لأن العلة واحدة، وهي الإخلاص.

❋ مناسبة الآية للباب:

أن الذبح عبادة، كما أن الصلاة عبادة، فهما من بابة واحدة، فلا يجوز صرفهما لغير الله ﷻ، وأنَّ مَن صرفهما لغير الله فقد أشرك.

فوائد الآية:

١ ـ أن الذبح لغير الله شرك أكبر، كما أن الصلاة لغير الله شرك أكبر.

٢ ـ فضل هاتين الشعيرتين، وهما: الصلاة، والذبح.

٣ ـ أن من أعظم شكر الله ﷻ: الصلاة والنحر، فإذا أراد العبد أن يشكر ربه على نعمة أحدثها له، أو نقمة دفعها عنه، فليكثر من الصلاة، والنحر؛ لأنه أمره بذلك بعد أن امتن عليه بالكوثر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: ١، ٢]. وقد امتثل النبي ﷺ ذلك، فإنه كان يقوم يصلي حتى تتفطر قدماه من طول القيام، وقد نحر في حجة الوداع مائة بدنة، نحر ثلاثاً وستين بيده الشريفة، والباقي أوكلها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فامتثل أمر ربه، فصلى ونحر.

* * *

📖 **ثم قال المصنف** رحمه الله:

(عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات) كلمات: جمع كلمة، والكلمة عند النحاة اللفظة المفردة، فمثلاً: (كتاب) كلمة، و(قلم) كلمة، ولكن الكلمة في لغة العرب: هي الجملة المفيدة، فنقول: لا إلٰه إلا الله، كلمة التوحيد، كما قال النبي ﷺ لعمه: «**أي عم، قل: لا إلٰه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»(١)، فسمى هذه الجملة المفيدة كلمة، وهذا الحديث أيضاً يدل على ذلك، فإنه ذكر أربع جمل مفيدة، وسماها أربع كلمات.

قوله: (لعن الله من ذبح لغير الله) كلمة **(لعن)** تحتمل أن تكون دعائية، أو أن تكون خبرية.

فإن قلنا: إنها دعائية، فالمعنى: اللَّهُمَّ العن من ذبح لغيرك. وإن قلنا: إنها خبرية، فهو خبر من النبي ﷺ بأن من ذبح لغير الله فهو ملعون، وعلى كلا الاحتمالين فهي دليل على تحريم هذا العمل. واللعن: هو الطرد، والإبعاد من رحمة الله.

قوله: (لعن الله من ذبح لغير الله) هذا هو الشاهد من الحديث للباب.

قوله: (ولعن الله من لعن والديه) لعن الرجل والديه: إما مباشرة، وإما تسبباً، فالمباشرة: ما يقع من أهل الجفاء والعقوق، بأن يقول لأبيه أو لأمه:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب برقم (٣٨٨٤).

لعنك الله عياذاً بالله، وهذا قد يكون نادراً؛ لأن الفطرة تأباه، إلا من ارتكس في الرذيلة، وانتكست فطرته. والأكثر ما يقع لعن الوالدين تسبباً، كما قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»(١).

قوله: (لعن الله من آوى محدثاً) آوى بمعنى: ضم، وحمى، وحوى. (محدِثاً، أو محدَثاً) بالكسر وبالفتح، وكلاهما صحيح، فإن قلنا: بالكسر (محدِثاً) فالمقصود به الجاني، أو المبتدع؛ كإنسان قتل نفساً ثم استجار بشخص، فآواه وحماه، فقد آوى محدثاً، وحال بينه وبين سيف السلطان. وقد يؤوي مبتدعاً داعياً إلى ضلالة، فيؤويه، ويحول بينه وبين طائلة المساءلة، والعقوبة.

وأما بالفتح «محدَثاً» فالمراد الأمر المُحدَث؛ كأن يحمي بدعة، أو ينشرها، أو يحول دون نقدها وردها، فيكون قد آوى مُحدَثاً؛ أي: أمراً محدَثاً. وكلاهما يستحق اللعن، سواء آوى المحدِث نفسه، أو آوى الأمر المحدَث.

قوله: (لعن الله من غيّر منار الأرض) والمقصود بها المراسيم، جمع مرسام، وهي العلامات التي تفصل بين أرض وأرض، فمن الناس ـ والعياذ بالله ـ من يعدو على هذه المنارات، أو المراسيم خفيةً، وينقلها، ويزيحها، ويوسع أرضه على حساب أرض جاره، فهذا ملعون أيضاً.

فهذه أربع كلمات لعن النبي ﷺ أصحابهن، والحديث رواه مسلم.

⌘ مناسبة الحديث للباب:

في قوله: «**لعن الله من ذبح لغير الله**» وقد ابتدأ بها؛ لأنها أعظمهن؛ لكونها شركاً، وما بعدها لا يبلغ مبلغ الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ أن الذبح لغير الله شرك.

٢ ـ تحريم لعن الوالدين، إما مباشرة، أو تسبباً.

٣ ـ تحريم إعانة أهل البدع والعدوان وتمكينهم؛ لقوله: «**لعن الله من آوى**

---

(١) أخرجه البخاري، في باب لا يسب الرجل والديه برقم (٥٩٧٣).

محدِثاً ـ أو محدَثاً ـ» وهذا يستلزم تحريم الرضا بذلك، فلا يرضى ببدعة، ولا يمكِّن لأصحابها، ولا يأذن بنشرها بين المسلمين.

٤ ـ تحريم تغيير مراسم الأرض.

٥ ـ أن جميع المذكورات من الكبائر، لاقتران اللعن بهن.

٦ ـ جواز لعن بعض الفساق بالوصف، لا بالعين.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيء أقرّب، قالوا له: قرّب ولو ذباباً، فقرّب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنتُ لأقرب لأحد شيئاً دون الله عَزَّوَجَلَّ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[1]، رواه أحمد.

(وعن طارق بن شهاب) طارق بن شهاب، البجلي الأحمسي، وكانت وفاته سنة (٨٣هـ). وقد اختُلف في صحبته، والصحيح: أنه صحابي؛ لأنه رأى النبي ﷺ، ولكن لم يسمع منه، فروايته عن النبي ﷺ عن طريق غيره، ومثل هذا يُسمى: «مرسل صحابي»، ومراسيل الصحابة لها حكم الاتصال؛ لأن الصحابة كلهم عدول ثقات عند أهل السُّنَّة والجماعة، فمرسل الصحابي مقبول، وأما مرسل غير الصحابي، فمن أنواع الضعيف.

قوله: (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) هذه المقدمة تدل على أنه يحسن، من باب التشويق في بيان العلم، أن يقدم الإنسان بما يلفت الانتباه. و(في)؛ أي: بسبب.

قوله: (قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟) وحق لهم أن يسألوا؛ لأن هذا

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد برقم (٨٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٠٣).

أمر عجيب! ووجه العجب: أن الذباب تافه حقير، وشأن النار فظيع عظيم، فكيف يكون الحقير سبباً للعظيم؟!

قوله: (مر رجلان على قوم لهم صنم) تقدم أن الصنم: هو ما صُوِّر على هيئة ذات روح، وأن الوثن أعم من ذلك، فالوثن قد يكون على هيئة بيت، أو قبر، أو شجر.

قوله: (لا يجاوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً)؛ أي: لا يتعداه حتى يذبح له شيئاً.

قوله: (فقالوا لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيء أقرب) اعتذر بأن ليس معه شيء.

قوله: (قالوا: قرّب ولو ذباباً، فقرّب ذباباً) الذي يظهر من السياق، أن هذا الرجل لم يعبأ، ولم يمتنع عليهم؛ بل وافقهم على ما طلبوا، وقرّب ذباباً لصنمهم.

قوله: (فخلوا سبيله، فدخل النار في ذباب) هذا تفسير دخول الرجل النار في ذبابة، لشركه.

قوله: (وقالوا للآخر: قرّب: قال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئاً دون الله ﷻ) هذا موحد حنيف، أبى أن يقرّب ولو ذباباً لصحة توحيده.

قوله: (فضربوا عنقه، فدخل الجنة) بفضل التوحيد.

قوله: (رواه أحمد) هذا الحديث من الأحاديث التي انتقدت على كتاب التوحيد؛ وذلك أن **فيه عللاً:**

الأولى: عدم سماع طارق بن شهاب من النبي ﷺ. ويجاب عن هذا: بأن طارق بن شهاب ثبتت صحبته، فقد رأى النبي ﷺ، وإن كان لم يسمعه، ومراسيل الصحابة لها حكم الاتصال؛ لأن الصحابة عدول ثقات.

الثانية: عنعنة الأعمش، وهو: سليمان بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من أكابر المحدثين، إلا أنه مدلس، والمدلس إذا لم يصرح بالتحديث فحديثه ضعيف؛ وذلك أن التدليس مأخوذ من الدلسة، وهو إظهار الشيء بأحسن مما هو عليه في الواقع: كتسويد شعر الجارية، يسمون ذلك تدليساً، ويثبت به خيار التدليس في الفقه. والتدليس في الحديث: هو أن يظهر السند بأحسن مما هو عليه، فيُشعر

بالاتصال، وهو يحتمل الانقطاع، فيقول الأعمش: عن فلان، وكلمة (عن) تحتمل أنه سمعه منه، وتحتمل أن بينهما واسطة، فإذا كان الراوي مدلساً ثقةً، لم يقبل حتى يصرح بالتحديث.

الثالثة: أن هذا الحديث قد رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً، فيغلب على الظن ـ والله أعلم ـ أن يكون طارق سمعه من سلمان الفارسي، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

مناسبة الحديث للباب:

لما في القصة من الذبح لغير الله، فكان سبباً لدخول النار؛ لأن الذبح لغير الله شرك أكبر.

فوائد الحديث:

١ ـ خطر الشرك وشؤم عاقبته، وإن قلّ؛ لأن العبرة بما يقوم في القلب من تعظيم.

٢ ـ أن الشرك سبب لدخول النار، كما أن التوحيد سبب لدخول الجنة.

٣ ـ أن من الشرك ما يكون خفياً، ومستهاناً به.

٤ ـ التحذير من محقرات الذنوب، كما حذر النبي ﷺ.

٥ ـ أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

٦ ـ أن المسلم إذا فعل شركاً وجبت له النار؛ لأن الرجل كان مسلماً، ولو لم يكن مسلماً لم يكن هناك فائدة من قوله بعد ذلك: «**دخل النار**»، فهذا يدل على أنه ربما وقع في الشرك من كان الأصل فيه الإسلام.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

حيث فسّر النسك بأنه الذبح، فجعله خالصاً لله تعالى، فدل ذلك على أن

النسيكة ـ أي: الذبيحة ـ عبادة لا يجوز أن يشرك فيها مع الله أحد، فمن ذبح لغير الله تعالى فقد أشرك.

الفائدة الثانية **تفسير قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.**

أي: كما إن الصلاة يطلب فيها الإخلاص، فمن صلى لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر، فكذلك النحر، حيث قرنه الله ورسوله بها، فدل على وجوب إخلاص هذه العبادة لله تعالى.

الثالثة **البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.**

فقد بدأ بلعن من ذبح لغير الله؛ لشناعة هذا الفعل، وكونه شركاً، أعظم مما بعده.

الرابعة **لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل، فيلعن والديك.**

وقد تقدم بيان ذلك. ولهذا نهى الله عن سب آلهة الكفار إذا كانت تؤدي إلى سب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

الخامسة **لعن من آوى محدثاً، وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق الله، فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك.**

هذه أيضاً من الملاعن، وهو لعن من آوى محدثاً، والحدث: نوعان: إما بدعة، وإما جناية، كأن يفر بدم، أو نحو ذلك، فمن آواه، وحماه، وأجاره، فهو داخل في لعنة محمد ﷺ.

السادسة **لعن من غيّر منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك من الأرض، وحق جارك، تغييرها بتقديم أو تأخير.**

هذه رابعة الملاعن ـ والعياذ بالله ـ، وتمثل عدواناً ماليّاً حقوقيّاً يقع من بعض أصحاب النفوس الدنيئة، وهو أن ينقل هذه المراسم التي تفرق بين أرض

وأرض، فيوسع بها أرضه، على حساب جاره، فهذا أيضاً ملعون؛ لأنه اقتطع من الأرض ما لا يحق له. وفي «الصحيح»: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

السابعة **الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.**

هذه مسألة مهمة ينبغي التفطن لها: وهو الفرق بين لعن العموم ولعن الخصوص، أو بين اللعن العام ولعن المعيَّن؛ فاللعن بالوصف جائز، وقد جاء كثيراً في الكتاب والسُّنَّة؛ كقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]، وقوله ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢)، فيسعنا أن نقول: لعن الله اليهود والنصارى، وكذلك من لعنه النبي ﷺ بأحد الأوصاف السابقة، فنقول كما قال النبي ﷺ، ونقول على غراره: «**لعن الله آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه**»(٣)، وهكذا.

لكن إيقاع اللعن على معيّن لا يجوز؛ لأننا لا نجزم أن هذا المعين قد توفرت فيه الشروط، وانتفت فيه الموانع، ثم لا نجزم أيضاً أن يحدث توبة في آخر عمره؛ لأن الدعاء باللعن دعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ فلذلك جرى التفريق بين اللعن العام، ولعن المعيّن. ومن الناس من يجري اللعن على لسانه دون توقي. وما كان رسول الله ﷺ لعاناً؛ بل قال: «**لا يكون اللعَّانون شفعاء، ولا شهداء، يوم القيامة**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، برقم (١٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة برقم (٤٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور برقم (٥٣١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا برقم (٢٢٧٧)، وأبو داود في كتاب البيوع، باب في آكل الربا وموكله برقم (٣٣٣٣)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب البيوع، باب ما جاء في أكل الربا برقم (١٢٠٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها برقم (٢٥٩٨).

الثامنة **هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.**

يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى حديث طارق بن شهاب، وقد تقدم بيانه من حيث الدليل والاستدلال.

التاسعة **كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب، الذي لم يقصده؛ بل فعله تخلصاً من شرهم.**

مراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «لم يقصده» أي: لم يقصده ابتداء، من تلقاء نفسه، لا أنه لم يفعله عمداً، ولكن طُلب منه ذلك، فاستجاب، والظاهر: أنه كان مستهيناً غير مبالٍ، ففعل، فمعنى ذلك: أنه حين مقارفته لهذا الأمر كان مريداً، عالماً، عامداً، فلذلك استحق النار.

العاشرة **معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طَلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر؟.**

لقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما كنتُ لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عَزَّ وَجَلَّ»، ولذلك لعظيم إيمانه، فهذا يدل على عظم أمر التوحيد في نفوس المؤمنين، ومن الناس من لا يبالى بمسائل الشرك، ولا ما ينافي أصله، أو ما ينافي كماله الواجب، فلا يعنيه الأمر أصلاً، ولا يرفع به رأساً، ولا يرى بغشيانه بأساً. فمن الناس من يجلُّ ربه ويعظمه؛ كهذا الرجل، ومنهم من لا يقدر الله تعالى حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

الحادية عشرة **أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: «دخل النار في ذباب».**

هذا استنباط جيد ودقيق من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه لو كان كافراً ما احتيج أن يقال: دخل النار في ذبابة؛ ولكان دخل النار بسبب كفره، فالأصل فيه الإسلام، وفي هذا إشارة مقصودة للمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي الرد على مشركي الزمان، الذين

يقولون: نحن أهل الإسلام، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وهم مشركون! فربما كان الأصل في الإنسان الإسلام، ثم بدر منه ما يخرجه عن حده، بالوقوع في الشرك، فلا ينفعه وصفه الأول إذا انسلخ منه، وتخلى عنه، كما وقع لذلك الرجل.

الثانية عشرة **فيه شاهد من الحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»[١].**

لأن هذا الأمر جرى في مقام واحد، وفي زمن واحد، حيال أمر واحد، فهذا أوصله إلى الجنة، وهذا أوصله إلى النار، بأمر يسير سهل، فهذا يدل على قرب كل منهما، وهذا القرب قرب سبب. وهذا كثير، حتى أن الكلمة الواحدة تؤثر تأثيراً بليغاً عظيماً، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**»[٢]، وفي بعض الألفاظ: «**ما يظن أن تبلغ ما بلغت**»[٣]. فينبغي للإنسان أن يتوقى من الأمور التي تبدو له صغيرة، فقد يرضى الله على عبده بسبب كلمة، وقد يسخط عليه بسبب كلمة.

الثالثة عشرة **معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عَبَدة الأصنام.**

استنبط المصنف هذا المعنى العظيم من كون أصحاب ذلك الوثن أقاموا خِفارة على الطريق، بحيث لا يتجاوز أحد صنمهم إلا مقرِّباً، حتى قبلوا أن يقرّب له ولو ذباباً، مع أن الذباب لا طائل من ورائه، ولن ينتفع أحد بقتله،

---

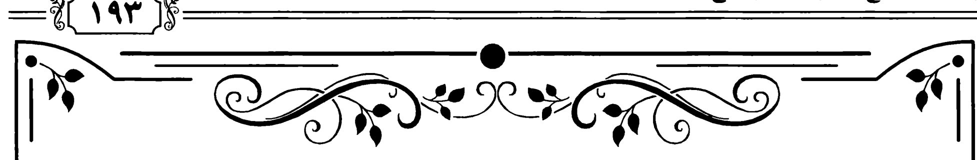
(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك برقم (٦٤٨٨).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان برقم (٦٤٧٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة برقم (٣٩٦٩)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب في قلة الكلام برقم (٢٣١٩) وصححه الألباني.

بخلاف لو قرب شاة، أو بقرة، أو ناقة؛ لانتفعوا بلحمها، لكنهم يدركون أن الأمر يتعلق بالقلب، وأن فعله هذا ينم عن تعظيم، فالأهم عندهم هو حصول ذلك التعظيم، الذي هو عمل القلب، فلا شك أن أعمال القلوب هي أساس أعمال الجوارح، وأن الفقه كل الفقه بالاعتناء بإصلاح القلب، قبل العناية بإصلاح الأعمال.





باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيداً من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء بنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»(١)، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما.

الشرح

قوله: (باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله) «لا» ناهية، لا نافية؛ لأن المقام مقام أحكام، فالمراد النهي عن الذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله. فالحكم ها هنا يتعلق بالموضع، لا بأصل العمل.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب بمنزلة التتمة للباب الذي قبله، فإن المصنف رحمه الله لما عقد باباً في ما جاء في الذبح لغير الله؛ وذلك متعلق بأصل العبادة، أردفه بهذا الباب المتعلق بالوسيلة والذريعة التي تؤدي إلى ذلك.

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الضمير يرجع إلى مسجد الضرار؛ وذلك أن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر برقم (٣٣١٣) وصححه الألباني.

النبي ﷺ أتاه نفر من المنافقين، تظاهروا بالإصلاح والتوفيق، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد ابتنينا مسجداً؛ ليكون للضعيف، وأصحاب العلل في الليلة الشاتية، ونحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، وكان النبي ﷺ على أهبة التوجه لغزوة تبوك، فقال النبي ﷺ: «**إني على جناح سفر، فلو قد رجعنا إن شاء الله ﷻ أتيناكم، فصلينا لكم فيه**»[(١)]، ومضى النبي ﷺ لغزوته، فلما رجع، وكان بينه وبين المدينة ليلة، نزلت الآيات وهي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨][(٢)].

فنبّه الله تعالى نبيّه إلى هذا الأمر، وفضح أولئك المنافقين، وبيّن أنهم بنوا ذلك المسجد لقصد المُضارَّة، لكي يكون مباءة لهم، ومجمعاً يتآمرون فيه على الإسلام وأهله، والتفريق بين المؤمنين، ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا إشارة إلى رجل يقال له: ابن قمئة، كان قد تنصَّر في الجاهلية؛ فلما قدم النبي ﷺ المدينة، أبى قبول الإسلام، والتحق بالمشركين، وصار يراسل المنافقين، ويهيجهم ضد النبي ﷺ، فجعلوا هذا المسجد ـ مسجد الضرار ـ موضعاً يجتمعون فيه، وربما تسلل إليهم فيه ذلك الخبيث. فلما بنوا هذا المسجد لهذه الأغراض الفاسدة، نهى الله تعالى نبيّه عن القيام فيه، حتى لا يضفي عليه صفة شرعية، وليس المراد مجرد القيام الذي بمعنى الوقوف، وإنما القيام للصلاة. فدل ذلك على إن كل مسجد ضرار، لا يجوز الصلاة فيه، إذا قُصد منه المضارة والتفريق بين المؤمنين، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، ونحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

قوله: ﴿أَبَدًا﴾ تأبيد، يدل على أنه حتى لو حُول عن هذا الغرض، فإنه منهي عن القيام فيه.

ومن أعجب العجب أن أحد الإخوة في المدينة النبوية أراني موضعاً في

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (٥/٢٥٩)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/٢٨٦).
(٢) أسباب النزول، ت: زغلول (ص٢٦٤).

بعض جهات المدينة يُسمى «مسجد الضرار»، وهو عبارة عن حجرة ليس له سقيفة، وأخبرني أن بعض المبتدعة، والجهال من زوار المدينة يقصدونه ويصلون فيه، ويسمونه مسجد الضرار! فيا للعجب!

واختلف المفسرون في المسجد الذي أسس على التقوى، من أول يوم:

ـ فمنهم من قال: إنه مسجد قباء؛ لأن النبي ﷺ حين قدم المدينة، نزل في بني عمرو بن عوف، وكانوا في قباء، بنى مسجد قباء، وظل النبي ﷺ يتعاهد هذا المسجد فيما بعد، حتى أنه ربما ذهب إليه ماشياً، أو راكباً، ليصلي فيه، ورغب في الصلاة فيه، فقال: «**من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة**»(١)، فلا شك أنه مسجد شريف؛ ولهذا ذهب بعض الصحابة والتابعين إلى أنه المسجد المقصود في الآية، وممن ذهب إلى ذلك: ابن عباس، وعروة بن الزبير، والشعبي، والحسن(٢).

ـ وقال آخرون: إن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجده ﷺ، وهذا قول عمر رضي الله عنه، وابنه(٣). وقد جاء في «صحيح مسلم» ما يؤيد هذا صريحاً، وهو ما جاء عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: مر بي عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفّاً من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال: «**هو مسجدكم هذا**» لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعتُ أباك هكذا يذكره(٤).

وقوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ المراد بذلك اليوم ـ على القول الذي رجحناه ـ اليوم الذي وصل فيه النبي ﷺ إلى موضع مسجده، وكان مربداً لغلامين من بني

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء برقم (١٤١٢) وصححه الألباني.
(٢) تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٤/ ٢١٤).
(٣) تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٤/٢١٦).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة برقم (١٣٩٨).

النجار، فاشتراه منهما بالثمن، وأقام عليه مسجده، وهو موضع مخصوص، حتى إنه جاء في قصة الهجرة: أن النبي ﷺ حين انطلق من قباء جعلت أحياء الأنصار يتلقونه ويقولون: يا رسول هنا المنزل، هنا المنعة والعشيرة ﷺ، وكلهم يعرض نفسه، فكان النبي ﷺ يقول: «**دعوها، فإنها مأمورة**»[(١)]؛ أي: الناقة، مسيَّرة من عند الله ﷻ، حتى بلغت موضع مسجده، فبركت، فلم ينزل عنها النبي ﷺ، ثم قامت، حتى مشت، فبركت، ثم رجعت إلى موضعها الأول، فألقت جِرانها، وتحلحلت، فقال النبي ﷺ: «**ها هنا المنزل ـ إن شاء الله ـ**»[(٢)]. فهو منزل بوَّأه الله إياه، كما بوَّأ لإبراهيم مكان البيت، فلهذا كانت الصلاة فيه تعدل ألف صلاة فيما سواه من المساجد، وقد أسس على التقوى من أول يوم، فهو أحق أن يقوم فيه.

وقال الله تعالى مثنياً على أهله، وهم الأنصار المحيطين به، من بيوتات، وعشائر مختلفة، من الأوس والخزرج، ومنهم أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ والمراد بالطهارة هنا: الطهارة المعنوية والحسية؛ فالطهارة المعنوية المقصود بها الطهارة من الشرك، والبدعة، والذنوب، والكبائر. وأما الطهارة الحسية فالمقصود بها الطهارة من الحدث، والخبث. وكلا الطهارتين كانتا مجتمعتين في الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ. ومن حمل الآية على أهل قباء روى في ذلك حديثاً: أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «**إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أحسن عليكم الثناء في الطهور، في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟**» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا[(٣)]؛ أي: فعلوا ذلك، ولا شك أن الماء طهور ومطهر.

❋ مناسبة الآية للباب:

لطيفة المأخذ؛ لأن الله نهى نبيّه عن الصلاة في «مسجد الضرار»، لمخالفته

---

(١) المعجم الأوسط برقم (٣٥٤٤)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٥٠١).

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٣/ ٢٧٣)، والرحيق المختوم (ص١٦٦).

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٥٤٨٥) وقال محققو المسند: «حديث حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف صحيح»، وابن خزيمة برقم (٨٣).

مقاصد الصلاة، من التوحيد والإخلاص، فكذلك الذبح لله في مكان يذبح فيه لغيره. وهذا يدل على عمق فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فوائد الآية:

١ ـ منع الذبح لله في موضع يذبح فيه لغير الله، قياساً على منع الصلاة في مسجد الضرار.

٢ ـ مشروعية الصلاة في المساجد جماعة، والدليل على ذلك قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾. والأدلة متكاثرة على مشروعية الصلاة جماعةً في المسجد، ولكن لفظ المشروعية يحتمل الاستحباب والوجوب، فنقول زيادة على ذلك: إن الصلاة جماعة واجبة، والصلاة في المسجد، إلا لمعذور، واجبة، والدليل على وجوبها في المسجد قول النبي ﷺ: «**ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**»[1]. ولا يمكن أن يعزر النبي ﷺ هذا التعزير البالغ في أمر غير واجب؛ لأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وفي هذا رد على المتساهلين في الفتيا بعدم وجوب الصلاة جماعة في المسجد. فالصلاة جماعة واجبة، وكونها في المسجد واجبة، إلا لمن كان معذوراً، فينبغي لطالب العلم الفقيه أن يشيع هذا ويؤكده، وأن يمسِّك الناس بالكتاب، وألا يسوغ لهم التساهل بما يخالف النصوص الواضحة البينة.

٣ ـ إثبات صفة المحبة لله تَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾، فالله تعالى يحب محبة تليق به، ليست كمحبة المخلوق، فمحبة المخلوق تعتريها رقة، وعاطفة، وضعف، وأما محبة الله عَزَّ وَجَلَّ فهي محبة تليق به، وهي محبة حقيقية، لكنها مضافة إليه، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، وفي هذا رد على المتكلمين الذين ينكرون هذه الصفة وأمثالها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب إخراج أهل المعاصي والخصوم من البيوت بعد المعرفة برقم (٢٤٢٠)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها برقم (٦٥١) واللفظ له.

٤ ـ فضل إسباغ الوضوء؛ لقوله: ﴿يَتَطَهَّرُوا﴾ بالتضعيف، والزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

٥ ـ تأثير النية في العمل؛ فهذا المسجد الذي بني بقصد المضارة بات ممنوعاً؛ لأن الذين بنوه أرادوا به أمر سوء، وهو التفريق بين المؤمنين، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، إلى غير ذلك، فهذا يدل على أن النية تؤثر في البقاع والأعمال.

٦ ـ مشروعية سد كل ذريعة مفضية إلى الشرك.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(عن ثابت بن الضحاك) هو: ثابت بن الضحاك بن خليفة بن ثعلبة الأشهلي الخزرجي، صحابي من بني عبد الأشهل، وقد كانت وفاته سنة (٦٤هـ).

قوله: (نذر رجل) هكذا ذكر الرجل مبهماً، لم يبين من هو؟ ولا يضر الجهل به. والنذر: هو إلزام المرء نفسه أمراً غير واجب عليه. وقد اختلف العلماء في حكم النذر: فقال بعضهم: هو حرام، وقال بعضهم: هو مكروه، وسيأتي باب مستقل في النذر.

قوله: (أن ينحر إبلاً) النحر في حق الإبل، نسبة لموضعه في الرقبة، والذبح في حق الغنم.

قوله: (ببُوانة) بضم الباء، ويصح فتحها، وهو موضع قيل: إنه أسفل مكة، وقيل: إنه هضبة من وراء ينبع، يبعد خمسةً وثلاثين كيلومتر عن ينبع، وقد تتغير أسماء المواضع مع تقادم الزمن.

قوله: (هل كان فيها وثناً من أوثان الجاهلية؟) قد تقدم تعريف الوثن، وأنه كل ما عُبد من دون الله، وأن الصنم: ما جُعل على هيئة إنسان أو حيوان؛ فالوثن أعم من الصنم.

قوله: (قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟») العيد: اسم لما يعود، والعيد ما اجتمع فيه **عدة أوصاف**:

الأول: التكرار والعود؛ ولهذا سمي عيداً.

الثاني: الاجتماع، فلا عيد إلا باجتماع.

الثالث: الاحتفال بأعمال مصاحبة؛ من عبادة أو فرح.

فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الثلاثة، فذلك عيد؛ ولا عيد في الإسلام إلا الأضحى، والفطر. وما اتخذ من أعياد جمعت هذه الأوصاف فإنها أعياد بدعية، لا يجوز الاحتفال بها. وقد عوض الله المسلمين عن أعياد الجاهلية بعيدين: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وجعل لهم عيداً أسبوعياً، وهو الجمعة.

قوله: (أوف بنذرك) أمره أن يوفي بنذره، بنحر تلك الإبل في ذلك الموضع، فإن قال قائل: إذا كان النذر يدور بين التحريم والكراهة، فكيف أمره النبي ﷺ أن يفي بنذره على كلا الاحتمالين؟ فالجواب: هناك فرق بين إنشاء النذر وبين الوفاء به بعد عقده، فيقال: لا يُلزم الإنسان نفسه بشيء له فيه سعة، ولا يضيق على نفسه واسعاً، فإذا أراد من ربه شيئاً، فليرفع يديه ويسأله، فإنه كريم، يداه مبسوطتان، سحَّاء الليل والنهار. لكن إذا عَقد النذر، سواء كان نذر طاعة، أو نذراً مباحاً، فإنه يلزمه الوفاء به. والاستدامة أقوى من الابتداء.

قوله: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله) النذر الذي فيه معصية لا وفاء فيه، وقد دلت هذه الجملة على أن الذبح في الموضع الذي كان يذبح فيه لغير الله معصية.

قوله: (ولا فيما لا يملك ابن آدم) لأن النذر تصرف، والتصرف فرع عن التملك.

فهناك نذران لا وفاء فيهما:

الأول: «لا وفاء لنذر في معصية الله» كأن يقول قائل: لله عليه نذر إن نجح في الاختبار، أن يشرب خمراً، فلا يفي بنذره؛ لأنه معصية. وهل عليه كفارة أم لا؟ اختلف العلماء:

ـ فذهب الإمام أحمد، وأبو حنيفة[1] إلى وجوب الكفارة؛ لحديث: **«لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين»**[2]، فقالوا: لا يفي بنذره، لكن عليه كفارة يمين.

---

(١) ينظر: النتف في الفتاوى، للسُّغدي (١/ ١٩٥)، والمغني، لابن قدامة (٩/ ٥١٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب النذر في المعصية برقم (٢١٢٥)، وأبو داود =

- وذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن نذر المعصية لم ينعقد أصلاً، وما دام لم ينعقد فلا كفارة فيه(١).

الثاني: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**» كأن يقول مثلاً: لله عليه نذر إن حصل كذا وكذا أن أوقف بيت فلان! فلا يفي بنذره؛ لأنه لا يملك ما نذر به.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**»، فدل على أن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله، نذر معصية، لا يجوز الوفاء به لما تقدم.

* * *

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وقد تقدم بيانه. ووجه الاستشهاد قياس الذبح على الصلاة.

الثانية: **أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.**

اتخاذ المنافقين مسجداً ضراراً، أثر في بقعته، فصارت الصلاة فيها محرمة أبداً. كما أن اتخاذ المؤمنين البقعة مسجداً يفضلها، ويخلع عليها أحكاماً شرعية، والعلماء يقولون: إن الصلاة في المسجد العتيق أفضل من الصلاة في المسجد الجديد؛ لأنه عُبد الله فيه أكثر.

الثالثة: **رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.**

وذلك من قياس المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة الذبح على مسألة الصلاة، فإن مسألة

= في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية برقم (٣٢٩٠)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ أن لا نذر في معصية برقم (١٥٢٤) وصححه الألباني.

(١) ينظر: المجموع شرح المهذب (٨/ ٤٥٧).

الصلاة بينة جدّاً، فقاس عليها المسألة المشكلة، وهي مسألة الذبح؛ لكي يحصل البيان.

الرابعة **استفسار المفتي إذا احتاج إلى ذلك.**

هذه مسألة مهمة لطلبة العلم، وهي استفسار المفتي من المستفتي؛ لأن من المسائل ما يحتاج إلى استفصال وبيان، والسائل في الغالب لا يدرك تبعات سؤاله، فقد يسأل سؤالاً مجملاً، فعلى المفتي النبيه أن يستفصل. واستنبط المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الفائدة من سؤال النبي ﷺ عن ذلك الموضع: «هل كان فيها وثن يعبد؟ وهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» لأن هذا الأمر محتمل، والناس حديثو عهد بجاهلية وشرك.

الخامسة **أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.**

لأن النبي ﷺ أقر الرجل لما انتفى المحظور، أن يفي بنذره بالذبح في ذلك الموضع وهو (بوانة) فربما خصَّصه لأنه موضع اجتماع لقبيلته أو أهله، أو لأي سبب من الأسباب، فلا حرج أن ينذر إنسان أن يذبح ذبيحة في قرية معينة، مع انتفاء المحذور الشرعي.

السادسة **المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.**

لقول النبي ﷺ: «**هل كان فيها وثن؟**» لأن الذبح فيه ولو بعد زواله قد يحييه، ويبعثه في النفوس، ويُذكّر الناس بما كان عليه هذا الموضع في الماضي، فيثير فيهم نعرة الشرك.

السابعة **المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله.**

ولهذا ينبغي الحذر من إحياء آثار الجاهلية باسم التراث وغيره؛ لأن هذا بعثٌ لأمور الجاهلية، وتذكيرٌ بها، وتعليقٌ للقلوب والنفوس بما طواه الإسلام وطمسه.

الثامنة **أنه لا يجوز الوفاء لمن نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية.**

لأن النبي ﷺ لم يرخص له، إلا لما انتفى المحذور، فهذا هو المنطوق، فدل المفهوم على أنه لو كان خلاف ذلك لما رخص له؛ بل سيمنعه من ذلك.

التاسعة **الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.**

هذا يُؤخذ من قوله: «**هل كان فيه عيد من أعيادهم؟**» فدل على أن أهل الإسلام لهم شارة وميزة خاصة، لا يصلح أن يكونوا ذيلاً لغيرهم، ولا رجع الصدى لهم؛ بل ينبغي أن يتميزوا بما ميزهم الله تعالى به، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فلا يكونوا مجرد انعكاس لليهود والنصارى والذين لا يعلمون؛ بل يعتزوا بدينهم وقيمهم وأخلاقهم وعباداتهم وعاداتهم الكريمة، ولا يتلقفوا عادات المشركين وأحوالهم.

ونبَّه المصنف على مسألة مهمة، تلتبس على كثير من الناس، وهي أنه ليس من شرط تحريم التشبه القصد. فالتشبه عمل محرم لذاته، ولو لم يقصد فاعله التشبه.

العاشرة **لا نذر في معصية.**

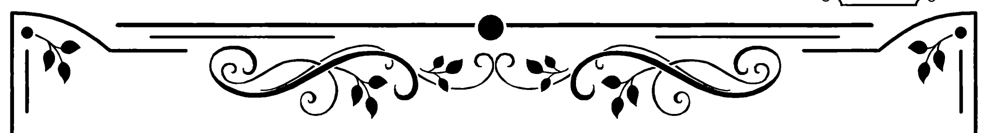
هكذا عبّر المصنف في هذه المسألة العاشرة فقال: «لا نذر في معصية»، لكن لفظ النبي ﷺ: «**لا وفاء في نذر**» وبينهما فرق، فإذا قيل: لا نذر في معصية، فالمعنى: أن النذر لا ينعقد، وإذا قيل: لا وفاء؛ فالمعنى: أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى به، وقد وردت السُّنَّة بهذا وبهذا، لكن: «لا نذر» يحمل على أن المراد لا وفاء لنذر؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية برقم (٦٧٠٠).

الحادية عشرة **لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.**

وما لا يملكه الإنسان: قد لا يملكه قدراً، وقد لا يملكه شرعاً؛ فالذي لا يملكه شرعاً هو التصرف في مال غيره، وما لا يملكه قدراً، كما لو قال مثلاً: لله عليه نذر إن حصل كذا أن يطير في الهواء، وليس في طوقه، فلا نذر فيما لا يملكه ابن آدم.





باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي «الصحيح»: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»(١).

الشرح

📖 قال المصنف رحمه الله:

(باب: من الشرك النذر لغير الله) المراد بالشرك هنا: الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله تعالى؛ وذلك إن النذر عبادة، ومن صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى، فقد وقع في الشرك.

وقوله في الترجمة: **(من الشرك)** (من) تبعيضية؛ أي: من بعض أنواع الشرك وصوره. و(النذر): إلزام الإنسان نفسه شيئاً غير واجب عليه، سواء كان من الطاعات، أو من الأمور المباحات.

والنذر أنواع متعددة: فمنه (نذر طاعة، ونذر معصية، ونذر لجاج وغضب، ونذر مباح):

ـ **نذر الطاعة:** كأن يقول: لله عليّ نذر أن أحج بيت الله، أو أن أزور مسجد رسول الله ﷺ.

ـ **نذر المعصية:** كأن يقول: لله عليه نذر أن يقطع رحمه، أو يشرب خمراً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية برقم (٦٧٠٠).

- **نذر المباح**: كأن يقول: لله عليه نذر أن يمشي مسافة كذا وكذا.

- **نذر اللجاج والغضب**: وهو الذي يصدر من الإنسان حال المنازعة والمشادة، فيقول: عليّ نذر كذا إن كان الأمر كذا، ولا يقصد بذلك حقيقة النذر، وإنما يريد تأكيد كلامه، أو نفي كلام غيره، أو إلزام غيره، أو نحو هذا.

- **النذر المطلق**: بأن يقول: عليّ نذر، ولا يُسمي شيئاً.

- فأما نذر الطاعة، فإنه يجب الوفاء به؛ لما سيأتينا من حديث عائشة رضي الله عنها: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»(١).

- وأما نذر المعصية فيحرم الوفاء به؛ لقوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»(٢)، بصرف النظر عن لزوم الكفارة، من عدمها.

- وأما نذر اللجاج والغضب، فيخير فيه بين فعل ما نذر، إن كان مباحاً، أو مشروعاً، أو يكفر كفارة يمين.

- وأما النذر المطلق الذي لم يُسم، فتجب فيه كفارة يمين. فهذه هي أنواع النذور، وأحكامها.

أما النذر من حيث أصله، فقد قدمنا: أن أقل أحواله الكراهة، وقال بعض العلماء بالتحريم، وإلى هذا يميل شيخ الإسلام ابن تيمية(٣)؛ وذلك أن النذر تضييق واسع، والله تعالى تعبَّدنا وأمرنا بشرائع، فلا وجه أن نلزم أنفسنا بما لم يلزمنا الله تعالى به. فما أمرنا به على سبيل الإلزام، فهو واجب، أو على سبيل الاستحباب فهو مندوب، فلا يضيق الإنسان على نفسه واسعاً، ويلزم نفسه بما لم يلزمه الله به.

والدليل على كراهة النذر قول النبي ﷺ: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**»(٤)، وصدق ﷺ فإنا رأينا الناس ينذرون، ثم يَشْقَوْن في نذورهم، فتجد أحدهم ينذر نذراً لأمر عرض له، أو حلَّ به، فإذا حقق الله له مراده، ضاق

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة برقم (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة برقم (٦٦٩٦).

(٣) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/ ٢١٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر برقم (٦٦٠٨)، ومسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً برقم (١٦٣٩).

به ذرعاً، وطفق يبحث عن مخرج من تبعات هذا النذر، ويبحث عن من يفتيه بالتحلل منه، مع أنه كان في عافية. تجد أحدهم يقول: لله عليّ أن أذبح ناقة، ثم يبحث عن مفتٍ يفتيه بكفارة يمين، أو يفتيه بأكلها ومن يعول. وهكذا يستخرج به من البخيل.

كما أن في النذر نوع سوء ظن بالله؛ كأنّ هذا الذي نذر يظن أن الله تعالى لا يجيب دعوته إلا بمقابل، وأنه لا يستجيب الدعوات، ولا يقضي الحاجات إلا إذا بذل شيئاً، مع أن ربنا ـ سبحانه وبحمده ـ واسع العطاء، كما قال ﷺ: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده**»[1]، فكيف يقايض العبد ربه ويقول: إن حصل لي كذا، فعلت كذا وكذا.

فإن قال قائل: أليس الله تعالى قد امتدح الموفين بالنذر، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ فيقال: بلى، قد امتدحهم، وهم أهل لمدحه، والجواب عن هذا الإيراد من **وجهين**:

الأول: أن النذر في الآية مطلق الطاعة؛ وليس النذر بالتعريف الفقهي عند الفقهاء: إلزام المكلف نفسه عبادة غير واجبة، فقد يراد بالنذر الأمر الواجب بأصل الشرع؛ كما قال ربنا ﷻ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٩] يعني: الحجاج إذا أفاضوا من المزدلفة، ورموا جمرة العقبة، تحللوا من إحرامهم، وأزالوا عنهم التفث؛ أي: الأذى. فالمراد بـ ﴿نُذُورَهُمۡ﴾: ما لزمهم من المناسك.

الثاني: أن يقال: إن الله امتدحهم على وفائهم بالنذر، الذي التزموا به، لا على إنشائهم للنذر، وفرق بين الابتداء وبين الوفاء، فابتداء النذر مكروه، وربما كان محرماً، كما قد قيل، لكن الوفاء به إذا انعقد واجب، ومن أتى واجباً فإنه يحمد على فعله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧] برقم (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف برقم (٩٩٣).

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان النذر عبادة، كان صرفه لغير الله شرك. ومن الناس من ينذر للقبور، والمشاهد، والملائكة، والأنبياء، والصالحين، والجن، وغيرهم، فهذا تقرب لغير الله ﷻ، فهو شرك أكبر؛ لأن النذر عبادة، فلا يكون إلا لله.

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ دلت هذه الآية الكريمة على أن النذر عبادة؛ لأنها جاءت في سياق الثناء على الأبرار. ولما كان عبادة حرُم صرفه لغير الله. وليت المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أضاف إليها قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] لأن اللام في قوله: ﴿وَلْيُوفُواْ﴾ لام الأمر، فدل ذلك على أن هذا مأمور به، فهو عبادة.

❋ مناسبة الآية للباب:

مطابِقة للترجمة، لما فيها من الدلالة على أن النذر عبادة، فصرفه لغير الله شرك.

فوائد الآية:

١ ـ أن النذر عبادة، فصرفه لغيره شرك.

٢ ـ فضيلة الوفاء بالنذر بالمعنى العام، الذي هو مطلق الطاعات، أو بالمعنى الخاص.

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ (ما): شرطية، وفعل الشرط: ﴿أَنفَقْتُم﴾، وجوابه وجزاؤه جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ ويصح أن تكون (ما) موصولة، بمعنى: (الذي) يعني: والذي أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمه؛ لكن كونها شرطية أليق.

قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ يدل على الاستغراق؛ أي: أيّاً كانت تلك النفقة، كثيرة أو قليلة، صالحة، أو غير صالحة، مقبولة أو غير مقبولة؛ لأن الإنسان قد ينفق نفقات على غير الوجه الصحيح، فأخبر الله تعالى أنه مطَّلع وعالم. و﴿نَّفَقَةٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتدل على العموم.

قوله: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ هذا موضع الشاهد. و﴿نَّذْرٍ﴾ جاء نكرة في

سياق الشرط، فيتناول كل نذر؛ كبير أو صغير، لطاعة أو معصية..

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ هذا جواب الشرط، وهو ليس خبراً مجرداً؛ بل يدل على أن الله يجازي عليه، ففيه معنى الوعد والوعيد، فلا شك أن الله تعالى يعلم كل شيء، لكنه يفيد تضمناً: أن الله يعلمه ويجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

⁂ مناسبة الآية للباب:

مطابقة للترجمة؛ كسابقتها.

فوائد الآية:

١ ـ إثبات النذر، وأنه عبادة لله ﷻ.

٢ ـ إثبات عِلْم الله تعالى المحيط بكل شيء.

٣ ـ إثبات الجزاء، فما من عمل يعمله الإنسان من قول أو فعل، إلا وهو مسطور، مزبور، مكتوب، يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]. ومثل هذه الآيات توجب للمؤمن تقوىً واحتياطاً لنفسه، وتنبهاً إلى ما خلّفه وراء ظهره، فيتحلل من حقوق العباد، ويتوب إلى رب العباد، حتى يوافى ربه ﷻ خفيف الظهر.

٤ ـ فضل الوفاء بالنذر؛ لقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(وفي الصحيح)؛ أي: «صحيح البخاري» **(عن عائشة** رضي الله عنها**)** هي: أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق، أفقه نساء الصحابة على الإطلاق، قال عنها النبي ﷺ: «**فضل عائشة على النساء؛ كفضل الثريد على سائر الطعام**»(١)، والثريد كما عرّفه الشاعر:

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ =

إِذَا مَـا الـخـبـزُ تَـأدمُـهُ بِـلَـحْـمٍ فَـذاكَ أَمَـانَـةُ الـلَّـهِ الـثَّـرِيـدُ[1].

خبز معه لحم؛ وذلك أفضل الطعام؛ لأنه ضم البر واللحم. ولكن العلماء اختلفوا في المفاضلة بينها وبين خديجة رضي الله عنها، فمنهم: من قدمها، ومنهم: من قدم خديجة، وهما أفضل أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ، والله حسيب من نال منها من المنافقين القدامى والمحدثين. فإن عائشة رضي الله عنها قد طالها من أذى المنافقين قديماً: أن رموها بالإفك، فأنزل الله براءتها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، ومن منافقي هذا الزمان من الروافض وأشكالهم، من يطعنون في عرضها إلى يومنا هذا، وقد توعدهم الله عز وجل بالعذاب الأليم. وقد روت عن النبي ﷺ أحاديث عدة، وعُمِّرت رضي الله عنها حتى سنة (٥٧هـ) وهذا من حفظ الله تعالى لدينه، حيث قيَّض تعالى لنبيِّه ﷺ هذه الفتاة الذكية النبيهة، التي حفظت عن رسول الله ﷺ خاصة أمره في بيته، فيما لا يطلع عليه إلا أهله، فضبطته ضبطاً تاماً، وحدثت به، وأمدَّ الله تعالى في عمرها، حتى تلقّى عنها العلم الصحابة والتابعون.

قوله: (من نذر أن يطيع الله) جملة شرطية، (من) اسم شرط، و(نذر) فعل الشرط.

قوله: (فليطعه) جواب الشرط، فدلت هذه الجملة على وجوب الوفاء بنذر الطاعة، فمن نذر نذر طاعة لزمه أن يفي به، ولا يخرج منه بكفارة، فلا يُضيِّق الإنسان على نفسه واسعاً، وليتطوع لله عز وجل طواعية، من تلقاء نفسه، ويمتثل ما أمره الله تعالى به أمر وجوب أو استحباب، دون أن يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به؛ كأن ينذر أن يصوم كل اثنين وخميس، حين يجد في نفسه نشاطاً وقوة، فإذا ما تقدم به العمر، وضعُف، ندم.

قوله: (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) فلا يجوز الوفاء بنذر المعصية. أما النذر الذي وقع على وجه شركي، فهذا لا ينعقد أصلاً، فثمّ فرق بين نذر المعصية، والنذر الشركي:

= ﴿ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١، ١٢] برقم (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم (٢٤٣١).

(١) البيت في الفتح على أبي الفتح (ص٥٨) بلا نسبة لقائل.

فنذر المعصية القول الراجح: أنه منعقد، كما ذهب إلى ذلك الإمام أحمد(١)، وأبو حنيفة(٢)؛ وتلزم فيه الكفارة. وذهب الشافعي إلى عدم انعقاده، وأنه لا كفارة فيه(٣).

وأما نذر الشرك: لقبر، أو لجن، أو ميت، أو لملك، فهذا لم ينعقد أصلاً؛ لأنه ليس عبادة في أصله؛ بل هو شرك مناف للتوحيد. كما إن اليمين إذا كانت يميناً صحيحة؛ كمن حلف بالله، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته على أمر مستقبل، وعقد ذلك في قلبه، فهي منعقدة، ومن حلف بغير الله، لم تنعقد يمينه، فكذلك من نذر لغير الله، فإن نذره لا ينعقد.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة؛ لأن الحديث دل أن النذر عبادة، فإذا صُرفت العبادة لغير الله تعالى كان شركاً، فدخل تحت هذا الباب.

فوائد الحديث:

١ ـ أن النذر عبادة، فصرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

٢ ـ وجوب الوفاء بنذر الطاعة.

٣ ـ تحريم الوفاء بنذر المعصية.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى وجوب الوفاء بالنذر.

وهذا بيّن من قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ومن قول النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

---

(١) المغني، لابن قدامة (٩/ ٥١٧).

(٢) النتف في الفتاوى، للسغدي (١/ ١٩٥).

(٣) المجموع شرح المهذب (٨/ ٤٥٧).

الثانية **إذا ثبت كونه عبادة لله، فصرفه إلى غيره شرك.**

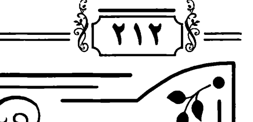
قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

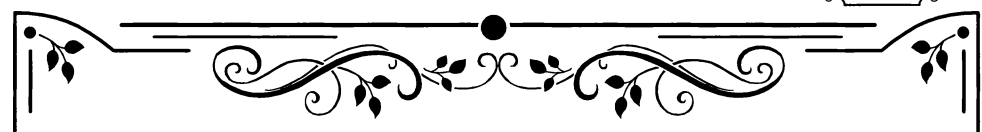
(إذا ثبت) ليس مراده التردد في ذلك، وإنما مراده: ما دام قد ثبت أنه عبادة، فإن صرفه لغير الله شرك، فلا شك في ثبوت كونه عبادة.

الثالثة **أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.**

لقوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»؛ لأنه لا يُتقرب لله بمعصيته.







باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات، من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرحل من منزله ذلك»(١)، رواه مسلم.

الشرح

قول المصنف رحمه الله:

(باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله) هذه الترجمة ليست على إطلاقها، وإنما أراد المصنف رحمه الله نوعاً من أنواع الاستعاذة، وهي الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا هو الذي يكون من الشرك. وأما الاستعاذة بغير الله فيما يقدر عليه ذلك الغير، فليس شركاً، بدليل قول النبي ﷺ: «**يعوذ عائذٌ بالبيت**»(٢)، في أحاديث الفتن.

فالاستعاذة بغير الله فيما أقدره الله عليه جائزة، وليست شركاً، كما أن الاستغاثة بغير الله فيما يقدر عليه غيره جائزة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

والاستعاذة: طلب العوذ. **والعوذ**: هو الالتجاء والاعتصام. وحقيقة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره برقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت برقم (٢٨٨٢).

الاستعاذة: الهرب من شيء مخوف إلى من يؤمنه منه؛ كأن يرى الإنسان مثلاً سبعاً، فيهرب منه، ويدخل بيتاً يتقي به، أو يطارده عدو، فيلجأ إلى قسم الشرطة، ونحوه، قال الشاعر مفرِّقاً بين العياذ واللياذ:

يا مَنْ ألُوذُ بِهِ فيمَا أُؤمِّلُهُ وَمَنْ أعُوذُ بِهِ مِمّا أُحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النّاسُ عَظْماً أنْتَ كاسِرُهُ وَلا يَهِيضُونَ عَظْماً أنْتَ جابِرُهُ[(١)]

وهذا لا ينبغي إلا لله ﷻ، ولا يجوز أن يقال في حق مخلوق، وإن كان قائله ربما قاله في حق مخلوق، لكنه لا يصح إلا لله. فقوله: «يا من ألوذ به فيما أؤمله» دل هذا على أن اللياذ يكون في الأمور المطلوبة المحبوبة. و«ومن أعوذ به مما أحاذره» دل على أن العياذ يكون من الأمور المخوفة المرهوبة.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت الاستعاذة عبادة، كان صرفها لغير الله شركاً منافياً للتوحيد، فنبه المصنف على وجوب إفراد الله بالاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا هو.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾؛ هذه الآية جاءت في سياق خبر الجن الذين لقوا النبي ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢]، فهؤلاء قوم مؤمنون من الجن لقوا النبي ﷺ، واستمعوا إلى القرآن، وفرحوا به، ثم صاروا يخبرون بحالهم، فأوحى الله إلى نبيِّه بما قالوا. ولهذا ينبغي للإنسان أن يميز ما يقال بشأن الجن بين الحق والباطل، والظن واليقين، فإن الناس ما زالوا يخوضون في أمر الجن، فيزيدون وينقصون، ويحكون الأساطير والخرافات، والظن لا يغني من الحق شيئاً، فالحق هو ما ذكره الله تعالى في كتابه، أو ذكره نبيّه ﷺ في سُنَّته، وفيهما غنية وكفاية، أما ما يتداوله الناس، ويتحدثون به في مجالسهم وأسمارهم، فلا تصدق ولا تكذب.

فمن قرأ سورة الجن تبيّن له أن الجن خَلْقٌ من خلْق الله، يعتريهم ما يعتري

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص٩٣).

الآدميين، وأنهم عباد مُعبّدون لله تعالى؛ منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، منهم المسلمون، ومنهم القاسطون، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا رشداً، إلى آخر ما ذكروا.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بفتح الهمزة؛ لأنها مؤولة بمصدر. وكلمة (رجال) خرجت مخرج الأغلب، وإلا ربما وقع هذا الأمر من النساء أيضاً.

قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أفاد ذلك أن في الجن رجال ونساء، فيهم ذكور وإناث، وهذا هو الحق؛ ولهذا قيل في تفسير قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**»[١]: أن الخبُث: ذكور الشياطين، والخبائث إناثهم[٢]، ولهذا يتناسلون ويتكاثرون.

قوله: ﴿يَعُوذُونَ﴾؛ أي: يعوذون بهم عياذة شركية، وقد جاء ذلك مفسراً في الآثار، وهو أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا نزل في سفره في وادٍ، نادى: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه»[٣]، سيد الوادي من الجن؛ لأنهم يخشون أن تصيبهم الجن بأذى، إما بقذف، أو قتل، أو نحو ذلك، فيعلنون الدخول في جوارهم، ويطلبون منه العوذ.

قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ الرهق: العنت، والمشقة. وللآية توجيهان:

● **الأول:** ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾؛ أي: زاد الإنسُ الجنَّ رهقاً، فيكون معنى (رهقاً) أي: طغياناً وتكبراً؛ أي: لما وجد الجن أن الإنس يعوذون بهم صار عندهم نوع من الزهو، والغرور، والطغيان الذي يستطيلون به على الإنس؛ لأن الإنسان إذا استضعف لغيره استطال عليه.

● **الثاني:** ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ عنتاً، وأذىً، ومشقة؛ فاستذلوهم واستضعفوهم. ولا مانع من اجتماع المعنيين، وصحة التفسيرين. فالواقع: أن عياذ الإنس بالجن أدى إلى نتيجتين متلازمتين:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء برقم (٣٧٥).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٦)، وشرح البخاري، للسفيري (٢/ ٣١٠).
(٣) تفسير السمعاني (٢/ ١٤٤)، والوجيز، للواحدي (ص١١٤٠)، وتفسير البغوي (٢/ ١٥٩)، وتفسير القرطبي (١٩/ ١٠)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٩).

- زيادة تجبر الجن واستطالتهم على الإنس وطغيانهم.
- زيادة عنت الإنس وضعفهم، وخورهم أمام الجن، فاجتمع المحظوران.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، فإن الله تعالى أنكر على لسان مؤمني الجن ما فعله مشركو الإنس من العياذ بالجن.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ الاستعاذة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ؛ لأن سياق الآية سياق استنكار من مؤمني الجن على مشركي الإنس.
٢ ـ أن في الجن رجال ونساء.
٣ ـ أن من استعاذ بغير الله وكله الله إليه؛ فأورثه عنتاً ورهقاً.
٤ ـ أن رسالة النبي ﷺ للإنس والجن؛ وقد دعا النبي ﷺ الجن، فآمن به بعضهم.
٥ ـ مشروعية الاستعاذة بالله؛ لأن الإنسان قد يعتريه من الأمور الباطنة، أو يلحقه من الشرور الظاهرة، ما لا يمكن أن يعيذه إلا الله الواحد القهار، فشرع له أن يستعيذ بربه، ويناجيه في كل ما يلم به، فإن الإنسان ضعيف بطبعه، ويعتريه القلق والتوجس.

وقد شرع الله تعالى لنا المعوذتين؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وختم بهما كتابه العزيز. فسورة الفلق فيها الاستعاذة من الشرور الخارجية، وسورة الناس فيها الاستعاذة من الشرور الداخلية. والعجب: أن المستعاذ به في سورة الفلق اسم واحد، من أسماء الله الحسنى، وهو (الرب)، والمستعاذ منه أربعة شرور: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٢ ـ ٥]، وأما في سورة الناس؛ فالمستعاذ به ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى: (الرب) و(الملك) و(الإله)، والمستعاذ منه شر واحد، وهو الوسواس، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٤ ـ ٦]! مما يدل على خطر الوسواس، وعظيم أثره في النفس،

فلذلك احتيج إلى أن يُستعاذ بهذه الأسماء الشريفة الثلاثة. وقد كتب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة قيمة في تفسير المعوذتين(١)، مفيدة في بابها.

* * *

📖 **ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

(وعن خولة بنت حكيم) هي: صحابية سُلَمية، زوجة عثمان بن مظعون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، صاحب رسول الله ﷺ، وهي من فُضليات نساء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ.

قوله:: **(من نزل منزلاً)** منزلاً: نكرة في سياق في الشرط، تدل على العموم؛ أي: سواء كان نزوله نزولاً دائماً، أو نزولاً طارئاً، فيدخل في مفهوم المنزل: أن ينزل الإنسان بيتاً ليتخذه سكناً دائماً، أو ينزل في مكان مؤقت على سبيل الاستئجار، أو ينزل في نزهة، أو في طريق سفر، فكل ذلك يُسمى منزل.

قوله: (أعوذ)؛ أي: ألتجئ وأعتصم.

قوله: (بكلمات الله التامات) كلمات الله: أي: كلامه، وربنا سبحانه وبحمده من صفاته الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع: صفة الكلام، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر: منها هذا الدليل. ومعنى: «التامات»؛ أي: الكاملات، وصفة تمامهن كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها، وعصمةً لها من التبديل.

قوله: (من شر ما خلق) هذا يتناول جميع الشرور، من جميع المخلوقات.

قوله: (لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك) جواب الشرط وجزاؤه. وهذا خبر نبوي يجب الإيمان به، فلا يمكن أن يتعرض لأذى إذا أتى بهذه الاستعاذة على الوجه الصحيح، مقرونةً بالإخلاص لله تعالى، أما إذا قام مانع من

---

(١) رسالة (تفسير المعوذتين)، للعلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ مأخوذة من كتابه (بدائع الفوائد) وفيها بيان معاني المعوذتين، وما ورد فيهما من الأحاديث، والكلام على الحسد، والعين، والسحر، والفرق بين كل منها، وذكر الأسباب العشرة لدفع شر الحاسد، وأجناس شر الشيطان المحيط بابن آدم، كما ذكر قاعدة نافعة: فيما يعتصم به العبد من الشيطان.

الموانع، فإنه قد لا يتحقق أثرها؛ لأن تحقق كل شيء لا بد فيه من توفر الشروط، وانتفاء الموانع، ولهذا نظائره كثيرة.

وأضربُ لذلك مثلاً: قال النبي ﷺ عن الفاتحة: «**وما يدريك أنها رُقية؟**»[(١)]، ومع ذلك يسترقي بعض الناس أو يرقي نفسه بالفاتحة، ولا يحصل له الأثر، وسبب تخلف الأثر: نقص في فعله؛ كأن يكون استرقى، أو رقى نفسه بها على وجه لم يصاحبه الإخلاص لله ﷻ، فضعفت تلك الرقية عن مقاومة المرض.

مثال آخر: وهو قول النبي ﷺ: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله، قال: باسم الله، اللَّهُمَّ جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره شيطان أبداً**»[(٢)]، ويوجد من الناس من يقول هذا الدعاء قبل أن يأتي أهله، ويبتلى بغلام شقي، بسبب تخلف شرط، قيام مانع، فلا بد أن يحقق الإنسان الشروط، وأن يحاذر الموانع.

قوله: (لم يضره شيء) (شيء) نكرة في سياق النفي، تدل على العموم، فلا يضره لا حيوان، ولا إنسان، ولا جماد، ولا شيء من الأشياء. ويُذكر أن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «جربتُ ذلك، فوجدتُه صدقاً، تركته ليلة فلدغتني عقرب، فتفكرت فإذا أنا نسيت هذا التعوذ»[(٣)]، سبحان الله! كان من عادته ألا يدعه، فلما نسيه أصابه قدر الله ﷻ. فينبغي لنا أن نعوِّد أنفسنا، وأهلينا، وأبناءنا، وإخواننا على هذا، فإذا نزل الإنسان منزلاً في منتزه، أو برية، فأول ما يبدأ به إذا وضع قدمه في ذلك الموضع أن يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» فما أسهلهن من كلمات! وما أعظم أثرهن!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب برقم (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار برقم (٢٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع برقم (١٤١)، ومسلم في كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع برقم (١٤٣٤) واللفظ لمسلم.

(٣) نقله عنه في شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٥٤٠).

✽ مناسبة الحديث للباب:

دل على أن الاستعاذة عبادة، فصرفها لغير الله شرك.

فاستعاذ النبي ﷺ بعزة الله؛ لأنها صفته، وبقدرته؛ لأنها صفته أيضاً، فيستعيذ العبد بالله، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته.

فوائد الحديث:

١ ـ مشروعية الاستعاذة بهذا الدعاء.

٢ ـ مشروعية الاستعاذة بصفات الله، بخلاف الدعاء، فإنه لا يدعى إلا بأسمائه، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا يجوز أن يقول: يا رحمة الله! يا قدرة الله، لما في ذلك من إيهام عدم قيام الصفة بالموصوف، واستقلال الصفات عن الذات. أما الاستعاذة فليس فيها هذا المحذور، ولهذا تكررت في الأحاديث كقول النبي ﷺ لعثمان بن العاص لما شكى له أنه أصابه وجع منذ أن أسلم: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»(١)، قال: ففعلت، فأذهب الله عني ذلك. وكدعائه ﷺ في سجوده: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢).

٣ ـ أن كلام الله منزل غير مخلوق، وهذا من أدلة أهل السُّنَّة والجماعة على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان كلام الله مخلوقاً ـ كما تزعم المعتزلة ـ لم يجز الاستعاذة بمخلوق.

٤ ـ إحاطة علم الله ﷻ، وتدبيره لجميع الكائنات، فنواصي العباد والمخلوقات بيده سبحانه وبحمده.

✽ ✽ ✽

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء برقم (٢٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم (٤٨٦).

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية الجن.

وقد تقدم بيانه.

الثانية كونه من الشرك.

لأن هذا الخبر من مؤمني الجن، جاء في سياق الاستنكار على مشركي العرب، وأقره الله.

الثالثة الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

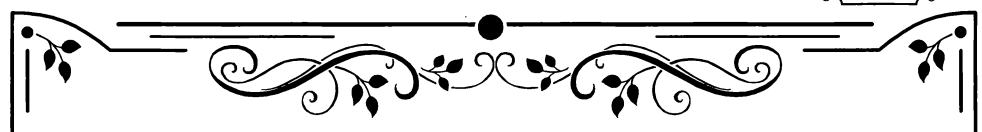
استدل العلماء بحديث خولة بنت حكيم على أن القرآن غير مخلوق، قالوا: لأنه لا يجوز أن يُستعاذ بالمخلوق. والقرآن من كلمات الله فهو غير مخلوق.

الرابعة فضيلة هذا الدعاء، مع اختصاره.

فهو دعاء مختصر وجيز؛ ومع ذلك فإن أثره ونتيجته وعاقبته حميدة وعظيمة.

الخامسة أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر، أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

استنبط المصنف هذا من كون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، يقول أحدهم: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه» فربما كفَّ عنه سفهاء قومه، لكن هذا لا يبيح الاستعاذة بغير الله، فليس وجود النفع دليلاً على صحة العمل، فالخمر والميسر والربا يحصل بها منافع، وهن من الكبائر، فيقال هذا لمن سوغ له نفسه غشيان بعض المحرمات بدعوى حصول النفع فيها: المرجع النص، والحكم الشرعي، وليس الاستحسان والمصلحة.



باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

الشرح

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره**) هذه الترجمة مركبة من قضيتين كلاهما من صور الشرك: أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره.

والاستغاثة: طلب الغوث، كما أن الاستعاذة: طلب العوذ، والاستعانة: طلب العون. **والدعاء**: هو مطلق الطلب، فالدعاء أعم من الاستغاثة، فيشمل الاستغاثة، والاستعانة، وسائر أنواع المطالب. والفرق بينه وبين خصوص الاستغاثة أن الاستغاثة لا تكون إلا مع كرب، فإنما يستغيث المكروب، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] فتلك استغاثة.

فعطف الدعاء على الاستغاثة في الترجمة، من باب عطف العام على الخاص. وهناك عطف الخاص على العام؛ كقولك: جاء الطلبة ومحمد، وإذا قلت: جاء محمد والطلبة، فهذا من عطف العام على الخاص؛ لأن محمداً أحدهم.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله من الشرك المنافي للتوحيد، فبيان ذلك من تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، كما وعد المصنف.

وهذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب؛ لتعلقه بمسألة عظيمة، هي لب التوحيد: ألا وهي الدعاء، فإن الدعاء كما جاء في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[(١)]؛ فالدعاء عنوان العبودية، وهو حقيقة التوحيد؛ ولهذا قال ربنا ـ سبحانه وبحمده ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة؛ بل هو لب العبادة، وفي الحديث أيضاً: «**الدعاء مخ العبادة**»[(٢)]، لكن هذا الحديث فيه مقال، والأحاديث والآيات في هذا كثيرة.

ودعاء الله تعالى نوعان:

الأول: دعاء العبادة: وهو مناجاة الله ﷻ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، والثناء بها عليه، كأن يقول القائل: «اللَّهُمَّ لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت فاطر السماوات والأرض ومن فيهن، اللَّهُمَّ لك الحمد أنت الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» فيتملق ربه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، ويثني عليه بما هو أهله، وإن لم يطلب شيئاً، وإنما تعبد الله بذكره، وبما يليق به من صفات الكمال، ونعوت الجلال، مما علمنا إياه، وعلمنا نبيّه ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء برقم (٣٨٢٨)، وأبو داود في باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء برقم (١٤٧٩)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة برقم (٢٩٦٩) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الدعوات برقم (٣٣٧١) وضعفه الألباني.

الثاني: دعاء المسألة: وهو الغالب عند الناس، وهو أن يسأل العبد حاجة من ربه من جلب مصلحة، أو دفع مضرة، فيقول: اللَّهُمَّ ارزقني، وعافني، واشفني، وانصرني، واجبرني، ونحو ذلك، واللائق بهذا النوع من الدعاء: أن ينتخب الداعي الاسم المناسب لمسألته فيدعو به، فيقول: يا رزاق ارزقني، ويا جبار اجبرني، وهكذا، فيأتي بالاسم المناسب، للطلب.

والعلاقة بين النوعين (دعاء العبادة، ودعاء المسألة): أن دعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، فمن أقر لله بالعبادة، فلازم ذلك أن يفرده بالمسألة؛ قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩]؛ لأنه لما وحّد الله بالعبادة وحّده بالدعاء: أن يهب له، فوهب له إسحاق ويعقوب، ودعاء المسألة متضمنٌ لدعاء العبادة؛ لأنه لو لم يكن معتقداً بأن الله هو القادر على إجابة الدعوات، وكشف الكربات، لما دعاه.

والدعاء عبادة عظيمة، كما جاء في الحديث: «**ليس شيئاً أكرم على الله من الدعاء**»[(١)]، وفي الحديث أيضاً: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٢)]، وقد قال الناظم في ذلك:

اللَّـهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ   وَبُنَيُّ آدَمَ حِيْنَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[(٣)]

فالآدمي إذا طلبت منه شيئاً مرة ومرتين، تبرَّم، وتضايق، وقال: أزعجتنا، وأقلقتنا، وأما الرب ـ سبحانه وبحمده ـ فإنه إذا لم يدعه العبد غضب عليه، كما في الحديث السابق.

وليعلم: أن أي دعوة لا ترد، فقد جاء في الحديث: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم،**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ط. الرسالة برقم (٨٧٤٨) وقال محققو المسند: «إسناده قابل للتحسين من أجل عمران ـ وهو ابن داور القطان ـ، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح».
(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الدعوات برقم (٣٣٧٣) وحسنه الألباني.
(٣) البيت مما نشده الأصمعي في الدر الفريد وبيت القصيد (٢/ ٤٣).

أو قطيعة رحم» فقال رجل من القوم: إذاً نُكثر، قال: «**الله أكثر**»[١]، فلا يدع الدعاء استبطاءً للإجابة. وقد جاء في الحديث: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**»[٢]، وما أكثر ما تسمع من يقول: لي سبع سنين وأنا أدعو الله ﷻ، ولم تحصل الإجابة، فينبغي أن يعلم أن الله ﷻ سميع الدعاء، لكنه قد يُؤخر الإجابة لحكمة، ولمصلحة الداعي، فليحسن الظن بربه.

والصلاة، وأوراد الصباح والمساء والنوم، متضمنة لأدعية حسنة جميلة، ، لكن ينبغي للعبد المؤمن أن يخصص في يومه أوقاتاً يُقبل على الله ﷻ بكليته، ويدعوه، ويعود نفسه على أن يكون الدعاء وظيفةً يومية له؛ فإن الخير عادة. وكم من دعوة كتب الله بها للعبد سعادة الدارين. وعلى العبد أيضاً أن يتحرى مواطن الإجابة، فإن لإجابة الدعاء أسباباً، بعضها زمانية، وبعضها مكانية، وبعضها تتعلق بالهيئات:

فمن مواطن إجابة الدعاء الزمانية: ثلث الليل الآخر، فقد جاء في الحديث: «**ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني، فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[٣]، فأين نحن من هذه العروض المغرية؟ لو وُضع للناس تخفيضات على بعض السلع والبضائع، لرأيتهم يذهبون زرافات ووحداناً؛ لينالوا لعاعة من الدنيا، ولو آخر الليل! وربنا كل ليلة يقول: «**من يدعوني، فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له**».

ومن ذلك أيضاً: ساعة الجمعة، كما جاء في الحديث: «**فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئاً، إلا أعطاه إياه**»[٤]، وقد

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك برقم (٣٥٧٣) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل برقم (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل... برقم (٢٧٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل برقم (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل برقم (٧٥٨).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة برقم (٩٣٥)، =

قيل: إنها من دخول الخطيب يوم الجمعة إلى انقضاء الصلاة، وهذا أرجح القولين. وقيل: إنها آخر ساعة بعد العصر، ومن جمع بينهما فقد أصاب خيراً ـ إن شاء الله. ومن المواطن التي يستحب فيها الدعاء: أن يكون الإنسان في بيت الله الحرام، قريباً من الكعبة المشرفة.

ومن الأحوال الشريفة التي ترجى فيها الإجابة: حال السجود، فإنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد؛ ولذا قال نبيُّنا ﷺ: «**فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب ﷻ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»(١)، ومعنى قَمِن: حري.

وينبغي للداعي أن يتأدب بما أمره الله تعالى به، قال ربنا ﷻ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]؛ فمن أتقن فن الدعاء، واطّرح بين يدي مولاه، وخضع له، وشعر بعبوديته له سبحانه، فإن الله ﷻ قريب منه، يجيب دعاءه، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولذا قال عمر رضي الله عنه: «إني لا أحمل هَمَّ الإجابة، ولكن أحمل هَمَّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء، علمت أن الإجابة معه»(٢).

وقد ساق المصنف رحمه الله في هذا الباب من الأدلة البينات ما يقطع ويمحق دابر المشركين، الذين يدعون غير الله تعالى. فأجلى صور الشرك وأبينها: دعاء غير الله، وهو الذي وقع فيه عامة بني آدم، فإذا طلبوا شيئاً نادوا ملكاً، أو جنياً، أو ميتاً، أو غائباً، أو غير ذلك، وانصرفوا عن الله ﷻ، وهم بذلك يصرفون أشرف أنواع العبادة لغير الله.

قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب موجه للنبي ﷺ وهو نهي له وللأمة من بعده.

= ومسلم في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة برقم (٨٥٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود برقم (٤٧٩).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٠٣).

قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ في هذا إشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يدعو غير الله في جلب منفعة، أو دفع مضرة؛ لأن الإنسان إنما يدعو إما لتحصيل مطلوب، أو لدفع مرهوب، فلأجل هذا نصَّ الله ﷻ على هاتين القضيتين. وقد تضمن ذلك نفي التعلق بغير الله تعالى؛ لأن المدعو إذا كان لا يملك النفع والضر، فلا قيمة لدعائه، ولا فائدة فيه، ولا معول عليه، فما لا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن تركته، فوجوده وعدمه سواء، فليس من الشرع ولا من العقل دعاء غير الله ﷻ.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ من باب ضرب الاحتمالات، وإلا فحاشا نبيّنا ﷺ أن يقع منه ذلك.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: الظلم الأكبر. فهذه الآية العظيمة تنبيه للنبي ﷺ، ولمن بعده من أمته، وللناس جميعاً إلى وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء، وأن من دعا غير الله ﷻ في جلب منفعة، أو دفع مضرة، فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لتضمنها النهي عن دعاء غير الله؛ أو الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ وذلك من الشرك الأكبر.

فوائد الآية:

١ ـ أن دعاء غير الله شرك أكبر.

٢ ـ سلب القدرة على النفع والضر، عن كل مدعوٍّ سوى الله ﷻ.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (إن): شرطية، فينبغي أن تكون النكرة في سياقها دالة على العموم، فقوله: ﴿بِضُرٍّ﴾؛ يعني: أي: ضر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، وما أعظم وقع هذه الآية على نفوس المبتلين! فمن ابتلي بضراء، ثم قرعت سمعه وحَّد الوجهة، فتوجه إلى الله وحده، وعلم أن كل أحد سوى الله، لا يملك أن يكشف عنه الضر.

قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ إذا قضى لك الخير، أيّاً كان،

فلا يمكن لأحد كائناً من كان أن يحول بينك وبينه، ولو اجتمع من بأقطارها، كما قال نبيُّنا ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام، وجَفَّت الصحف**»[1]. فهاتان الجملتان وردتا في سورتين: في سورة الأنعام؛ بلفظ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، وفي سورة يونس، باللفظ المتقدم، وتمامها: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ فدلت الآية على وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء؛ لأن الحامل على الدعاء: إما وقوع ضر يدعو الإنسان برفعه، أو طلب خير يسعى بجلبه، فهذا لا يطلب إلا من الله عز وجل وحده.

مناسبة الآية للباب:

لما كان لا يكشف الضر إلا الله، ولا يجلب الخير إلا الله، لزم أن يكون هو المدعو وحده، لا شريك له، فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع، فصرف الدعاء لغيره شرك أكبر.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء.

٢ ـ بطلان دعاء غير الله، وأنه أعجز من أن يحقق المطلوب.

٣ ـ إثبات المشيئة والإرادة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ وإرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وهي المشيئة، وإرادة شرعية، وهي المحبة؛ فالإرادة أعم من المشيئة. فالإرادة الكونية: لا بد من وقوعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، والإرادة الشرعية: قد تقع وقد لا تقع، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ومع ذلك فإن من الناس من يقع في العسر ويدع اليسر، مع أن الله أراد بهم اليسر.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٨)، والترمذي برقم (٢٥١٦).

٤ - إثبات اسمين من أسماء الله تعالى: الغفور، والرحيم، متضمنين لصفتين كريمتين: المغفرة، وهي الستر والتجاوز، والرحمة. وهما صفتان حقيقيتان لائقتان به تعالى.

قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾؛ أي: اطلبوا عند الله الرزق، وقدم الظرف ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لكي يدل على اختصاص الله تعالى به؛ وذلك أن الله ﷻ هو الرزاق وحده، لا رازق سواه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] والرزق حاجة بشرية، يسعى إليها الناس جميعاً، فاحتاج الأمر إلى تنبيههم إلى مصدره، وهو الله تعالى، وليس فلان الذي يسوق الرزق، أو يقطع الرزق، كما يعبر بعض الناس، فيقول: فلان قطع رزقي! إنما الرزق بيد الله، فيبتغى عنده.

قوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ هذا من عطف العام على الخاص؛ لأن ابتغاء الرزق يعني: طلبه من الله، ودعائه بحصوله. والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الظاهرة والباطنة[(١)]، فمعنى: فاعبدوه، أي: أخلصوا له في العبادة.

قوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾؛ أي: كونوا معترفين بنعمته، مثنين بها عليه؛ فإن كثيراً من الناس يغفل عن الشكر؛ لهذا قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال مثنياً على نبي من أنبيائه، وهو نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣] وما أكثر من يحقق عبادة الصبر؛ فيبتلى، فيصبر، ويحتسب، لكن ما أقل من يحقق عبادة الشكر، فإذا كانت الأمور طبيعية، والرزق واسع، والصحة بادية، غفل كثير من الناس عن شكر المنعم، وإذا تغير الحال، أقبلوا على الله بكليتهم، ودعوا الله مخلصين، فلهذا كان الشكر عبادة جليلة.

وقد ألف ابن القيم رحمه الله كتاباً، أسماه: «عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين» تضمن المفاضلة بين الفقير الصابر، والغني الشاكر، وخلص رحمه الله إلى أن المفاضلة بينهما ليست مطلقة، بأن يقال: الصابر أفضل من الشاكر، أو الشاكر أفضل من الصابر، وإنما يختلف ذلك باختلاف الأحوال. ولكن في الأعم

(١) العبودية (ص٤٤).

الأغلب: عبادة الشكر قليلة في الناس، كما تقدم. والشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما قال الناظم:

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاء مِنِي ثَلَاثَة يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِير المحَجَّبا[1]

فيشكر العبد ربه بقلبه: بالاعتراف والإقرار لله بالنعمة، والاغتباط بها، فهذه وظيفة القلب. ثم وظيفة اللسان: بالثناء بها على الله، فيتكلم في مجالسه بذلك، ويلهج لسانه بالثناء بالنعمة على مسديها. وبجوارحه: فيسخِّر هذه الجوارح في مراضيه. وبهذا تتحقق عبادة الشكر. وحينما نقول: تتحقق، لا نعني: أنها تُستوفى، فإنه لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمة الله ﷻ، وقد قال القائل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ عَليَّ لَهُ فِي مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِعَوْنِهِ وَإِنْ طالَتِ الأيامُ واتَّصَلَ الدَّهْرُ؟![2]

أي: لو أن إنساناً اشتغل بشكر نعم الله تعالى، لكان توفيقه لشكر النعمة نعمة جديدة، تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكر هذه النعمة الجديدة، كان هذا نعمة أيضاً تحتاج إلى شكر، فأنى له أن يبلغ شكر المنعم، ولو طالت الأيام، واتصل العمر.

قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إليه مآلكم يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

مناسبة الآية للباب:

لما فيها من التنبيه على إفراد الله بالدعاء بحصول الرزق، دون من سواه.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء.

---

(١) البيت بلا نسبة في نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: قمحية (٣/ ٢٣٣)، والمستطرف في كل فن مستظرف (ص٢٤٤)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٦/ ٢٧٤).

(٢) البيتان في شرح ديوان المتنبي، للعكبري (٣/ ٢٤٦)، والصناعتين: الكتابة والشعر (ص٢٣٢)، لمحمود الوراق.

٢ ـ وجوب إفراد الله بطلب الرزق، فلا يقال: يا فلان ارزقني، ولا يعارض ذلك أن يعمل، أو يكون أجيراً عند فلان، لكن يكون طلبه القلبي للرزق من الله تعالى.

٣ ـ وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة؛ لقوله: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾.

٤ ـ وجوب شكر الله؛ لقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

٥ ـ إثبات البعث من قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾.

ونلحظ أن الله تعالى يكثر من التذكير باليوم الآخر عقب الأوامر والنواهي؛ لأن هذا من أعظم البواعث للاستجابة والامتثال، فإن العبد إذا ذكر أن من ورائه يوماً آخر، يجازى على إحسانه، ويعاقب على إساءته، حفزه ذلك إلى الطاعة، وزجره عن المعصية.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾.

قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾؛ أي: لا أحد أضل، فهذا استفهام جوابه (لا) فيكون استفهاماً للنفي، ومعنى الضلال: وهو التيه والضياع.

قوله: ﴿مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سوى الله من الأصنام، والشجر، والحجر.

قوله: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كأن ينصب وجهه إلى حجر، أو شجر، أو قبر، ويدعوه! فلو ظل يدعوه إلى يوم القيامة، لم يستجب له، ولم يحقق طلبه. فهؤلاء في ضلال مبين؛ لأنهم يدعون من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ مرجع الضمير في قوله: ﴿وَهُمۡ﴾ إلى المدعوين؛ أي: فضلاً عن عدم الاستجابة، فهم غافلون عنهم، لا يسمعون دعاءهم. سواء كان المدعو من الشجر والحجر، أو كان من الأموات المقبورين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر: ٢٢]. وهذا التصوير

فيه تنفير بالغ من هذه الحال؛ إذ كيف يليق بآدمي عاقل، وإنسان كامل، أن يخاطب من لا يستجيب له؟! فلو أن أحداً قام إلى أحد هذه الأعمدة، وأخذ يخاطبه، ويتحدث معه؛ لكان مضحكة، إذ كيف يخاطب جماداً؟! فكذلك هؤلاء الذين يسألون الأصنام والأموات تحقيق دعواتهم، لا يختلفون عن هذا بشيء، فهم أهل للمسبة والسخرية.

قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يوم القيامة، والحشر لغة: الجمع.

قوله: ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: كان أولئك المدعوُّون، وتلك الآلهة المزعومة، أعداء لهؤلاء الداعين، لا يحفظون لهم هذا الصنيع في الدنيا، وإنما يتبرؤون منهم، ويلعن بعضهم بعضاً.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾؛ أي: رافضين لعبادتهم، ومتنصِّلين من عُبَّادهم، كما قال الله ﷻ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وهذا قيل لمن كان يعبد الملائكة، فغيرهم من باب أولى.

مناسبة الآيتين للباب:

ظاهرة، لما فيهما من تسفيه من يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، وشدة ضلاله.

فوائد الآيتين:

١ ـ أن الدعاء عبادة؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلا يجوز صرفه لغير الله ﷻ، فمن صرفه لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك الأكبر.

٢ ـ بيان شدة ضلال المشركين؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؛ أي: لا أحد أضل.

٣ ـ أن الشرك بالله أعظم الضلال.

٤ ـ إثبات البعث؛ من قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾.

٥ ـ أن هذه الأوثان والأصنام لا تسمع، ولا تستجيب، ففيه الرد على المشركين بمختلف أصنافهم، وعلى القبوريين الذين يأتون إلى أصحاب القبور،

يزعمون فيهم الصلاح، ويدعونهم من دون الله تعالى، قائلين: يا سيد فلان، أنا بحسبك، اكشف ضري، أو اشف مريضي، أو أعطني، إلى غير ذلك، فيدعوه من دون الله، فهذا الشرك الذي بُعث الأنبياء برده، ومع ذلك زين الشيطان لكثير من هؤلاء المغرورين صنيعهم.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله»[(١)].

الشرح

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ استفهام تقريري، والجواب: الله ـ سبحانه وبحمده ـ، هو الذي يجيب المضطر. والمضطر: من أصابته الضرورة، إما بمرض، أو هلكة، أو تيه.

قوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾؛ أي: حال الدعاء؛ لأن دعوة المضطر دعوة حرَّى، فيجيبها الله ﷻ، وإجابته لدعوة المضطر دليل على وجوده، وربوبيته سبحانه.

قوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: يرفع ما يسوء المرء في نفسه، وأهله، وماله.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يخلف بعضكم بعضاً في الأرض،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير كما في مجمع الزوائد (١٠/١٥٩) ولم نجده في المعجم، وأخرجه أحمد في المسند (٥/٣١٧)، وابن سعد في الطبقات (١/٣٨٧) بغير هذا اللفظ من حديث عبادة بن الصامت. قال الحافظ ابن تيمية في كتاب الاستغاثة (١٥٢): وهو صالح للاعتضاد ودل على معناه الكتاب والسُّنَّة.

كلما فني جيل خلفه جيل، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكاري، فلما كان المشركون مقرين بأن الله تعالى هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، حتى إنهم إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فحري بهم أن يوحدوا الله بالعبادة، وألا يدعوا معه إلٰهاً غيره.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: مع علمكم بهذا لا يقع منكم تذكر كافٍ، وإنما قد تذكرون ذلك في حال الاضطرار فقط.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لانفراد الله تعالى بإجابة دعاء المضطر، وكشف كربته.

فوائد الآية:

١ ـ بطلان الاستغاثة بغير الله؛ لأن دعوة المضطر هي الاستغاثة، وهي الاستغاثة بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما الاستغاثة بغير الله فيما أقدر عليه غيره فجائزة. فلو أن إنساناً مثلاً كان يتخبط في لجة الموج، ورأى من يمشي على سِيف البحر، فقال: أغثني! أغثني! فلا يُعد ذلك شركاً؛ لأنه طلب الغوث ممن يملكه، ويقدر عليه. ولو أحاطت به النار، ورأى من يمر بجواره، ويمكنه أن يطفأ النار، فقال: الغوث! الغوث!، أو أغثني! فهذا ليس شركاً، ودليل ذلك ما ذكره الله تعالى في كتابه في قصة موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] أي: أن الإسرائيلي استغاث بموسى على القبطي الذي كان يضربه، فأغاثه، فهذه ليست استغاثة شركية.

فنعرف الاستغاثة الشركية بالنظر في الحال والقرائن، فإذا كان المستغيث يستغيث بغائب، أو ميت، أو بمن لا يقدر أن يغيثه، ولو كان حيّاً، فهذه استغاثة شركية، فلو قال مثلاً للطبيب: اشف مريضي، أو وقف على قبر، وقال: يا فلان أنا في حسبك، أو دعا غائباً، وقال: المدد يا سيد! فكل ذلك استغاثة شركية، مخرجة عن الملة.

وهناك مسألة حادثة، وأصلها قديم، وهي أن يأتي بعض الناس عند صاحب قبر من الصالحين، فيقول لصاحب القبر: يا فلان اشفع لي عند ربك! ادع الله أن يغفر لي! فاختلف بعض المعاصرين في هذه المسألة: فقال بعضهم: إنها بدعة مغلظة، لكنها لا تبلغ الشرك الأكبر؛ لأنه لم يدعه، وإنما طلب منه أن يشفع له عند الله. ولكن الصحيح: أن هذا شرك أكبر؛ لأنه دعا ميتاً، وتعلّق قلبه بمن لا يسمع ولا يقدر، وأعرض عن دعاء الله وحده، فيجب أن يسد الباب، ولا يفسح لأي لون من ألوان التدنس الشركي أن يفسد قلوب الموحدين.

٢ ـ إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛ لأن الله استدل عليهم بذلك.

٣ ـ أن الإقرار بتوحيد الربوبية لا ينجي صاحبه من النار، فلا بد من توحيد الألوهية، ولو كان توحيد الربوبية كافياً لما احتيج إلى دعوتهم؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء.

٤ ـ الاحتجاج بالمتفق عليه على المختلف فيه، فالمشركون موافقوننا بأن الله تعالى هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ولكنهم يخالفوننا في توحيد العبادة، فنقول لهم: كما أنكم أقررتم بتوحيد الربوبية، فإنه يلزمكم أن تقروا بتوحيد الألوهية.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وروى الطبراني) هو: الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المتوفى سنة ٣٦٠هـ، صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير، والأوسط، والصغير، وكتبه هذه الثلاثة تُسمى معاجم؛ لأن المصنفين في الحديث: منهم من يصنف في السنن، ومنهم من يصنف في المسانيد، ومنهم من يصنف في المعاجم، ومنهم من يصنف في المستدركات والمستخرجات. فالسنن: ما رتبه مصنفه على أبواب الفقه، والمسانيد: هو ما رتبه مصنفه على مسانيد الصحابة، بصرف النظر عن موضوع الأحاديث، فيأتي بأحاديث أبي بكر مجتمعة، ولو اختلفت موضوعاتها، والمعاجم: هو ما رتبه مصنفه على أسماء شيوخه، فيسرد الأحاديث التي رواها عن شيخه الأدنى في مقام واحد، ثم ينتقل إلى ما رواه عن شيخ آخر، بصرف النظر عن موضوعها.

قوله: (بإسناده) هذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده عبد الله بن لهيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من أئمة المسلمين، وقضاتهم، وأهل للمدح والعدالة، إلا أنه احترقت كتبه في آخر عمره، فاختلط، فصار يحدث من حفظه ويغلط، فلذلك ضعّف العلماء حديثه، ومنهم من يقبله ويحسنه، لكن الأصل أن حديث ابن لهيعة ضعيف، وهذا من حديثه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق) والمنافق: هو الذي يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، مأخوذ من نافقاء اليربوع، واليربوع ـ ويقال: جربوع ـ قال ابن الأثير: (قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ «النِّفَاقِ» وَمَا تصرَّف مِنْهُ اسْماً وفعْلاً، وَهُوَ اسمٌ إِسْلَامِيٌّ، لَمْ تَعْرفْه الْعَرَبُ بالمعْنى المخْصُوص بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتُر كُفْرَه ويُظْهر إِيمَانَهُ، وَإِنْ كَانَ أصلُه فِي اللُّغة مَعْروفاً. يُقَالُ: نَافَقَ يُنَافِقُ مُنَافَقَةً ونِفَاقاً، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النَّافِقَاءِ: أَحَد جِحَرة اليَرْبوع، إِذَا طُلِب مِنْ واحِدٍ هرَب إِلَى الآخَر، وخرَج مِنْهُ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ النَّفَقِ: وَهُوَ السَّرَب الَّذِي يُسْتَتَر فيهِ، لِسَتْرِه كُفْرَه)(١).

فاليربوع يرقق جزءاً من سقف بيته، فإذا أتي من قبل القاصعاء، ضرب برأسه هذا الجزء المرقق، وخرج من النافقاء، فيقال: نافق اليربوع؛ لأنه احتال وخرج من هذا المأزق بحيلة، فكذلك المنافق يخرج من المآزق بالأيمان المغلظة، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥] فشُبِّه المنافق باليربوع الذي يفر من المآزق بالطرق الملتوية، ثم صار المنافق يسمى فيما بعد «زنديق»، وهي كلمة أعجمية، لكن تُؤدي نفس المعنى.

قوله: (يؤذي المؤمنين) وبعضهم يروي لهذا الحديث قصة، وهي: أن عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس النفاق، أتى المسجد ومعه نمرقة، وهيئة حسنة، وإذا بأبي بكر جالس، فقال: هذا موسى أتى بالعصا، وهذا عيسى يبرئ الأكمه والأبرص، وهذا صالح أتى بالناقة، فعلام محمد لم يأتِ بشيء؟(٢). فتأثر أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبكى، **(فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا**

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٩٨/٥).
(٢) بنحوه في تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٣٣٣/٥).

المنافق)، فقاموا، **(فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله»)**. وقد تقرر أن الاستغاثة **نوعان**:

ممنوعة: أن يُستغاث بميت مقبور، أو بغائب، أو حاضر في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ كأن يقول: اشفني، وارزقني، ونحو ذلك. وهذ شرك أكبر.

جائزة: وهي أن يستغاث بمخلوق فيما يقدر عليه؛ كقول الغريق لمن يمر بسِيف البحر: أغثني، وقول الحريق: أغثني، وهكذا، فإن هذا لا بأس به.

فإنكار النبي ﷺ بقوله: **(إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله)** على فرض صحة هذا الحديث يُحمل على أحد **وجهين**:

الأول: أنه أنكر عليهم اللفظ، وهو قولهم: «قوموا نستغيث برسول الله ﷺ» حيث رأى أن هذا التعبير مناف للأدب مع الله، مع إمكان أن يستغاث بالنبي ﷺ فيما يقدر عليه.

الثاني: أنه ﷺ رأى أن ذلك استغاثة ممنوعة؛ لأنه لم يكن قادراً على إغاثتهم من ذلك المنافق؛ وإن كان الذين طلبوا ذلك قد لا يعلمون، فلم يقع منهم ذلك على سبيل الشرك. وقد ذكر هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ، وهو كون النبي ﷺ لم يكن قادراً على ذلك الرجل، في ذلك الحين(١)، ففي أول الهجرة كان لأهل النفاق سطوة وقوة، حتى قال عبد الله بن أُبي بن سلول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فقال عمر ﵁: مرني فلأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: **«دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**(٢)، ثم لما قوي أمر الإسلام، وخضدت شوكة المنافقين، ذكَّر الرسول ﷺ عمر بمقالته، قال: «أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»(٣). وهذا يدل على أهمية

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] برقم (٤٩٠٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً برقم (٢٥٨٤).

(٣) الكامل في التاريخ (٢/ ٧٨).

السياسة الشرعية، وأنه ينبغي للحاكم الشرعي أن يلاحظ تغير الأحوال، وقوة الإسلام وضعفه، فلا يحمل الناس على أمر لا طاقة لهم به؛ بل ينظر في عواقب الأمور، ويتبصر، ويميز بين باب السياسة الشرعية، بين باب الثوابت العقدية، وباب السياسة الشرعية؛ فالثوابت العقدية لا تتغير، وأما السياسة الشرعية فإن فيها من المراوحة ومراعاة المصالح والمفاسد، ما لا يخل بالثوابت العقدية. والله الموفق للحكمة وفصل الخطاب.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى **أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.**

فالدعاء أعم من الاستغاثة، فيشمل دعاء المكروب وغيره، بينما الاستغاثة هي دعاء المكروب.

الثانية **تفسير قوله:** ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، وقرن الحكم بالتعليل، فغير الله لا يملك الضر والنفع، فليس حقيقاً بالدعاء.

الثالثة **أن هذا هو الشرك الأكبر.**

وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾.

الرابعة **أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.**

بدلالة هذه الآية، فإذا كان هذا يقال للنبي ﷺ، وهو إمام الموحدين، إنك إن دعوت غير الله فإنك إذاً من الظالمين، فما بالك بغيره؟! فهو من باب أولى.

الخامسة تفسير الآية التي بعدها.

وهي قول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، وتفسيرها: إذا كان لا يكشف الضر إلا الله وجب أن تكون العبادة له وحده، والاستغاثة به وحده.

السادسة كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

فيكون المشرك قد جمع على نفسه مصيبتين: عدم تحقق مراده، وكون هذا الفعل كفراً.

السابعة تفسير الآية الثالثة.

وهي: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وقد تقدم.

الثامنة أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

وهذا معنى يغيب عن كثير من طالبي الرزق، وكل بني آدم يطلب الرزق، فكثير من الناس لا يستشعر أن الرزق من عند الله ﷻ؛ بل يبتغيه من المخلوقين.

التاسعة تفسير الآية الرابعة.

وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾، ففيها تسفيه لهم، وتضليل لطريقتهم.

العاشرة أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد أضل، فهو اسم تفضيل على بابه؛ أي: أضل الضالين.

الحادية عشرة **أنه غافل عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.**

لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾؛ أي: أن هؤلاء المدعوين غافلون عن دعاء من يدعونهم من دون الله ﷻ، فإن كانوا جماداً كالأشجار والأحجار، فهم بطبعهم لا يسمعون، وإن كانوا أمواتاً فكذلك، وإن كانوا ملائكة كراماً، فإنهم مشغولون بعبادة ربهم عن دعاء هؤلاء، متبرئون منهم.

الثانية عشرة **أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي، وعداوته له.**

لأنه قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧] فكل مودة أُقيمت على الكفر بالله، فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة.

الثالثة عشرة **تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.**

لأنه قال: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، فسمَّى الله تعالى دعاءهم عبادة.

الرابعة عشرة **كفر المدعو بتلك العبادة.**

لقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، فالمدعو يتبرأ ويتنصل من هذه العبادة.

الخامسة عشرة **هي سبب كونه أضل الناس.**

أي: أن تلك الأمور الأربعة: وهي كونه لا يخرج بطائل من دعائه؛ وكون المدعو غافلاً عن دعائه، وانقلاب مودتهم عداوة يوم القيامة، وكفر المدعو بدعاء الداعي، جعلته أضل الناس.

السادسة عشرة **تفسير الآية الخامسة.**

وهي قول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وقد تقدم.

السابعة عشرة **الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان: أنه لا يجيب المضطر إلا الله؛ ولأجل هذا يدعونه في الشدائد، مخلصين له الدين.**

وهذا أمر عجيب فعلاً، ولذلك إذا ركبوا في الفُلك دعوا الله مخلصين له الدين، ومع ذلك يدعون غيره في الرخاء! لأن العجب ينتج عن اجتماع أمرين، لا يجتمعان عادةً، أو عقلاً، فلما اجتمعا، أوجبا عجباً.

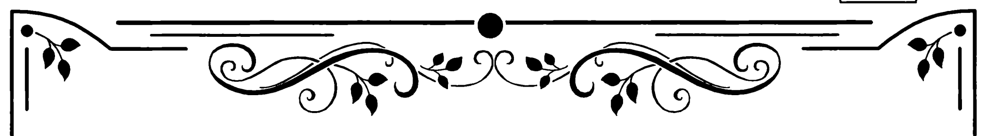
الثامنة عشرة **حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله عز وجل.**

نفهم من عبارة المصنف رحمه الله: أنه رأى أن إنكار النبي ﷺ على من قال: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ أنه لحظ باب مراعاة الأدب في الألفاظ، وإلا فإنه لا يبلغ مبلغ الشرك، باعتبار أنه يمكن أن يغيثهم في هذا الأمر، وهذا أحد التوجهين.

والتوجيه الآخر: أن النبي ﷺ لم يكن في ذلك الحين قادراً على إغاثتهم، فكأنهم طلبوا منه ما لا يقدر عليه[1].



(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ٢٨٧).



باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وفي الصحيح: عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحد، وكسرت رَباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](١).

وفيه: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية(٢).

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾(٣).

الشرح

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما قرر المصنف رحمه الله في الباب السابق أن (من الشرك أن يستغيث بغير الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد برقم (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ برقم (٤٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ برقم (٤٠٧٠).

أو يدعو غيره) أراد أن يقيم الأدلة النقلية العقلية على بطلان الشرك.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، والمراد بهم العرب الذي بعث فيهم النبي ﷺ.

قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾؛ أي: الأصنام، والأشجار، والأحجار، التي يدعونها من دون الله، فيجعلون لها شركاً في العبودية، فالله تعالى يعجّب من حالهم، وينكر عليهم، ويوبخهم، صنيعهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧] فلا يمكن أن يكون الخالق والمخلوق سواء.

ولهذا أبطل الله تعالى ألوهية الأصنام: بأنها لا تخلق، ولا تملك ضراً، ولا نفعاً، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣] فمن هذه صفته ليس أهلاً للعبادة؛ لأنهم لا يملكون شيئاً من صفات الربوبية. و(شيئاً) نكرة في سياق النفي، فدلت على أنهم لا يخلقون أدنى شيء، كما أخبر في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾؛ أي: أن هؤلاء المدعوين لا يستطيعون نصر من يدعونهم من المشركين، وليس هذا فقط؛ بل لا يستطيعون الانتصار لأنفسهم، فلو اعتدى عليهم أحد ما استطاعوا رده. ومما يروى في ذلك:

قال ابن هشام: (كَانَ عَمرو بْنُ الجَموح سَيِّداً مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلمة، وَشَرِيفاً مِنْ أشرافِهم؛ وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ فِي داره صنماً من خشب، يُقَالُ لَهُ: مَنَاةُ، كَمَا كَانَتْ الْأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ، تَتَّخِذُهُ إِلَهاً تُعَظِّمُهُ وَتُطَهِّرُهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ بَنِي سَلَمة: معاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَابْنُهُ مُعاذ بْنُ عَمْرو بْنِ الجَموح، فِي فِتْيَانٍ مِنْهُم مِمَّنْ أَسْلَمَ وَشَهِدَ الْعَقَبَةَ، كَانُوا يُدْلِجُونَ بِاللَّيْلِ عَلَى صَنَمِ عَمرو ذَلِكَ فيحملونه فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفر بَنِي سَلِمَةَ، وَفِيهَا عِذَرُ النَّاسِ، مُنَكَّساً عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو، قَالَ: وَيْلَكُمْ! مَنْ عَدَا عَلَى آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: ثُمَّ يَغْدُو

يَلْتَمِسُهُ، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غسلَه، وَطَهَّرَهُ، وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا واللهِ لَوْ أَعْلَمُ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ لأُخْزِيَنَّه. فَإِذَا أَمْسَى وَنَامَ عَمرو، عَدَوا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَغْدُو فَيَجِدُهُ فِي مِثْلِ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْأَذَى، فيغْسله، وَيُطَهِّرُهُ، ويطيبه، ثم يعدون عليه، إذ أَمْسَى، فَيَفْعَلُونَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ، اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْه يَوْماً، فَغَسَلَهُ، وَطَهَّرَهُ، وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَامْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ، فَلَمَّا أَمْسَى، وَنَامَ عَمْرٌو، عَدَوا عَلَيْهِ، فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنُقِهِ، ثُمَّ أَخَذُوا كَلْباً مَيِّتاً فَقَرَنُوهُ بِهِ بِحَبْلٍ، ثُمَّ أَلْقَوْه فِي بِئْرٍ مِنْ آبَارِ بَنِي سَلَمة، فِيهَا عِذَر مِنْ عِذر النَّاسِ، ثم عدا عَمرو بْنُ الجَموح فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ الذي كان به. فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ حَتَّى وَجَدَهُ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ، منكَّساً، مَقْرُوناً بِكَلْبٍ مَيِّتٍ، فَلَمَّا رَآهُ وَأَبْصَرَ شأنه، وكلمه من أسلم من قَوْمِهِ، فَأَسْلَمَ بِرَحْمَةِ اللهِ، وحسُنَ إِسْلَامُهُ، فَقَالَ حِينَ أَسْلَمَ وعرَف مِنْ اللهِ مَا عرَف، وَهُوَ يَذْكُرُ صَنَمَهُ ذَلِكَ وَمَا أَبْصَرَ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْقَذَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ العَمَى وَالضَّلَالَةِ:

واللَّهِ لَوْ كنتَ إِلَهاً لَمْ تكنْ ... أنتَ وَكَلْبٌ وسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ
أُفٍّ لِمَلْقَاك إِلَهاً مُسْتَدَن ... الآنَ فتشناكَ عَنْ سُوءِ الغَبَنْ
الحمدُ للَّهِ العليِّ ذي المِنَنَ ... الواهبِ الرزاقِ دَيَّانِ الدِّيَنْ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِن أَنْ ... أكونَ فِي ظُلمةِ قَبْرٍ مُرْتَهنْ
بأحمدَ المهدي النبيِّ المرتهنْ[1]

وقال أبو عُبَيْدٍ الْقَاسِمَ بْنَ سَلَّامٍ: (قَوْلُ الْعَرَبِ: لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ؛ قِيلَ: هَذَا فِيمَا بَلَغَنَا أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ صَنماً، فَنَظَرُوا يَوْماً إِلَى ثَعْلَبٍ جَاءَ حَتَّى بَالَ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ)[2]

---

(١) سيرة ابن هشام، ت: طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ٧٠).
(٢) المجالسة وجواهر العلم (٣/ ٣٧٨).

فوائد الآيتين:

١ ـ إقامة الأدلة العقلية على إبطال الشرك، فالعقل أحد مصادر الاستدلال؛ ولهذا يحيل الله تعالى عليه كثيراً؛ كقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فالعقل السليم من الشهوات والشبهات من أقوى الأدلة الموصلة للحق، وإنما يذم من قدم العقل على النقل، وجعل النقل تابعاً للعقل، وهم المتكلمون والفلاسفة، فيجعلون العقل سيداً متبوعاً، والنقل مسوداً تابعاً، فالعقل أداة، يستنير بنور النقل، ويستضيء به، فلا نعطله، ولا نستقل به.

٢ ـ إثبات صفة الخلق لله ﷻ، فالله تعالى هو الخالق وحده، لا خالق سواه.

٣ ـ إثبات التدبير لله ﷻ؛ لأن النصر بيده.

٤ ـ الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وهي طريقة قرآنية، متكررة، فلما كان هؤلاء المشركون مقرِّين بأن آلهتهم لا تخلق؛ بل هي مخلوقة، وبأنها لا تنصرهم، ولا تنصر نفسها، كان من لازم ذلك ألا يعبدوها، ولا محيد لهم عنه.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله، وهم كُثر، فهناك من يدعو الجن، ومن يدعو الأنبياء والصالحين، ومن يدعو الملائكة، ومن يدعو الأصنام، الحيوانات، وغيرها.

قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ القطمير: هو الغشاء الرقيق الذي يغلف النواة، وهو شيء تافه، لا يمثل ملكاً، ومع ذلك لا يملكونه. فلا شك أن الله، سبحانه، هو المتفرد بالملك، فله ملك السماوات والأرض؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ أي: فهم لا يملكون استقلالاً، ولا مشاركة، ولا معاونة، فبأي وجه يستحقون العبادة وهم لا يملكون شيئاً؟!

قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ يعني: إذا وقع منكم ذلك ودعوتوهم،

لم يسمعوا دعاءكم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل التنزل ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون الإجابة، فلا سمع، ولا ملك. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ فيوم القيامة تتبرأ منهم كل هذه المعبودات، سواء منها ما عُبد برضاه، أو بغير رضاه، فإنه يبرأ من عابديه؛ ولهذا يقول الله ﷻ للملائكة يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ وهذه جملة محكمة، ذهبت مثلاً؛ أي: لا يخبرك بعواقب الأمور، ومآلاتها كالخبير، المطلع على بواطن الأمور، ولا أخبر من الله، ولا أعلم منه ﷻ. وهذه الآية؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. فالقرآن مثاني.

مناسبات الآيات للباب:

أنها دالة على ما قصده المصنف رحمه الله من إقامة الدليل العقلي على بطلان ألوهية المشركين؛ لكونها لا تملك، ولا تسمع، ولا تستجيب، فلا وجه لدعائها.

فوائد الآيات:

١ ـ إقامة الدليل العقلي على بطلان الشرك.

٢ ـ بيان الصفات التي يجب توفرها في المدعو؛ ليصح دعاؤه، وهي: (الملك، والسماع، والاستجابة) وقد انتفت في حق هؤلاء المدعوين، وثبتت في حق الله تعالى، فهو المعبود الحق، فالله تعالى له الملك، وهو سميع الدعاء، وهو الذي يملك الإجابة.

٣ ـ إثبات اسم الخبير له سبحانه وبحمده.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وفي الصحيح) المراد هنا: الصحيحان؛ البخاري ومسلم.

قوله: (عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ) الشج: يكون في الوجه والرأس خاصة، دون سائر الجراحات. وفي البطن تسمى: جائفة.

قوله: (يوم أُحد) يوم أحد يوم معروف في الإسلام، وكان في السنة الثالثة من الهجرة، وأُحد اسم لجبل، شمالي المدينة، متوحد بين الجبال، وقد ورد الثناء عليه، فقال ﷺ: «**أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[١]، وخاطبه يوماً لما رجف بهم، فقال: «**اسكن أُحد، فليس عليك إلا نبي، وصديق، وشهيدان**»[٢]؛ يعني: نفسه، وأبا بكر، وعمر، وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

قوله: (وكسرت رَباعيته) وذلك أنه في يوم أُحد، كانت الدائرة أول النهار، للمسلمين، فلما عصوا من بعد ما أراهم ما يحبون، ونزل الرماة من الجبل، كرَّ عليهم خالد بن الوليد بالخيل، فصارت الدائرة للمشركين، ولقي النبي ﷺ من العنت ما الله به عليم؛ فسقط في حفرة من حفر أبي عامر الفاسق، وشج في وجهه الشريف، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه ﷺ، وكسرت رباعيته، والرباعية: السن الذي قبل الناب؛ يعني: بين الناب والثنية؛ بسبب ما جرى في ذلك اليوم.

قوله: **(كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟)** قالها النبي ﷺ على سبيل الاستبعاد، ولم يقطع، ولم يجزم، وإنما استفهم أو تعجب، والمقام يقتضي العجب. فاستدرك الله عليه، وأنزل:

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فالأمر كله لله، يقضي ما يشاء، ويحكم ما يريد.

مناسبة الحديث، والآية للباب:

فإذا كان النبي ﷺ لم يدفع عن نفسه الأذى، ويقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب خرص الثمر برقم (١٤٨٢)، ومسلم في الحج، باب أُحد جبل يحبنا ونحبه، وفي الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ برقم (١٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ برقم (٣٦٩٩).

شَيْءٌ﴾، فكيف يُنتظر ممن دونه أن يدفع عن غيره، أو أن يكون له من الأمر شيء؟ فهذا دليل عقلي نقلي على بطلان دعاء المشركين والقبوريين لمعبوديهم، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، من باب أولى.

فوائد الحديث والآية:

١ ـ بطلان دعاء الأولياء والصالحين؛ فإذا كان النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيئاً، فكيف بمن دونه؟

٢ ـ وقوع البلاء على الأنبياء والصالحين. وفي حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً أشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه من خطيئة**»(١). فلا يبتئس المسلم إذا وقع عليه بلاء، فليس هذا علامة هوان على الله ﷻ بل كونه دليل كرامة أقرب. ولكن العبد يسأل الله العافية، كما في الحديث: «**سلوا الله العافية، فإنه لم يعط عبد شيئاً أفضل من العافية**»(٢).

٣ ـ وجوب التوكل على الله ﷻ، وتفويض الأمر إليه.

٤ ـ وجوب الصبر على أقدار الله المؤلمة، فإذا وقع على الإنسان ما يكرهه، فلا يسخط.

٥ ـ الصبر على الدعوة إلى الله، وما يلقى في سبيلها.

٦ ـ عدم اليأس من روح الله؛ فيوم أُحد جرى فيه ما جرى من الانتكاسة الظاهرة على المسلمين، لكن حصل بعد ذلك من الآثار الحميدة ما أحال المحنة منحة، والنقمة نعمة. وهكذا ينبغي للمؤمن أن يحسن الظن بربه، فقد جاء في الحديث: «**إن الله لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له**»(٣)، لكن هذا يحتاج

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء برقم (٤٠٢٣)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٨) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٤٦) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٢٩٠٦) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

إلى قلوب واثقة، مطمئنة. فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط. فمن عقد قلبه على هذا المعنى، فليبشر، فعما قريب سينقشع البلاء، ويتكشف عن خير عميم، وبركة مذخورة.

* * *

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وفيه)؛ أي: في «صحيح البخاري».

قوله: (عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**)** هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه ـ كانت وفاته سنة (٧٣هـ) وهو من فقهاء الصحابة، ومحدثيهم.

قوله: (أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر) كان ذلك بعد أن كسرت رباعيته، وشج رأسه الشريف يوم أُحد.

قوله: (اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً) اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وقد لعن النبي ﷺ أشخاصاً معيّنين، سيأتي ذكرهم في الرواية الأخرى.

قوله: (بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»)؛ أي: بعد الرفع من الركوع والتسميع. والمراد بالسمع هنا: سمع الإجابة؛ أي: تقبل، فهذه الجملة دعائية. وأما الحمد: فهو وصف الله تعالى بصفات الكمال، ونعوت الجلال.

قوله: (فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية. وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾) هؤلاء الثلاثة كانوا مشركين يوم أُحد، وأسلموا عام الفتح، فحين لعنهم النبي ﷺ استدرك الله عليه ذلك، وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾؛ لأنه سبق في علم الله أن هؤلاء الثلاثة سيسلمون، ويحسن إسلامهم. ولا تعارض بين حديث ابن عمر، وحديث أنس السابق، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَطَرِيق الْجمع بَينه وَبَين حَدِيث ابن عُمَرَ أَنَّهُ ﷺ دَعَا عَلَى الْمَذْكُورِينَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي صَلَاتِهِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعاً فِيمَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ وَفِيمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي أُحُدٍ)[1]

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٢٢٧).

❋ **مناسبة الحديث للباب:**

أن النبي ﷺ لا يملك أن يحكم على غيره؛ بل الأمر لله. فدل ذلك على وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء والعبادة، فإذا كان نبيّه لا يملك ذلك، فغيره فمن باب أولى.

فوائد الحديث:

١ ـ بطلان التعلق بالأولياء والصالحين؛ لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والرد على القبوريين الذين يقولون: إنهم يدعون هؤلاء الصالحين لمنزلتهم عند الله، فيقال: هذا نبي الله ﷺ يقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فكيف بمن دونه؟ فيجب توحيد الله تعالى بالعبادة والدعاء.

٢ ـ جواز الدعاء على مشرك معين في الصلاة؛ لدعائه ﷺ على هؤلاء الثلاثة، وأما لعن المعيَّن فقد ورد النهي عنه، والفرق بين الدعاء واللعن، أن اللعن يقتضي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، والدعاء قد يقتضي عقوبة دون ذلك.

٣ ـ أن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد؛ لقول ابن عمر: بعد ما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**» وكذا المنفرد، وأما المأموم فإنه يقتصر على التحميد؛ لأن الإمام يقول: سمع الله لمن حمده، فيجيبه المأموم: «**ربنا ولك الحمد**»(١)، أو «**ربنا لك الحمد**»(٢)، أو «**اللَّهُمَّ ربنا ولك الحمد**»(٣)، أو «**اللَّهُمَّ ربنا لك الحمد**»(٤)، فهذه أربع صيغ، كلها ثابتة.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب إيجاب التكبير، وافتتاح الصلاة برقم (٧٣٤) عن أبي هريرة، ومسلم في كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام برقم (٤١١) عن أنس.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة برقم (٧٢٢)، ومسلم في الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام برقم (٤١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع برقم (٧٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل اللَّهُمَّ ربنا لك الحمد برقم (٧٩٦)، ومسلم في باب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين برقم (٤٠٩).

📖 **قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»(١).

الشرح

قوله: (وفيه)؛ أي: في «صحيح البخاري».

قوله: (عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) لعل هذا أول موضع يرد فيه ذكر أبي هريرة في كتاب التوحيد. وأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَلَمٌ مشهور، واسمه عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي، وكان إسلامه في السنة السادسة من الهجرة، في فتح النبي ﷺ لخيبر، وقد قدم مع الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي كان سبب إسلام قبيلته، فأقبل على تعلم العلم، وحفظ الحديث، ودعا له النبي ﷺ بالحفظ، حتى أنه روي عنه أكثر من خمسة آلاف حديث، فهو أكثر الصحابة حديثاً، وتوفي سنة سبع، وقيل: ثمان، وقيل: تسع وخمسين.

قوله: (قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾) أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تلقى هذا عن الصحابة؛ لأنه لم يشهد هذا القيام، فهذا الحديث يعد مرسل صحابي، وله حكم الاتصال؛ لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عدول كلهم.

جاء في بعض الروايات: أنه صعد على الصفا(٢)، فيكون هذا القيام قيامه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ برقم (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ برقم (٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ =

على الصفا، والصفا هو سفح جبل أبي قبيس، كما أن المروة سفح جبل قعيقعان، والسعي يقع بينهما، وقد قال النبي ﷺ: «أبدأ بما بدأ الله به»[(١)]: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وهو قريب من مجالس قريش، إذ كانوا يتحلقون حول البيت، فامتثل النبي ﷺ أمر ربه، فقام.

قوله: (يا معشر قريش) المعشر: هم الجماعة، مأخوذ من العشرة، وقريش: هي القبيلة العربية الشريفة التي ينتمي إليها النبي ﷺ.

قوله: (أو كلمةً نحوها)؛ يعني: شك من الراوي، هل قال: يا معشر قريش، أو كلمة قريبة منها، وهذا يفيد فائدة حديثية: وهو جواز الرواية بالمعنى، بشروط، أهمها: ألا يخل بالمعنى، وألا يكون ذلك من ألفاظ الأذكار المتعبد بها. و(كلمةً) بالنصب على تقدير فعل محذوف؛ أي: أو قال.

قوله: (اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً) الشراء، هو أحد طرفي المعاوضة؛ لأن المعاوضة تقوم على بيع وشراء، فكأنه نبّه على هذا المعنى العظيم؛ يعني: اعتقوا أنفسكم بشرائها، وشراؤها يكون بالإيمان بالله وحده، والدخول في عقد الإسلام.

وفي رواية عند مسلم: (لَمَّا أُنْزِلَتْ هذِه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، دَعا رَسولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشاً، فاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وخَصَّ)[(٢)].

قوله: (يا عباسُ بن عبد المطلب) (يا عباسُ) بالرفع على الأصل؛ لأنه منادى مفرد علم، ويجوز فيه النصب إتباعاً لفتحة (ابن). والعباس عم النبي ﷺ، أظهر إسلامه عام الفتح.

قوله: (لا أغني عنك من الله شيئاً) أخبره النبي ﷺ أنه لا يغني عنه من الله شيئاً، رغم قرابته، إذا لم يؤمن به، ويقبل ما جاء به من التوحيد، وترك الشرك به.

قوله: (يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً) نادى النبي ﷺ

= تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣] برقم (٤٩٧١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ برقم (٢٠٨).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٨).

هؤلاء الأقربين؛ عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه، وقصد التنبيه، وإلا فعشيرته الأقربون أكثر من هؤلاء، لكنه أراد الامتثال الدقيق لأمر ربه، فنادى فعم وخص. وقوله في شأن فاطمة خاصة: «**سليني من مالي ما شئت**»(١) يدل على وجوب النفقة على الأبناء والبنات، ولم يقل هذا بالنسبة للعم والعمة.

❋ مناسبة الحديث للباب:

جلية واضحة وهي أن محمداً بن عبد الله ﷺ سيد ولد آدم، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، يعلنها صريحة مدوِّية: أنه لا يغني عن أحد شيئاً، فكيف بمن دونه ممن يُدعى من دون الله؟! ففيه أعظم الرد على من يتوجهون إلى الأولياء والصالحين، ويقصدون قبورهم، ويسألونهم أموراً لا تسأل إلا من الله ﷻ.

فوائد الحديث:

١ ـ الرد على عباد القبور، والأنبياء، والصالحين.

٢ ـ أنه لا يجوز أن يُسأل العبد ما لا يقدر عليه إلا الله، فإن فعل فقد أشرك.

٣ ـ سرعة استجابة النبي ﷺ لأمر ربه، ودقته في امتثاله. وهذه فائدة تربوية، فينبغي لمن علم علماً أن يبادر إلى فعله، وألا يقول: واجب أو سُنَّة! محرم أو مكروه! كما يقع من كثير من الناس اليوم. فما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يفعلون هذا، مع أوامر النبي ﷺ ومناهيه، إنما كانوا إذا أُمروا بأمر وأطاقوه، فعلوه، وإذا نُهوا عن شيء اجتنبوه، كما قال نبيُّنا ﷺ: «**فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(٢). فليعوِّد المسلم نفسه على الامتثال، ولا يكن كهيئة المماكس في السوق، الذي يلح على البائع أن يخفض له في الثمن. فإن استطاع المسلم أن يفعل ما أمره الله به فليفعله، مستشعراً عبوديته لله تعالى، وإلا فليأتِ منه ما استطاع، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإذا نهاه الله عن شيء فليكف عنه، فإنه ما نهاه عنه إلا وهو يقدر على تركه. فنبيّنا ﷺ بادر بالامتثال.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم (٧٢٨٨)، ومسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر برقم (١٣٣٧).

وقد كان من السلف الصالح من إذا بلغه الحديث عن النبي ﷺ بادر بالتأسي والامتثال، حتى إن الإمام أحمد لما بلغه أن النبي ﷺ احتجم، وأعطى أبا طيبة الحجَّام ديناراً، ذهب واحتجم، وأعطى الحجام ديناراً[(١)].

وكان محمد بن أسلم الطوسي، الإمام المتفق على إمامته، وعلو رتبته، أتبع الناس للسُّنَّة في زمانه، حتى قال: «ما بلغني سُنَّة عن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ إلا عملتُ بها، ولقد حرصتُ على أن أطوف بالبيت راكباً، فما مُكنت من ذلك»[(٢)]، ولهم في ذلك عجائب في حرصهم على اتباع السُّنَّة.

٤ ـ أن الوسيلة المنجية بين العبد وربه هي الإيمان، والعمل الصالح؛ لقوله: «**اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً**» وأن الوسائل الشركية لا تجدي عنه شيئاً؛ بل لا تزيده من ربه إلا بعداً.

٥ ـ أن البداءة بالأقربين مقدمة؛ فينبغي للإنسان أن يجتهد في نفع ذويه، وأقرب الناس إليه، خلافاً لما يقع من بعض الدعاة، وطلبة العلم، فربما نشروا علمهم، ودعوتهم في الخافقين، وأقرب الناس إليهم لم ينتفع بهم، وهذا خطأ في الترتيب، فيجب أن يبدأ الإنسان بمن حوله، الأقرب فالأقرب، ثم ينتقل إلى من بعدهم.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير الآيتين.

أي: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾، فكل من سوى الله لا يستقل بملك ولا تدبير.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ١٢).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧٠).

الثانية **قصة أُحد.**

وما تضمنته من نفي «الأمر» عن النبي ﷺ، فمن دونه من المدعوين من باب أولى.

الثالثة **قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء، يؤمنون في الصلاة.**

أي: أن النبي ﷺ كان يقنت في صلاة الصبح، حينما يرفع من الركوع، في الركعة الثانية، ويدعو على بعض الأعيان، ويؤمن خلفه سادات الأولياء، وهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ. وقنوت النوازل مشروع، ومشروعيته باقية؛ وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا القنوت مشروع في كل صلاة فجر. ولكن الصحيح: أن هذا قنوت مرتبط بنازلة، فلا يداوم عليه، وقد قنت النبي ﷺ في مواطن عدة، ومنها: أنه قنت شهراً يدعو على رعل، وذكوان، وعصية[1] بأسمائهم.

الرابعة **أن المدعو عليهم كفار.**

المدعو عليهم كانوا كفاراً، وهم الثلاثة الذين جرى ذكر أسمائهم، وكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى أنه لا يقنت على مسلم، ويمكن أن يكون ذلك مختصاً بوصف اللعن؛ لأنه لعنهم.

الخامسة **أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيِّهم، وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم.**

وهذا يدل على الفجور في الخصومة، وشدة العداوة، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠]، وهذا ما حمل النبي ﷺ على القنوت عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب العون بالمدد برقم (٣٠٦٤).

السادسة أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أي: مع ما بدر منهم من سوء المعاملة، والفجور في الخصومة، وشج وجهه الشريف، والتمثيل بالقتلى، وغير ذلك، إلا أنه قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: فلا تدعُ عليهم باللعن؛ فالأمر كله لله.

السابعة قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾؛ فتاب عليهم، وآمنوا.

هذا ما وقع بعد ذلك، فكل هؤلاء الثلاثة: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام، أسلموا عام الفتح، وحسن إسلامهم.

الثامنة القنوت في النوازل.

أي: مشروعية القنوت في النوازل، وقد تقدم، ولكن هذه المسألة لها فروع فقهية، منها: هل يكون القنوت في النوازل من اختصاص الإمام؟ وهل يختص به مسجد دون آخر؟ فهذا مما اختلف فيه أهل العلم: فذهب بعض أهل العلم: إلى أن القنوت يختص بمسجد الإمام الأعظم. وذهب آخرون: إلى أن القنوت يكون في كل مسجد، والراجح: أن القنوت لا يختص بمسجد الإمام الأعظم؛ بل يمكن أن يكون في كل مسجد. وأما افتقار القنوت إلى إذن الإمام؛ فالراجح: أنه لا بد أن يكون القنوت بإذن الإمام؛ لأن الناس قد يختلفون في تقدير النازلة، فتجد من الناس من يرى أن هذه نازلة، وآخر لا يراها نازلة، فيقع الاختلاف بسبب هذا، ومن المعلوم أن الشارع الحكيم يتشوف إلى جمع الكلمة، وأن يكون مظهر الأمة واحداً.

التاسعة تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم، وأسماء آبائهم.

فقد سمى النبي ﷺ صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، بأسمائهم، وأسماء آبائهم، فدل على الجواز، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم، أو لهم، مصلحة، جاز؛ لأنه لا يعد من كلام الناس؛ بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى.

العاشرة **لعن المعيّن في القنوت.**

لرواية: «اللَّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً»، فإن أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا أمر وقع، ثم نهي عنه فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت، ففيه نظر؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، فلا يجوز لعن المعين، بخلاف الدعاء عليه؛ لأن الدعاء أوسع؛ واللعن دعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله، لكن اللعن على سبيل العموم جائز، كما تقدم، كأن يقول الإنسان: اللَّهُمَّ العن الكفرة، اللَّهُمَّ العن اليهود والنصارى، اللَّهُمَّ العن من غيّر منار الأرض، ونحو ذلك، فاللعن بالوصف جائز فيما ورد، أما اللعن بالشخص، فلا يجوز.

الحادية عشرة **قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾.**

وقد تقدم بيان القصة، وتمامها: أن النبي ﷺ قال: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقي؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١][(١)].

الثانية عشرة **جدّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.**

أي: جده ﷺ في امتثال أمر ربه، فلم يحل بينه وبين تنفيذ الأمر مخاوف وتحسبات؛ بل مضى في أمر ربه، وفي هذا تنبيه لمن يباشر الدعوة إلى التوحيد، أنه قد ينسب إلى الجنون، أو غير ذلك من ألقاب السوء، فليحتمل كما احتمل نبي الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣] برقم (٤٩٧١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ برقم (٢٠٨).

الثالثة عشرة **قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئاً»، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً»، فإذا صرَّح ﷺ وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبيّن له ترك التوحيد، وغربة الدين.**

صدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد تكلم عن بصيرة ومعاناة، وأدرك من حال الناس ما حمله على أن يغضب لله، ويصنف هذا الكتاب النافع، ويقيم الأدلة النقلية والعقلية على وجوب توحيد الله، وكان كثير من الناس في زمنه، ولا يزال في زمننا هذا من يكون له تعلق بالأشخاص، ويظن أن فلاناً، وفلاناً، يملكون نفعه وضره، مع أن سيد الأنبياء والمرسلين يقول: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، يقوله للبعيد والقريب، فأين هؤلاء عن مثل هذه النصوص؟

فيجب على كل مؤمن توحيد الوجهة والقبلة، فلا يلتفت إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ في دعائه.





باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سبأ: ٢٣]

وفي «الصحيح»: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه، فحرفها، وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»(١).

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة، ـ أو قال: رعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا، وخرُّوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [الحجر: ١٨]، برقم (٤٧٠١).

(٢) التوحيد، لابن خزيمة، (١/٣٤٨).

الشرح

📖 **يقول المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**باب: قول الله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾). وهذه الآية تبين حال الملائكة حينما يتكلم الله بالوحي، وما يلحقهم من جراء ذلك من فزع عظيم، وخوف ورهبة، من المتكلم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما سيأتي مفسراً في الحديثين بعده.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

مناسبة عظيمة، وهي أنه إذا كان هؤلاء الملائكة الكرام العظام الكبار العارفين بالله، القريبين منه، يدركهم هذا الفزع، من جراء سماع كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يتعلق بهم المشركون؟! فالأولى أن يتعلقوا بخالقهم، وموجدهم، سبحانه وبحمده.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ معنى (فُزِّع عن)؛ أي: زال عنها الفزع الذي حصل لهم جراء سماعهم لكلام الله عَزَّ وَجَلَّ، كما سيأتي، في حديثي أبي هريرة، والنواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ هذا يدل على أن الملائكة خلق حقيقي لهم قلوب، وليسوا مجرد قوى معنوية، كما زعم بعض العصرانيين العقلانيين؛ بل خلقهم الله تعالى من نور، ولهم أجنحة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١]، وقد ثبت أن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته التي خلقه الله عليها مرتين، له ستمائة جناح، قد سد الأفق(١)، وقال: «**أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»(٢)، ومع أن

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة والنجم برقم (٣٢٧٨) وقال الألباني: «ضعيف الإسناد»، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٣٧٤٨). وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف» وهو في الصحيحين دون «قد سد الأفق».

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية برقم (٤٧٢٧) وصححه الألباني.

هذه صفتهم، فإنه إذا فزع عن قلوبهم ـ أي: زال عنها الفزع ـ قال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ وهذا لتشوفهم للعلم، ورغبتهم في إدراك ما تكلم به الرب سبحانه قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ وتفصيل ذلك يأتي في حديث النواس بن سمعان، وأنهم يسألون جبريل، فيخبرهم جبريل، فيقول بعضهم لبعض: قال الحق وهو العلي الكبير. فأثبتوا لله ﷻ هذين **الاسمين الشريفين**:

- **الأول**: **العلي**: وهو يدل على صفة العلو، وعلو الله تعالى **ثلاثة أنواع**:

١ ـ علو القهر: أي: الغلبة، فلا شك أن الله تعالى علا جميع خلقه بقهره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

٢ ـ وعلو القدر: ومعناه: أن الله ﷻ له المثل الأعلى، فصفاته قد بلغت أكمل غاية الكمال، فلا يماثله أحد في أسمائه وصفاته.

٣ ـ وعلو الذات: ومعناه: أن الله ﷻ بذاته، فوق عباده، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيءٌ من خلقه، ولا في خلقه شيءٌ منه.

فأما النوعان الأولان، فلا يخالف فيهما أحد من أهل القبلة، وهما علو القدر، وعلو القهر. وأما النوع الثالث: فهو الذي وقع فيه الخلاف بين أهل القبلة، فأهل السُّنَّة والجماعة، من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، يثبتونه على حقيقته اللائقة بالله، خلافاً لأهل الحلول والتمثيل، وأهل التحريف والتعطيل. وقد تضافرت نصوص الكتاب والسُّنَّة، والإجماع، والعقل، والفطرة، على ذلك، وبسطها في غير هذا الموضع.

وأما أهل الأهواء الزائغة، فكلهم ينفي عن الله صفة علو الذات، وبعضهم يقول: هو في كل مكان! تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، ومنهم من ينفي عنه جميع الجهات، حتى يقولون: لا أمام، ولا خلف، ولا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال!، وهذا يقتضي القول بالعدم؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء إله»(١)، فمؤدى قولهم، وغرض بعضهم: إنكار وجود الله ﷻ.

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٨٤).

• **الثاني: الكبير**: والمقصود به: الذي لا أكبر منه ـ سبحانه ـ، ولا أعظم منه، في ذاته وصفاته.

فوائد الآية:

١ ـ الرد على جميع المشركين الذين يَدعُون غير الله، فإن أعظم المخلوقات التي تُدعى من دون الله هم الملائكة، فإذا كانت هذه حالهم من الفزع من الله، والتعظيم لجنابه، فمن دونهم من المدعوين أضعف وأقل، كيف يدعون من دون الله؟!

٢ ـ إثبات الكلام لله ﷻ؛ لقوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ٢٣﴾.

٣ ـ أن كلام الله ﷻ غير مخلوق، ووجه ذلك: أنهم قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربكم، خلافاً لما ذهبت إليه المعتزلة.

٤ ـ أن كلام الله ﷻ متعلق بمشيئته؛ أي: أنه يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، خلافاً للأشاعرة، والماتريدية، والكُلابية، الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القديم القائم في ذاته، وينكرون أنه يتكلم الله ﷻ بحسب الوقائع. فهذه الآية دلت على أنه يتكلم متى شاء؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ٢٣﴾ فـ(إذا) تدل على الظرفية، فرتب الفزع الحادث على الكلام.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: العلي والكبير.

٦ ـ إثبات وصفين من صفات الله، وهما: العلو والكِبَر.

والقاعدة: أن كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة، ولا يلزم العكس، فليس إثبات الصفة يقتضي إثبات الاسم. فقد أثبت الله لنفسه صفة المجيء بقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وليس من أسمائه «الجائي»، وأثبت لنفسه الإرادة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليس من أسمائه «المريد»؛ فكل اسم يتضمن صفة، ولا يلزم أن تتضمن الصفة اسماً.

٧ ـ إثبات عظمة الله ﷻ.

٨ ـ فضل الملائكة الكرام.

* * *

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(في الصحيح) المراد هنا: «صحيح البخاري».

قوله: (إذا قضى الله الأمر)؛ أي: تكلم به، فالمقصود: بقضائه هنا: تَكَلُّمُهُ به؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فقضاؤه يكون بالتكلم بما يريده سبحانه، كما سيأتي مفسراً في الحديث الذي بعده.

قوله: (في السماء) لأنه في السماء، سبحانه وبحمده، كما قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. والمراد: على السماء.

قوله: (ضربت الملائكة) الملائكة: جمع ملك، وأصله مألك من الألوكة، وهي الرسالة. وهم عالم غيبي، خلقهم الله من نور، وسخرهم في عبادته، وتسبيحه، وتقديسه، ومنحهم القوى الخارقة على تنفيذ أمره، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء؛ بل هم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]

قوله: (بأجنحتها خَضَعاناً لقوله) بفتح الخاء والضاد، ويصح بضم الخاء وتسكين الضاد. أي: تذللاً وخضوعاً لكلامه الذي صدر منه سبحانه وبحمده.

قوله: (كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك) هذا ليس تشبيهاً لصوت الرب ﷻ، ولكن تشبيه للنفاذ بالنفاذ؛ تشبيه لنفاذ الصوت فيهم، بنفاذ صوت السلسلة على الحجر الأملس. والسلسلة هي الحلق الحديدية المتصلة. فإذا ضربت السلسلةُ الصفوانَ صدر صوت حاد، ينفذ في تكوينهم وخلقتهم، كما ينفذ صوت السلسلة على الصفوان في بدن ابن آدم، لحدته ومضائه.

ومن المعلوم: أن الأصوات، والمرئيات، يكون لها تأثير متفاوت في الأجسام، قال تعالى في المرئيات: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] فهذه الأشعة تؤثر على النظر؛ لأنها فوق طاقته المعتادة، فكذلك الصوت يؤثر في

الأبدان، وينفذ فيها، فهذا أثر سماعهم لكلام الرب ﷻ فيخضعون بأجنحتهم، ويصيبهم الغشي. وقد تقدم تفسيرها.

قوله: (فيسمعها)؛ أي: تلك الكلمة التي تكلم الله بها الرب، وتلقتها الملائكة. والمقصود بالكلمة: الكلام، فإن الكلمة تدل في لغة العرب على الجملة.

قوله: (فيسمعها مسترق السمع) اسم جنس للشيطان من الجن، الذي يصعد في أجواز الفضاء؛ ليسترق السمع، وينزل به على الكاهن.

قوله: (ومسترق السمع هكذا، بعضه فوق بعض؛ وصفه سفيان بكفه فحرفها، وبدد بين أصابعه) هو: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي رحمه الله، من أئمة السلف، ومن الحفاظ الأثبات الثقات، كانت وفاته سنة (١٩٨هـ). وقوله: (فحرفها) أي: جعلها كالحرف، وبدد بين أصابعه؛ أي: فرقها؛ كأنها طبقات من الجن يلقي بعضهم إلى بعض القول.

قوله: (فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن) فهي سلسلة متصلة من الشياطين، مسترقي السمع، يوصلونها إلى الساحر أو الكاهن. والفرق بين الساحر أو الكاهن: أن الساحر هو من يستخدم ما دق ولطف سببه في التأثير. وأما الكاهن: فهو من يدعي العلم بالمغيبات، والأمور المستقبلة. وسيأتي لهما مزيد بيان في أبواب مستقلة.

قوله: (فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة) الشهاب: أجزاء منفصلة من النجوم والأجرام السماوية، تحرق الشياطين، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠] فيرمي الله ﷻ الجن والشياطين بهذه الشهب فتحرقهم. وهذا الشهاب الذي يصوَّب على مسترقي السمع، ربما أدركه قبل أن يلقي الكلمة، فأحرقه، فانقطع السند، وربما تمكن من إلقائها إلى من تحته، حتى تبلغ الساحر أو الكاهن.

والرمي بالشهب قد كثر قبيل بعثة النبي ﷺ؛ وذلك من إرهاصات نبوته، فقد كانت الجن تسترق السمع، ويصعدون في أجواز الفضاء، ويمدون السحرة

والكهنة بما تتكلم به الملائكة، والله تعالى قد أقدرهم على أن يصعدوا في طبقات الجو بهيئة لا نعلمها. فلما بعث النبي ﷺ حفظت السماء؛ لكي لا يتطرق إلى الوحي أدنى تدخل، قال الله تعالى حاكياً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨، ٩] فحفظت السماء زمن النبوة، لأجل الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى ما كانوا يصلون إليه؛ فلما شعروا بهذا، تنادوا وقالوا: وقع في الأرض حدث، فطفقوا يبحثون في الأرض، حتى وصلت طائفة منهم إلى وادي نخلة، مرجع النبي ﷺ من ثقيف، وهو يقرأ القرآن، ويصلي، فعرفوا السبب، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠] فتبين للجن أن قد حصل أمر عظيم، وهو بعثة محمد ﷺ، فآمن منهم من آمن، وكفر منهم من كفر.

وبعد وفاة النبي ﷺ، وانقطاع خبر السماء، ربما عادوا إلى ما كانوا عليه من استراق السمع؛ لأنهم عاودوا إمداد الكهنة والسحرة بما كانوا يمدونهم به، وقد حصل المقصود من حفظ الوحي، فلا مانع أن يرجع الأمر إلى ما كان عليه.

قوله: (فيكذب معها مائة كَذْبة) بفتح الكاف، وسكون الذال المعجمة؛ أي: يخلط الساحر، أو الكاهن، مع الكلمة السماوية مائة كذبة مزخرفة مسجوعة؛ لكي يكبرها، ويزوِّقها، ويجعل لها رواجاً عند الناس.

قوله: (فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا كذا: كذا وكذا؟)؛ أي: فيغتر الناس بهذا الحق القليل على إثبات الباطل الكثير.

قوله: (فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)؛ أي: لتحققها، فيقبل قوله في المائة الباطلة.

⌘ مناسبة الحديث للباب:

لطيفة، دقيقة، وذلك أن هذا التأثر البليغ للملائكة الكرام العظام، من جراء سماع كلام الرب ﷻ، وما يلحقهم من الخضعان والذل والإخبات لله ﷻ، دليل

على أنه لا يُدعى غير الله، وأن من دعا الملائكة فمن دونهم في القوة والخلقة فهو مشرك بالله.

فوائد الحديث:

١ ـ الرد على المشركين، وإبطال توسلهم بالأولياء والصالحين.

٢ ـ عظم شأن الرب ﷻ.

٣ ـ إثبات صفة الكلام لله ﷻ.

٤ ـ إثبات صفة العلو لله ﷻ.

٥ ـ بطلان السحر والكهانة، وذمهما، وأنهما مبنيان على الكذب، في الأعم الأغلب.

* * *

قال المصنف رحمه الله:

(**عن النواس بن سمعان** رضي الله عنه) وهو: النواس بن سمعان، ويقال: شمعان، الكلابي الأنصاري رضي الله عنه، صحابي مشهور، سكن الشام.

قوله: (**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي**) وهذا دليل على أن قضاءه كلام، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. وهذه الجملة تفسر الجملة السابقة من حديث أبي هريرة: «**إذا قضى الله الأمر**»، أن قضاءه بكلامه.

قوله: (أخذت السماوات منه رجفة، ـ أو قال: رعدة ـ شديدة) وهذا دليل على أن السماوات تسمع؛ لأن الله ﷻ قد أعطى كل خلق ما يخصهم، فلا يقول قائل: أليست السماء سقفاً محفوظاً مبنية، فكيف تسمع؟ فيقال: إن الله تعالى أودع في كل خلق سمعاً يليق به، فلا غَرْوَ أن تسمع السماوات، أليس قد قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، فأمرهما، فسمعتا، وأجابتا. وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فمن ضيق الأفق، وقصر والنظر، أن لا يُتصور الكلام إلا بلسان وشفتين، ولا يتصور السمع إلا بصماخ وأذنين! حتى الجمادات، أثبت النبي ﷺ لها مشاعر وأحاسيس،

فقال: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»(١). فلا عجب أن تسمع السماوات، ولا عجب أن يلحقها رجفة أو رعدة، وهذا شك من الراوي. والرجفة والرعدة معناهما متقارب؛ أي: الاضطراب المصحوب بخوف ورعب.

قوله: (**خوفاً من الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا**) فميز بين السماوات وأهلها، فالسماوات تعتريها رجفة أو رعدة، وأهل السماوات ـ وهم الملائكة الكرام ـ يعتريهم صعق وغشي.

قوله: (**وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**) فـ(أول) خبر يكون مقدم، (وجبريل) اسمها مؤخر. وحاصل ذلك: أن الملائكة الكرام يخرون مغشياً عليهم، جميعهم، بمن فيهم جبريل، إلا إن جبريل عليه السلام لفضله يكون أول من يرفع رأسه، وهذا فيه إثبات الرأس لجبريل.

قوله: (**فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة؛ كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**)؛ أي: يقولون: «**قال الحق وهو العلي الكبير**». وهذا يفسر مجيء الضمير في الآية بصيغة الجمع (قالوا). فالحديث مبين لما أجمل في الآية.

قوله: (**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ**)؛ أي: إلى حيث أمر الله ﷻ من سماء، أو أرض، بما قضى؛ لأن جبريل عليه السلام هو الموكل بالوحي؛ ولهذا كان أشرف الملائكة وسيدهم. وسادة الملائكة ثلاثة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل. وسر سيادتهم أنهم موكلون بالحياة؛ فجبريل موكل بحياة القلوب، وميكائيل موكل بحياة النبات، وإسرافيل موكل بحياة الأبدان، والقلوب هي أشرف هذه الثلاثة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. وهذا يدل أيضاً، على حمق اليهود، فإنهم يعدُّون جبريل عليه السلام عَدُوَّهم من الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]؛ وإنما أبغضوه لأنه هو الذي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب خرص الثمر برقم (١٤٨٢)، ومسلم في الحج، باب أُحد جبل يحبنا ونحبه، وفي الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ برقم (١٣٩٢).

يحل بهم المثلات، وينزل بعقوبة الله ﷻ على من خالف أمره.

مناسبة الحديث للباب:

كونه يدل على عظم خوف الملائكة من الله ﷻ، فمن دعا الملائكة، فمن دونهم، فقد وقع في الشرك الأكبر، المخرج عن الملة.

فوائد الحديث:

١ ـ إبطال توسل المشركين بالأولياء والصالحين.
٢ ـ عظم شأن الرب سبحانه وتعالى.
٣ ـ إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.
٤ ـ فضل جبريل عليه السلام.
٥ ـ حرص الملائكة على العلم.
٦ ـ إثبات سماع السماوات لكلام الرب سبحانه، وتعظيمها له.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

وفيه مسائل:

الأولى **تفسير الآية.**

لأن المصنف لم يورد آية سواها، وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: زال عنها الفزع، وهم الملائكة، وقد تقدم تفسيرها.

الثانية **ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.**

الحجة البالغة التي تجتث شجرة الشرك الخبيثة: أن الملائكة أعظم المدعوِّين خَلْقاً ومنزلةً، ومع ذلك، هذا حالهم مع ربهم، خاضعين، من خشيته مشفقين، فكيف يدعون من دونه؟! فكيف بمن أضعف منهم خلقاً، وأدنى رتبة؟! فلا يجوز التعلق بأحد من الصالحين، فضلاً عن غيرهم.

الثالثة **تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٣﴾.**

وقد تبيّن بالحديثين بعدها أن هذا مما تتراجعه الملائكة بينها من كلام.

الرابعة **سبب سؤالهم عن ذلك.**

أنهم علموا أن جبريل قد أوحى إليه ربه بكلام، فيسألون ذلك من باب طلب العلم.

الخامسة **أن جبرائيل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».**

كما في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

السادسة **ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل.**

للتصريح به في حديث النواس، ويدل على فضيلته الخاصة.

السابعة **أنه يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.**

لقوله: «**كلما مر بسماء سأله ملائكتها**» فيجيبهم جميعاً.

الثامنة **أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.**

لقوله في الحديث: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا**».

التاسعة **ارتجاف السماوات لكلام الله.**

لقوله: «**أخذت السماوات منه رجفة، ـ أو قال: رعدة ـ**» خوفاً من الله تعالى.

العاشرة **أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.**

كما ذكره في آخر حديث النواس بن سمعان؛ وذلك لأنه الملك الموكل بالوحي.

الحادية عشرة **ذكر استراق الشياطين.**

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً، فيسترقون السمع من السماء.

الثانية عشرة **صفة ركوب بعضهم بعضاً.**

كما وصفها سفيان بن عيينة، والذي يظهر أن سفيان رحمه الله تلقاها عمن قبله، فربما كان من قبيل المسلسل، و«المسلسل» في علم الحديث: أن يتواطأ الرواة على لفظ، أو فعل، يأخذها بعضهم عن بعض إلى منتهاه، إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وأما إذا أتى الراوي بلفظ من عنده للبيان، فهذا يُسمى إدراجاً، وقد يكون الإدراج في أول الحديث، أو وسطه، أو آخره، وهذا مبسوط في علم مصطلح الحديث.

الثالثة عشرة **إرسال الشهب.**

وذلك لإهلاك الشيطان المسترق للسمع، لا لما كانت تظنه العرب في الجاهلية: أن ذلك لحياة عظيم أو لموته. قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

الرابعة عشرة **أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.**

كما جاء في حديث أبي هريرة.

الخامسة عشرة **كون الكاهن يُصدق بعض الأحيان.**

يصدق أحياناً بسبب هذه الكلمة المسترقة من السماء، وربما حصل بعض ما قال اتفاقاً، فيغتر به من يغتر، ويكون الله عز وجل قد أجرى ذلك ابتلاء لعباده.

أما المؤمن الذي يؤوي إلى ركن شديد، فيعلم أنه: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، فلا يخالطه شك في ذلك؛ ولهذا ينبغي التحذير مما تشيعه بعض وسائل الإعلام من الترويج لبعض المنجمين، فإن وقع شيء من ذلك، فإنما هو بالاستعانة بالشياطين من مسترقي السمع، ويخلطه بأضعافه من الكذب، أو يكون مما وقع اتفاقاً، فلا يعول عليهم، ولا يلتفت إليهم في الإخبار بالمغيبات، واستشراف المستقبل.

السادسة عشرة **كونه يكذب معها مائة كذبة.**

أي: يخلط الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألقاها إليه وليّه من الشياطين مائة كذبة، فلا يصدق إلا الكلمة التي سُمعت من السماء.

السابعة عشرة **أنه لم يُصدَّق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.**

هذا يدل على خطورة لبس الحق بالباطل، فعلى المؤمن أن يميز؛ فيقر الحق، ويرد الباطل، ولا يغتر بدمج الحق بالباطل لتسليك الباطل؛ بل عليه أن يتبين ما يلقى عليه، ويستنير بنور الله ﷻ. فكم من المتحدثين المتحذلقين الذين يملؤون الأعمدة الصحفية، أو يصنفون الكتب، أو يعتلون المنابر الإعلامية، يقولون باطلاً ممزوجاً بشيء من الحق؛ لترويج باطلهم، كما يقال: يدس السم في العسل. فعلى المؤمن أن يكون يقظاً متنبهاً، فلا يرد الحق لاختلاطه بالباطل، ولا يقبل الباطل لاقترانه بالحق؛ بل يميز ويفصل.

الثامنة عشرة **قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!**

يشير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى طبيعة النفوس المنحرفة، كيف يستهويها الباطل، مع أن نسبة الحق منه واحد بالمائة، بسبب الأهواء والشبهات، فتتشبث بهذا القليل من الحق لتسويغ الكثير من الباطل، وشواهده كثيرة.

التاسعة عشرة **كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة، ويحفظونها، ويستدلون بها.**

كما وصف الله بعضهم بقوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣].

العشرون **إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.**

تضمنت الآية والحديثان إثبات بعض صفات الله ﷻ، ومنها: صفة العلو لله ﷻ، وهي صفة عظيمة، ينكرها الجهمية والأشاعرة، وإثبات صفة الكلام التي ينكرها الجهمية والمعتزلة، ويثبتها الأشاعرة على وجه غير الوجه الذي يثبتها عليه أهل السُّنَّة والجماعة، فيجعلون كلام الله ﷻ هو المعنى القديم القائم في نفسه، ولا يثبتون الكلام الحقيقي الذي هو الحرف والصوت، المتعلق بمشيئته. والحق أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، بكلام حقيقي، لا يماثل كلام المخلوقين، وأنه قديم النوع، حادث الآحاد.

الحادية والعشرون **أن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله ﷻ.**

وقد جاء ذلك صريحاً في الحديث بقوله: «**خوفاً من الله ﷻ**».

الثانية والعشرون **أنهم يخرون لله سجداً.**

كما في الحديث: «**وخرّوا لله سجداً**» والخرور: هو الهوي من أعلى إلى أسفل.





باب الشفاعة

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

الشرح

الكلام على الشفاعة من **عدة أوجه**:

أولاً: من حيث تعريفها:

الشفاعة في اللغة: مأخوذة من الشفع، وهو الزوج، ضد الوتر؛ لأن الأشياء: إما شفع، وإما وتر، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر: ٣]، فمادة (شفع) تدل على الزوجية والإثنينية، بخلاف الفردية.

وأما في الاصطلاح: فالشفاعة: سؤال الخير للغير، وأقرب الاستعمالات لها في لغتنا المعاصرة قولهم: (الواسطة). قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. فكأن الشافع، لما انضم إلى المشفوع له، صارا شفعاً، بعد أن كان وتراً.

ثانياً: الفرق بين الشفاعة عند الله والشفاعة عند غيره:

وينبغي أن يعلم أن الشفاعة عند الله ﷻ ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، وعدم التمييز بين هذا وهذا هو الذي أوقع المشركين فيما وقعوا فيه من الشرك العظيم. فإن الشفاعة عند ملوك الدنيا تكون مقبولة: إما رغبة، أو رهبة، فحينما يتقدم الشافع عند ملك، أو سلطان، أو أمير، أو كبير؛ ليشفع لفلان، فإن شفاعته تقع دون إذن مسبق؛ بل يفجؤه بها، وقد يقبل شفاعته رغبة في استمالته، أو دفعاً لسخطه، وهذان الاحتمالان منتفيان في حق الله ﷻ، فإن الله ﷻ لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة، ولا يقبل شفاعة الشافعين ليستقوي بهم، ولا ليدفع شرهم وخطرهم، حاشا وكلا؛ فالله هو القوي العزيز، الذي له القوة جميعاً، وله العزة جميعاً، وهو الغني الحميد، الذي له ملك كل شيء، وخلقه مضطرون مفتقرون إليه.

ثالثاً: شروط الشفاعة:

الشفاعة حق خالص له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾.
ووجه كونها لله جميعاً: أن الشفاعة عند الله ﷻ لا تكون صحيحة إلا **بشرطين**:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، دليل هذا الشرط قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فلا يملك أحد أن يشفع عند الله إلا بعد إذنه. أما الشفاعة عند المخلوقين فلا يشعر ذلك السلطان، أو الكبير، أو الأمير، أو الوزير، إلا وقد أدلى الشافع بشفاعته، دون إذن مسبق، أما في حق الله فلا بد من إذن مسبق؛ لأن الشفاعة له.

الشرط الثاني: رضاه عن المشفوع له، والدليل على هذا الشرط، قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].
وقد جمع الله تعالى بين هذين الشرطين في آية النجم، فقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ أي: من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الشافعين، ويرضى عن المشفوع لهم، فتبيّن بهذا معنى قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾.

رابعاً: الحكمة من الشفاعة:

فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك، وصارت الشفاعة لا تحصل إلا بإذن

للشافع، ورضا عن المشفوع له، فما الداعي للشفاعة؟ الجواب عن هذا أن يقال: إن ذلك لإظهار كرامة الشافعين؛ من الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ومنزلتهم عند ربهم، بجعلهم سبباً لحصول المراد. لا كما فهمها المشركون، أنها نوع إدلاء على الله تعالى، كما عند ملوك الدنيا.

خامساً: أنواع الشفاعة:

الشفاعة المذكورة في القرآن، **نوعان**:

١ ـ **شفاعة مثبتة**. وهي ما جمعت شرطي قبول الشفاعة: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فأثبت الشفاعة بشرطيها.

٢ ـ **شفاعة منفية**. وهي الشفاعة للمشركين، لتخلف شرطيها، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، أو التي توهَّمها المشركون لآلهتهم، كما قال قائلهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وكقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فأبطل الله تعالى ذلك.

وكما وقع المشركون الأوائل في إشكالية الشفاعة، وقع فيها المشركون المتأخرون، فصار الذين يقصدون الأولياء والقبور، ويدعون الصالحين إذا أُنكر عليهم ذلك، قالوا: هؤلاء يشفعون لنا عند الله، فنحن ندعوهم لمقامهم ومنزلتهم، وقربهم، عند الله، فهم وسائط بيننا وبين الله، ونحن مسلمون، نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وليس حالنا كحال المشركين، فيقال: لا فرق، بين ما وقع فيه الأوائل من دعاء غير الله ﷻ وما وقعتم فيه، فإن قلتم: نحن ندعو صالحين، فقد دعوا صالحين: كاللات الذي كان يلت السويق للحجاج، والملائكة هم أقرب الخلق لله ﷻ، وعيسى ﵇، وأمه الصديقة، فكانوا يستشفعون بالصالحين، كما تفعلون، ومع ذلك أبطل الله صنيعهم، وأكفرهم بذلك، فلا فرق بين الفعلين.

وأما قولكم: نحن نشهد أن لا إله إلا الله، فيقال: إن شهادة أن لا إله إلا الله تعني: أن لا معبود بحق إلا الله، وألا تصرف العبادة لغير الله، فإن أخللتم بذلك فقد نقضتم شهادتكم.

※ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت مسألة الشفاعة من المسائل التي أشكلت على أهل الإشراك، ففهموها على غير وجهها، ووقعوا بسبب ذلك في الشرك الأكبر، احتيج إلى بيانها غاية البيان.

واستدل المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ النذارة: هي الإعلام بأمر مخوف، وضدها: البشارة، وهي الإعلام بأمر مرجو، ودعوة المرسلين قائمة على البشارة والنذارة، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] فالرسل دوماً مبشرين ومنذرين، يبشرون بوعد الله، وينذرون من وعيده. ومرجع الضمير في **قوله:** ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن العظيم.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فلا ينتفع بالنذارة إلا المؤمن باليوم الآخر، فالإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل العبد على أن ينتفع بالمواعظ، أما من لا يؤمن بالبعث، ولا باليوم الآخر، فلا تؤثر فيه القوارع والمواعظ؛ لأنه يظن أن منتهى الأمر أن يموت، ويتحلل جسده، ويصبح تراباً، وأما من علم بأن ثمّة يوم آخر؛ يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فإنه تنفعه النذارة. فكأن الأمر بالنذارة، هنا، باعتبار حصول أثرها.

وقوله: ﴿أَن يُحْشَرُوا﴾؛ أي: أن يجمعوا، ويساقوا إلى ربهم.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ الولي: مشتق من الولْي، وهو القرب والدنو، فليس لهم من دون الله ولي يحول بينهم وبين الله ﷻ.

قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ سمي الشفيع شفيعاً؛ لأن الشافع ينضم إلى المشفوع له، فصار شفعاً بعد أن كان المشفوع له وتراً.

قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ غاية هذه النذارة ونتيجتها حصول التقوى. وتقوى الله ﷻ؛ تعني: أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله تعالى وقاية، بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وليست الوقاية أن يتخذ شفيعاً، أو وليّاً يدعوه من دون الله، فهذه لا تزيده من الله إلا بعداً.

مناسبة الآية للباب:

مطابِقة للترجمة، وهي نفي الاعتماد على الشفعاء، دون إيمان وتقوى.

فوائد الآية:

١ ـ إثبات الشفاعة لله ﷻ، فلا يستقل بها أحد.

٢ ـ النذارة بالقرآن العظيم، وأنه أعظم المواعظ.

٣ ـ إثبات اليوم الآخر.

٤ ـ فضيلة الخوف من الله واليوم الآخر.

٥ ـ وجوب إفراد الله ﷻ بالدعاء، وعدم دعاء غيره.

٦ ـ إبطال دعاوى المشركين الذين يزعمون أن أولياؤهم شفعاء لهم عند الله ﷻ.

ثم استدل المصنف بقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ وهذه الآية تدل على أن الشفاعة خالصة لله ﷻ، وليست لأحد، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع لمن ارتضى من عباده. ولهذا فإن نبيَّنا ﷺ يوم القيامة يذهب فيسجد تحت العرش، ويحمد الله تعالى بمحامد؛ كالمستأذن، فحينئذٍ يقال له: «**يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفَّع، وسل تعطه**»[(١)].

ولنبيِّنا ﷺ شفاعة خاصة وشفاعة عامة:

١ ـ **الشفاعة الخاصة**: لا يشاركه فيها أحد، وهذه **ثلاثة أنواع**:

الأول: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وهي شفاعته ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم، فإن الخلائق يوم القيامة إذا طال بهم المقام، ودنت منهم الشمس قدر ميل، أو ميلين، وساخ العرق في الأرض سبعين ذراعاً، حتى إن منهم من يلجمه العرق إلجاماً، وبلغ منهم الجهد كل مبلغ، فزعوا إلى آدم عليه السلام وقالوا: اشفع لنا عند ربك، فيحيلهم آدم على نوح، ويحيلهم نوح على إبراهيم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾ [نوح: ١] إلى آخر السورة برقم (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٤).

ويحيلهم إبراهيم على موسى، ويحيلهم موسى على عيسى، وكل من سبق، باستثناء عيسى، ﷺ، يذكر ذنباً أذنبه، فيستحي من الله أن يشفع، ويقول: نفسي نفسي، ويذكر فضل من بعده، حتى يؤول الأمر إلى نبيِّنا ﷺ، فيقول: «**أنا لها**»[1]، **فيأتي، فيسجد تحت العرش، ويُفتح عليه بمحامد، يقول: «لا أُحسنها الآن»** ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فيقول: يا ربي! أمتي، أمتي. فيكون أول من يقضى بينهم أمة محمد ﷺ، فهذه هي الشفاعة العظمى التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

الثاني: شفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، ولا يشاركه في هذه الشفاعة أحد، كما قال في الحديث الصحيح: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[2].

الثالث: شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب؛ وذلك أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه سأل النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك، وينصرك في مكة، فهل نفعته بشيء؟ فقال: «**نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح**»[3]، وقال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين، يغلي منهما دماغه**»[4]؛ فالمشركون في الأصل لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لكن هذه حالة استثنائية نفع النبي ﷺ فيها عمه، فأُخرج من الدرك الأسفل من النار، وخفف عنه، فنُعل بنعلين، يغلي منهما دماغه، وهو أهون أهل النار عذاباً.

٢ ـ **الشفاعة العامة**: وهي التي يشترك فيها النبي ﷺ مع غيره من الأنبياء،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم برقم (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ: «**أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً**» برقم (١٩٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ، لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه برقم (٢٠٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً برقم (٢١٢).

والصديقين، والشهداء، والصالحين، حتى الفَرَط يشفع في والديه، وهذه أنواع **خمسة:**

أحدها: الشفاعة فيمن استحق النار من عصاة الموحدين: أن لا يدخلها.

الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار من عصاة الموحدين: أن يخرج منها، فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يقول: «**اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا**»(١)، وهذان النوعان أنكرتهما المعتزلة، والرافضة، والإباضية؛ لأنهم على عقيدة واحدة في باب الوعد والوعيد، فينكرون الشفاعة، ويثبتها أهل السُّنَّة للأدلة المتكاثرة في الصحاح، والسنن، والمسانيد، والمعاجم، الدالة على إخراج من شاء الله إخراجه، ويقال لهؤلاء الذين أخرجوا بعد أن امتحشوا: «الجهنميون»، وفي الحديث: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ** أو قال **بخطاياهم ـ فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر**(٢)**، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حميل السيل**» فقال: رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية(٣).

الثالث : الشفاعة فيمن تساوت سيئاتهم وحسناتهم أن يدخلوا الجنة، وهؤلاء هم أهل الأعراف، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] فهؤلاء تنالهم شفاعة الشافعين فيدخلون الجنة.

الرابع: الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة؛ حيث يشفع لبعض أهل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٣).

(٢) (ضبائر ضبائر): منصوب على الحال، وهو جمع ضبارة، بفتح الضاد وكسرها، أشهرها الكسر، ويقال فيها أيضاً: إضبارة، قال أهل اللغة الضبائر: جماعات متفرقة. شرح النووي على مسلم (٣/٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار برقم (١٨٥).

الجنة أن ترفع درجاتهم. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

الخامس: الشفاعة في دخول بعض المؤمنين الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ ويدل على هذا النوع حديث عكاشة بن محصن الأسدي، حين أخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فخاض الناس في ذلك، كما تقدم في أول كتاب التوحيد، ثم قال عكاشة بن محصن: «ادع الله أن يجعلني منهم» قال: «**أنت منهم**»[(١)].

فهذه ثمانية أنواع من أنواع الشفاعة. وأهل السُّنَّة يثبتونها جميعاً، ويختص النبي ﷺ بثلاثة منها، لا يشاركه فيها أحد.

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الاستفهام للنفي، والمعنى: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، فدلت على إثبات هذا الشرط العظيم، وهو إذن الله للشافع أن يشفع.

قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (كم): هي التكثيرية الخبرية؛ أي: ما أكثر! وخص السماوات لأنها منازل الملائكة الكرام، وقد قال النبي ﷺ: «**إن السماء أطت**[(٢)]**، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله**»[(٣)]، فالسماء معمورة بالملائكة الكرام، وهؤلاء الملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً، ومعنى «لا تغني»؛ أي: لا تجدي ولا تنفع، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الشافعين، ويرضى عن المشفوع لهم.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **الأطيط**: صوت الأقتاب، **وأطيط الإبل**: أصواتها وحنينها؛ أي: أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء برقم (٤١٩٠)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**» برقم (٢٣١٢) وحسنه الألباني.

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾؛ أي: أدعيتم من الآلهة المزعومة من أشجار، وأحجار، وكواكب، وصالحين، سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا أسلوب تحدي وتعجيز.

قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والذرة: هي النملة الصغيرة، وهذا هو الذي فهمه المخاطبون، ولا وجه أن يقال: إن الذرة في الآية يراد بها الذرة الفيزيائية، المتناهية في الصغر، التي لا ترى بالعين المجردة، كما يقوله بعض المعاصرين، من دعاة الإعجاز العلمي في القرآن! فالواقع أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاطب الناس بما يعرفون، فالذرة التي ذكرت في القرآن هي المعهودة لديهم، مثَّل بها للتدليل على أدق الأشياء وأصغرها، ولم يكن معلوماً عندهم أن المادة تتكون من ذرات، وأن الذرة تتكون من بروتون، ونيوترون، وغير ذلك من المعلومات التفصيلية.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾؛ أي: أن هؤلاء المدعوين الذين أشركتموهم مع الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يملكون استقلالاً، ولا يملكون مشاركة.

قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾؛ أي: مُعين أو معاون، فهو غني عن معاونتهم؛ كما يعاون الخدم والحشم، الأمير أو السلطان، فنفى الله عنهم ثلاثة أمور، وبقي أمر رابع؛ وهو الشفاعة.

قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذا هو الاحتمال الرابع الذي يمكن أن يتعلق به المشركون، وهو أن يقول قائلهم: سلَّمنا وأقررنا أن هؤلاء المدعوين: لا يملكون ذرة استقلالاً، ولا مشاركة، ولا مظاهرة، لكن لمدعوينا مقام وجاه، يدلون به على الله عَزَّ وَجَلَّ، فما دام لهم هذه المنزلة، فنحن

نتعلق بهم وندعوهم! فلذلك محق الله تعالى المتعلق الأخير بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلم يبق شيء يتعلق به المشركون. فهذه الآية العظيمة أبطلت جميع ما يمكن أن يحتج به دعاة الشرك، وهي من أعظم آيات التوحيد.

⁂ مناسبة الآيتين للباب:

ظاهرة، لما فيها من الرد على المشركين الذين يتعلقون بالأولياء، ويطلبون منهم الشفاعة.

فوائد الآيتين:

١ ـ الرد على المشركين الأوائل والمتأخرين.

٢ ـ مشروعية المجادلة والمناظرة للمخالفين؛ لأن الله ندب نبيّه لذلك، فقال له: ﴿قُلْ﴾، وأملى عليه ما ينبغي أن يقول، فلا بد أن يكون في أهل الإسلام من ينتدب للرد والمناظرة، وهكذا كان، فإن العلماء قد انبروا لذلك، وكانوا على ضربين: منهم من يصنف ابتداءً في بيان مسائل الدين الأصلية والفرعية. ومنهم من ينصب نفسه للرد على أهل البدع والمخالفين، وكلا الأمرين مطلوب، ويحسن أن يجمع العالم بينهما؛ فأحدهما في جانب البناء، والثاني في جانب الصيانة.

٣ ـ قطع جميع الأسباب والمتعلَّقات التي يتعلق بها المشركون وهي: الملك، والمشاركة، والمعاونة، والشفاعة، وأنها خالصة لله تعالى.

٤ ـ إثبات الشفاعة؛ وذلك من قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فالاستثناء يدل على وجود شفاعة مثبتة، وهي التي تكون بإذنه.

٥ ـ أن المشركين الذين استشفعوا بمعبوداتهم، لا تنفعهم تلك الشفاعة؛ ولهذا ذمهم الله، فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

* * *

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو العباس: نفى الله عن من سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو أن يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه، ويحمده؛ لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط، واشفع تشفَّع»[(١)].

وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله خالصاً من قلبه»[(٢)]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: «أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه، وينال المقام المحمود»[(٣)].

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.اهـ كلامه[(٤)].

الشرح

قوله: (قال أبو العباس) هذه كنيته، وأما لقبه فشيخ الإسلام، وتقي الدين أيضاً، واسمه: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ، وشهرته تغني عن تعريفه، فهو شيخ الإسلام حقاً، ومجدد الدين صدقاً، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (نفى الله عن من سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث برقم (٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٨). (٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٩).

لغيره ملك، أو قسط منه، أو أن يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾. فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه، ويحمد، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط، واشفع تشفع»[(١)].

هذا في حديث الشفاعة المشهور: أن النبي ﷺ يقول: «**فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع**»[(٢)]، فهو ﷺ لم يبدأ بطلب الشفاعة، ولكن مُنحت له.

قوله: (وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله خالصاً من قلبه»[(٣)]، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله) دل ذلك على أنه لا بد من إذن الله للشافع أن يشفع، بدليل قوله: «**واشفع تشفع**»، ولا بد من رضاه عن المشفوع له، وشرط الرضا: أن يكون من أهل التوحيد والإخلاص، لقوله: «**من قال: لا إلٰه إلا الله، خالصاً من قلبه**»، وإن شابته شائبة كبيرة، لا تبلغ الشرك..

قوله: (وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه، وينال المقام المحمود)[(٤)]، هذه حقيقة الشفاعة: أنها تفضُّل ورحمة من الله ﷻ على من أراد الله تعالى أن يرحمه؛ وذلك بواسطة شفاعة هذا الشافع، الذي أذن له بها، فيكرمه الله على رؤوس الخلائق، بأن يجيز شفاعته، ولا شك أن ذلك كرامة له، ودليل على منزلته عند الله ﷻ، وبهذا يتبين فضل الشفاعة، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، فالمقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم برقم (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث برقم (٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٨).

شفاعته ﷺ لأهل الموقف: أن يُقضى بينهم، وإنما سمي «المقام المحمود» لأن جميع الخلائق تحمده على هذا العمل، الذي كان سبباً في خلاصهم، بعد هذا الموقف الطويل، فلهذا قال ﷺ: **«وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة»**(١).

قوله: (فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.اهـ كلامه)(٢)، فدل ذلك على وجود نوعين من الشفاعة؛ منفية، ومثبتة كما سبق.

وبناء عليه: فإن هؤلاء الذين يضيعون أعمارهم في دعاء غير الله ﷻ، ويتقربون إلى المقبورين والأولياء، ويقولون: نحن في سترك يا فلان، أو نحن في حسبك، ونحن كذا وكذا؛ يخاطبون هذا الميت المقبور، الذي لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، إنما يهدرون أعمارهم، ويفسدون أديانهم، ويرغبون عن الطريق السوي، وهو دعاء الله ﷻ، وسؤاله مباشرة.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى تفسير الآيات.

أي: الواردة في هذا الباب، وقد تقدم بحمد الله.

الثانية صفة الشفاعة المنفية.

وهي التي تطلب من غير الله، التي كان عليها المشركون.

الثالثة صفة الشفاعة المثبتة.

وهي التي تطلب من الله، فتجمع شرطين:

١ ـ إذن الله للشافع أن يشفع.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب المناقب برقم (٣٦١٦) وضعفه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٩).

٢ ـ ورضاه عن المشفوع له.

الرابعة **ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.**

وهي له ﷺ لأهل الموقف؛ ليقضى بينهم، كما قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، فهذا المقام المحمود هو شفاعته لهم.

الخامسة **صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة؛ بل يسجد، فإذا أُذن له شفع.**

وهذا قد جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه، ونبَّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية.

السادسة **من أسعد الناس بها؟**

هو من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه؛ وهذا فضل عظيم؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث**»[1]، فليحقق العبد هذا في نفسه، وليقل: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، وليمرر هذا المعنى على قلبه، في مختلف الأوقات، فإن هذا من أعظم أسباب حصول الشفاعة من النبي ﷺ.

السابعة **أنها لا تكون لمن أشرك بالله.**

لأنه شرط لها الإخلاص القلبي، المنافي للشرك.

الثامنة **بيان حقيقتها.**

كما عبّر شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: «وحقيقته أن الله ﷻ هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ـ يعني: أهل التوحيد ـ فيرحمهم، ويكون ذلك بواسطة من أراد الله أن يكرمه».

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث برقم (٩٩).



باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

في «الصحيح»: عن ابن المسيب عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا، فكان آخر ما قال: «هو على ملة عبد المطلب» وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

الشرح

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

الرد على القبوريين، وأمثالهم الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين النفع والضر، فإذا كان أصلح الصالحين، وأفضل الأولياء، وسيد الأنبياء محمد ﷺ لا يملك نفع من يحب، فكيف بمن دونه؟!

قوله: ﴿إِنَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: لا تهدي من أحببت هدايته،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله برقم (١٣٦٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله برقم (٢٤).

والمراد به: أبو طالب؛ لكنها تشمل من سواه، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ دلت على نفي الهداية عنه ﷺ، ودل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢] على إثباتها له! والجمع بينهما أن يقال: إن الهداية المنفية في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداية التوفيق والإلهام، فهي خالصة لله ﷻ؛ لأنها متعلقة بمشيئته، وحكمته، وربوبيته، لا يشاركه أحد سواه؛ كقوله ﷻ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

والهداية المثبتة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢] هداية الدلالة والإرشاد والتعليم والبيان، وهذه ثابتة للنبي ﷺ، ولسائر الأنبياء، والعلماء، والدعاة، والمربين، وكل من كان على هدى، ودعا إليه. ويدل عليها، أيضاً، قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فهذه هداية دلالة وإرشاد؛ لأنها لو كانت هداية توفيق وإلهام لاستجابوا وآمنوا، لكنهم استحبوا العمى على الهدى، فدل على أن الهداية التي هُدوا إليها هي هداية البيان والدلالة والإرشاد.

وهذا أمر مشاهد: فتجد أن الأب ـ مثلاً ـ يعظ ابنه وينصحه ويقول له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الأحقاف: ١٧]، ومع هذا يأبى، ويقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ [الأحقاف: ١٧]. فهداية الدلالة والبيان والإرشاد والتعليم، تقع من أهلها من الأنبياء، والعلماء، والدعاة، والمربين، والناصحين، والمحتسبين، وأما دلالة التوفيق والإلهام، فهي مما يختص الله تعالى به.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: من أراد الله به خيراً، قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ فالشرح: والضيق أمور إلٰهية سماوية بيد الله تعالى.

قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾؛ أي: هو سبحانه أعلم بمن يستحق الهداية، ممن لا يستحق.

فوائد الآية:

١ ـ الرد على من يعتقد في الأولياء والصالحين نفعاً أو ضرّاً وتصرفاً.

٢ ـ أن هداية التوفيق والإلهام بيد الله.

٣ ـ إثبات صفة العلم لله، وأن له منه المثل الأعلى، لقوله: (أعلم).

٤ ـ إثبات صفة المشيئة؛ لقوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فللّه المشيئة المطلقة؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٥ ـ إثبات الحكمة في أقدار الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾. فمشيئة الله دوماً مقترنة بحكمته، وليست مشيئة محضة؛ فالله تعالى يشاء لحكمة، وأفعاله معللة سبحانه وبحمده، ومبنية على الحكمة والتعليل، بخلاف ما ذهبت إليه الأشاعرة: أن الله يفعل لمحض المشيئة، ولو لم يكن هناك حكمة، وهذا باطل، وقد ألّف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كتاباً ماتعاً في باب القدر: اسمه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) وهو من أحسن ما كُتب في موضوع القدر.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(في الصحيح) ومراده هنا: الصحيحان؛ البخاري ومسلم، أصح الكتب بعد كتاب الله.

قوله: (عن ابن المسيب) هو: سعيد بن المسيب بن حزن، المخزومي، القرشي رَحِمَهُ اللَّهُ، الإمام الثبت الثقة المشهور، مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين.

قوله: (عن أبيه) أبوه: المسيب بن حزن، له ولأبيه صحبة، وقد كانت وفاته زمن عثمان، وقد أراد النبي ﷺ أن يغير اسم حزن إلى سهل، فقال: «لا أغير اسماً سمَّانيه أبي». قال ابن المسيب: «فما زالت الحزونة فينا بعد»[1]، وهذا يدل أن الأسماء مؤثرة».

قوله: (قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة) أبو طالب: عم النبي ﷺ، وقد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب اسم الحزن برقم (٦١٩٠).

كان له حماية ورعاية للنبي ﷺ، فأدخله في جواره، وحماه من قريش؛ لكنه كان مصرّاً على كفره حتى مات.

قوله: (جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل) رجلان من صناديد قريش، كانا يعودانه، وهو يُحتَضر، وجاء النبي ﷺ في تلك الحالة، ومعنى: «حضرته الوفاة»؛ يعني: مقدماتها، وعلاماتها».

قوله: (فقال له: يا عمِّ) منادى، الأصل فيه (يا عمي) فحذف ياء المتكلم، وعوض عنها بالكسرة الدالة على الياء المحذوفة. وخاطبه بآصرة القربى لاستلانة قلبه، واستجلاب عاطفته.

قوله: (قل: لا إلٰه إلا الله، كلمةً) كلمةً بالفتح؛ لأنها بدل من جملة: لا إلٰه إلا الله.

قوله: (أحاج لك بها عند الله)؛ أي: أحتج لك عند الله بها، وأستشفع بها.

قوله: (فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!) عبد المطلب: جد النبي ﷺ، وأبو أبي طالب، وكان من أعظم العرب، ومقدم قريش، وهو الذي جدد حفر زمزم، وكان له ذكر وصيت. فهذان المشركان نخياه بنخوة الجاهلية، وذكَّراه بملة عبد المطلب. ولهذا الأمر وقع في نفس العربي، فالعرب أمة تحتفي بآبائها وأجدادها، ويعتزون بهم، حتى إن الله جعله مثالاً في المناسك، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

قوله: (فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا)؛ أي: أعاد عليه الدعوة إلى قول لا إلٰه إلا الله، فأعاد المشركان عليه قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! وتأمل حال هذا المُحتَضر الذي يلتفت يَمنة ويَسرة، عنده من يدعوه إلى الهدى، ومن يدعوه إلى الضلالة.

قوله: (فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب) وعبّر الراوي بضمير الغيبة «هو» تحاشياً أن يعبر بضمير المتكلم «أنا»، ونظائره في النصوص كثيرة، لكن الراوي استثقل أن يأتي باللفظ الذي يُنسب إلى النفس.

قوله: (وأبى أن يقول: لا إله إلا الله) وهذا يدل على أن العرب كانوا يعرفون دلالات الألفاظ، ومقتضياتها، بخلاف حال الناس اليوم، فليست المسألة مجرد كلمة تقال؛ فالعربي يعلم أن قول: لا إله إلا الله؛ يعني: الكفر بالطواغيت، وباللات والعزى ومناة وهبل، وغير ذلك، ويقتضي الدينونة لله وحده.

قوله: (فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك») حلف النبي ﷺ، فاللام لام القسم، وبعدها نون التوكيد الثقيلة، واستثنى، فقال: «ما لم أنه عنك»، وقد كان.

قوله: (فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾). فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾؛ أي: لا ينبغي له، وليس من شأنه، وحاشاه. وهذا أبلغ من أن يقول: «لا تستغفروا للمشركين». ومثلها في الدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]. فهذا التوحيد الخالص يلغي جميع الروابط، والعلائق، والوشائج، سوى رابطة الإيمان، فإذا تعارضت هذه الروابط مع رابطة الإيمان بطلت. وإن لم تتعارض لم يزدها الإيمان إلا قوة وتوثيقاً.

قوله: (وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾)، وهذا صريح في سبب النزول. والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

مناسبة الحديث للباب:

القصة مطابقة لترجمة الباب؛ لأنها سبب نزول الآية وتفسير لها، وأن النبي ﷺ على عظم قدره، ومنزلته عند ربه، لا يملك لعمه الأحب، الأقرب نفعاً، فكيف يطلب النفع من غيره؟!

فوائد الحديث:

١ ـ جواز عيادة المريض الكافر إذا رجي إسلامه، وقد كان النبي ﷺ يفعل

ذلك، حتى إنه عاد مرة غلاماً يهودياً، وهو على فراش الموت، فقال: «**له أسلم**» فنظر الغلام إلى أبيه اليهودي فقال: «أطع أبا القاسم». فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١).

٢ ـ ضرر قرناء السوء، وشؤم الصلة بهم، فقد حالوا بين أبي طالب وبين النجاة من النار. فليحذر العاقل من رفقاء السوء على مختلف درجاتهم، فلا يلزم أن يحول قرين السوء بين الإنسان والإيمان، ربما كان سبباً في جره للبدعة، أو الفسوق والعصيان، وكما قيل:

عَنِ المرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينهِ   فكُلُّ قَرينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدي(٢)

٣ ـ معرفة العرب معنى: لا إله إلا الله، وأنها تقتضي الكفر بما يعبد من دون الله.

٤ ـ أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قال: لا إله إلا الله، لحاج له بها عند الله ﷻ.

٥ ـ بطلان التعلق بالنبي ﷺ وغيره، لجلب النفع، أو دفع الضر، من الذين يغلون في النبي ﷺ، ويدعونه من دون الله، ؟ كقول قائلهم:

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به   سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ
إنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي   فَضلاً وإلا فَقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ(٣).

٦ ـ كفر أبي طالب، والرد على من زعم إسلامه، فيحاول بعضهم بدافع عاطفي أن يثبت إسلام أبي طالب، وإسلام والدي النبي ﷺ؛ بلا دليل، أو بأدلة موضوعة، أو متكلفة، مخالفة للأدلة الصحيحة الصريحة. فالواقع: أن أبا طالب مات على الشرك، فإن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب.

٧ ـ مضرة تقليد الآباء والأجداد، إذا كانوا على باطل.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام برقم (١٣٥٦).

(٢) البيت لعديّ بن زيد العباديّ كما في التذكرة الحمدونية (١/ ٢٨٦).

(٣) من بردة البوصيري. ينظر: ثلاثية البردة (ص٨١، ٨٢).

📖 **ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

فيه مسائل:

الأولى تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وأن المراد بهذه الهداية المنفية: هداية التوفيق والإلهام، فهي خاصة بالله تعالى.

الثانية تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

فتدل على عدم جواز الاستغفار للمشركين مطلقاً، ومن تطبيقاتها: ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»(١).

الثالثة **وهي المسألة الكبرى: تفسير قوله ﷺ: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه من يدعي العلم.**

أن تفسير: لا إله إلا الله: الكفر بما يعبد من دون الله، وعدم دعاء غير الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو تفسيرها الذي عرفه أبو طالب والمشركون الأولون، ويتجاهله مشركو هذا الزمان.

الرابعة **أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله» فقبّح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.**

هذا يدل على سوء حاله، أن يكون أبو جهل أعرف منه بحقيقة الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في باب استئذان النبي ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يزور قبر أمه، برقم (٩٧٦).

ويقال: إن أحد العرب سأل أحد الصحابة: إلام تدعون؟ قال: إلى «لا إله إلا الله»، فقال: والله لتقاتلنكم الروم والعجم، فانظر كيف استنبط هذا المعنى؟ أدرك أن هذه الكلمة العظيمة الثقيلة، لها تبعات، وليست كلمة تقال باللسان؛ لأن أصحاب الأهواء والشرك، سوف يذبون عن هذه المصالح التي يحصلون عليها، فيحملون السلاح في وجه أهل الإسلام.

الخامسة **جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.**

وذلك لأن لعمه حق خاص لقرابته؛ ولأنه كان يذود عنه، ويحميه؛ ولهذا لما سأله العباس:

هل نفعت عمك بشيء؟ قال: «**نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح**»[1]، فخُفِّف عنه بسبب شفاعة النبي ﷺ، وهذه من أخص أنواع الشفاعة.

السادسة **الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.**

من ذوي الدوافع العاطفية، التي لا تقوم على حجة وبرهان؛ بل تعتمد على استدرار عواطف العوام. فملة عبد المطلب هي الشرك، بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» حين أمره النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فهي نقيض التوحيد.

السابعة **كونه ﷺ استغفر له، فلم يُغفر له؛ بل نُهي عن ذلك.**

لأنه قال: «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»[2]، فنهي بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ مع أن الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله ﷻ أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله، لا بيد الرسول، ولا غيره.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ، لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه برقم (٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله برقم (١٣٦٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله برقم (٢٤).

الثامنة **مضرة أصحاب السوء على الإنسان.**

إذ لولا صحبة هذين الرجلين لربما قال أبو طالب: لا إله إلا الله، عندما عرضها عليه النبي ﷺ، لكنهما استثارا نعرة الجاهلية، فامتنع، وهذا يدل على مضرة رفقاء السوء في جميع سلوك الإنسان، لا سيما في باب الإيمان.

التاسعة **مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.**

وهذه محنة الأمم السابقة التي صدتهم عن اتباع الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]. فعلى الإنسان أن يتخلص من هذا القيد، فلا تحمله عاطفة، أو عصبية، أو نخوة جاهلية، على رد الحق؛ بل عليه أن ينأى بنفسه عن كل هذا، ولا يقع أسيراً مرتهناً لهذه العادات الموروثة عن الآباء والأجداد، إذا كانت تخالف الشرع.

العاشرة **استدلال الجاهلية بذلك.**

وهي قولهما: «**أترغب عن ملة عبد المطلب؟!**»، وكذلك يقول مشركو الزمان.

الحادية عشرة **الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته.**

ففي «صحيح البخاري»: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(١)، ولهذا ينبغي للإنسان دوماً أن يسأل الله حسن الخاتمة، ففي حديث أبي مسعود المشهور: «فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار»(٢). فهذا يوجب للإنسان أن يكون بين الخوف

---

(١) أخرجه البخاري في باب العمل بالخواتيم، برقم (٦٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه ـ وذريته برقم =

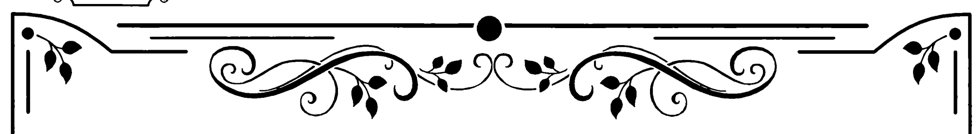
والرجاء، وألا يركن إلى حاله، أو يعجب بنفسه؛ بل يسأل الله العصمة والثبات.

الثانية عشرة **التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.**

الشبهة هي: الاعتزاز بالآباء والأجداد، والملة السابقة، فكل من احتج بمثل هذا، ففيه شبه من المشركين؛ كأن يقول قائل: أدركنا علماءنا ومشايخنا على هذه الطريقة، هذا لا يغني شيئاً؛ بل يجب الرد عند التنازع والاشتباه إلى الله، وهو كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وإلى سنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].



= (٣٣٣٢)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣).

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي «الصحيح»: عن ابن عباس ﵄ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: ٢٣] **قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي[(١)] العلم عُبدت»[(٢)].**

وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم»[(٣)].

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله»[(٤)]، أخرجاه.

---

(١) في صحيح البخاري (٦/ ١٦٠): و(تنسخ العلم)؛ أي: زالت معرفة الناس بأصل نصبها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾، برقم (٤٩٢٠).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ [مريم: ١٦] برقم (٣٤٤٥)، ومسلم في الحدود، باب رجم الثيب في الزنا برقم (١٦٩١).

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»(١).

ولمسلم: عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً(٢).

الشرح

كان بنو آدم على ملة واحدة، هي التوحيد، كما قال الله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، فوقعوا في الشرك بسبب الغلو في الصالحين. **والغلو**: مجاوزة الحد، وهو بمعنى: الإفراط، فكلُّ مجاوزة للحد؛ سواء كان في القول، أو الاعتقاد أو العمل، فإنه يُعد غلوّاً. والمراد «**بالصالحين**» جمع صالح، فيتناول عند الإطلاق جميع أصناف المؤمنين، والأنبياء، والصديقين، والشهداء. أما عند الاقتران، فالصالحون هم: الممتثلون لأوامر الله، المجتنبون لمناهيه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان الشرك نقيض التوحيد، ناسب أن يعقد المصنف باباً يذكر فيه السبب الذي أوقع بني آدم في الشرك، بعد أن كانوا على التوحيد؛ ليُحذر ذلك الأمر ويجتنب، ولا يقع الناس فيما وقع فيه أسلافهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ هذا نداء من الله ﷻ إلى أهل الكتاب، وأهل الكتاب المراد بهم حصراً: اليهود والنصارى، ومما يدل على ذلك قول الله ﷻ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا

---

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي برقم (٣٠٢٩) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون برقم (٢٦٧٠).

عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦]، والطائفتان اللتان أُنزل عليهما التوراة والإنجيل، هم اليهود والنصارى.

وهذا المصطلح (أهل الكتاب) لا يدل، بحد ذاته، على مدح ولا ذم، فإنهم أهل الكتاب بمعنى: أن الكتاب أنزل عليهم؛ ولهذا يُعبر الله تعالى أحياناً بقوله: ﴿أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الشورى: ١٤]، فلا يكون مدحاً لهم إلا إذا أقاموهما به، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وإن هم ضيعوهما كان ذلك ذمّاً، وعاد حجة عليهم.

وقد آل الحال بأهل الكتاب إلى تحريفه، وتضييعه؛ ولما بُعث نبيّنا ﷺ كانت فرصة سانحة لأهل الكتاب أن يرجعوا إلى ملة إبراهيم، فإن الله تعالى قد قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]، فكان القرآن رافعاً للإشكال والالتباس الذي وقع فيه اليهود والنصارى، فلو أنهم اغتبطوا بنعمة الله، وقبلوا ما ساق الله تعالى إليهم من الخير لنجوا وسعدوا، وقد جرى ذلك لكثير منهم ـ ولا ريب ـ، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥]. فهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين؛ لأنهم آمنوا برسولهم الأول، ثم آمنوا بمحمد ﷺ ثانياً، بخلاف الذين أصروا على كفرهم وتكذيبهم، وقولهم بأن الله ثالث ثلاثة، وأن عيسى ابن الله، أو هو الله، وقولهم بالحلول والتجسد والبنوة، وغير ذلك من العقائد الباطلة التي عليها نصارى اليوم، أو اليهود الذين قالوا: عُزير ابن الله، وكذَّبوا بمحمد ﷺ.

وقد وجه الله تعالى إلى أهل الكتاب جملة من النداءات، من بينها هذا النداء العظيم:

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا ما أمركم الله تعالى به في العقائد والأعمال. وأكثر غلو النصارى في العقائد، وأكثر

غلو اليهود في الأعمال، وإن كان قد وقع لكلا الطائفتين غلو في الاعتقاد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فغلوا في البشر، ورفعوهم فوق منزلتهم، وتجاوزوا بهم الحد، وشبَّهوهم بالخالق، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

ثم إن النصارى لم يزالوا يغلون في عيسى عليه السلام حتى قالوا: هو الله، أو ثالث ثلاثة، وجعلوا الإلٰه مكوناً من ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس، كما أنهم غلو في الحواريين، ومن يسمونهم الرسل؛ كبولس، والأساقفة، وأطلقوا عليهم لقب «قديسين»، وزعموا أنه إذا اجتمع الأساقفة في «مجمع» واحد، فإنهم معصومون، وأن «الروح القدس» يوجههم. فنشأت (المجامع النصرانية) التي ابتدأت من مجمع نيقية، سنة (٣٢٥) للميلاد، وتلتها مجامع متعددة، كان آخرها المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي دام من سنة (١٩٦١م) إلى (١٩٦٥م). فيعتقد النصارى الكاثوليك: أنه إذا اجتمع أساقفتهم الذين على وجه الأرض في مجمع مسكوني ـ والمسكوني نسبة إلى الأرض المسكونة ـ فإن جميع قراراتهم ودساتيرهم تكتسب العصمة؛ بل غلا بعضهم وزعم العصمة لبابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وفي المقابل، فهم مفرِّطون في الأعمال، فلا عبادة عند النصارى، ولا التزام بالشريعة؛ لأن (بُولس) أفسد دينهم، وأقنعهم أن مجرد الإيمان بيسوع المخلص ـ كما يقولون ـ يبررهم؛ أي: يحصل لهم بذلك البر، ويسقط عنه الناموس؛ أي: الشريعة، فيكون معفىً من اتباع شريعة موسى! هذا معنى «التبرر» عندهم. ويلاحظ أن النصارى ليس عندهم عبادات تُذكر، وغاية ما في الأمر أن يحضر أحدهم قدَّاساً يوم الأحد، ويستمع إلى موعظة القسيس، وبعض التراتيل، ويتناول العشاء الرباني «الأفخارستيا» من يد الكاهن، وهو كسرة خبز مغموسة بنبيذ، ثم ينصرف.

أما اليهود فقد غلوا في الاعتقاد، كما غلوا أيضاً في الأعمال، فصار عندهم تشدد في أمر الذبائح، والطهارة، وغير ذلك، حتى صار الدين كالأغلال والآصار عليهم، ولو آمنوا لسلموا ونجوا، كما قال تعالى؛ فنهاهم الله تعالى عن الغلو، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

مناسبة الآية للباب:

واضحة جلية، حيث نهى الله فيها أهل الكتاب عن الغلو، فأبوا، وغلوا في أنبيائهم وصالحيهم، فكفروا، وخرجوا عن دين أنبيائهم. وهو نهي وتحذير لهذه الأمة أيضاً أن تسلك مسلكهم؛ وذلك أن نبيَّنا ﷺ قد أخبرنا فقال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[1]، وقد وقع فعلاً، في هذه الأمة غلو، وإن كان بنسبة أقل، من أفراد غلوا في الأنبياء، والصالحين، والأولياء، ورفعوهم فوق منزلتهم، وأطلقوا عليهم الأوصاف والمدائح التي لا تنبغي إلا لله. وبقيت الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، شاهدة بالحق، في كل زمان ومكان، ولله الحمد والمنة.

فوائد الآية:

١ ـ تحريم الغلو.

٢ ـ الرد على اليهود والنصارى فيما أحدثوه في دينهم.

٣ ـ أن الغلو قد يقع في الأشخاص، برفع شخص فوق منزلته، وقد يقع في الأعمال بابتداع ما لم يشرعه الله تعالى.

٤ ـ فضل دين الإسلام، وأنه دين التوسط والاعتدال؛ بين إفراط اليهود، وتفريط النصارى، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمن لزم السُّنَّة المحضة فقد سار في طريق وسط لا عوج فيه.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» برقم (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (في الصحيح) المراد بالصحيح هنا: صحيح البخاري.

قوله: (عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في قوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾) القائلون هم قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يتواصون فيما بينهم؛ يقول بعضهم لبعض: تمسكوا بما أنتم عليه، ولا تتركوا عبادة آلهتكم، وعلى وجه الخصوص هؤلاء الخمسة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وخصوا هؤلاء الخمسة بالذكر؛ لشهرتهم، ومنزلتهم عندهم. وقد عرّفهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: «**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً**»؛ أي: اعمدوا وأقيموا أنصاباً، والأنصاب: هي الأصنام المصورة، وسمُّوها بأسمائهم. ففعلوا، وهذا إيحاء شيطاني، متلبس بالصلاح والموعظة، يستزل به الجهال، فكأنه قال: إن أنتم تركتم هؤلاء الخمسة الفضلاء، بعد موتهم، فسوف تنسونهم، وتكسلون عن العبادة، والرأي: أن تتجهوا إلى مجالسهم التي كانوا يُعلِّمون فيها العلم، ويعظون فيها الناس، وتنصبوا صوراً وتماثيل لهم، تسمونها بأسمائهم، حتى إذا رأيتموهم تذكرتم مجالسهم، ونشطتم على العبادة. هكذا كيد الشيطان، وتزيينه، وتسويله، واستزلاله للأغرار. ولو قال لهم من البداية: اعبدوهم! لرفضوا مقالته؛ إذ كانوا حديثي عهد بتوحيد، لكنه أتاهم بالتدرج؛ شيئاً فشيئاً، فاكتفى من الجيل الأول بهذا التعظيم، وقبل منهم.

قوله: (ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك) وهم الجيل الأول، الذين نصبوا الأنصاب.

قوله: (ونسي العلم)؛ أي: اندرس؛ لأن العلم يندرس بموت العلماء العاملين، وعدم وجود من يحفظه في الصدور، لا في السطور، فقد تُوجد الكتب، ومع هذا يُهجر العلم؛ فالعبرة بالعلم المقترن بالعمل.

قوله: (عُبدت) فإن الشيطان أتى إلى من بعدهم، وأغراهم بعبادتهم، وقال: هؤلاء شفعاؤكم عند الله، فادعوهم، وارجوهم، فلهم منزلة عند الله، فعبدوهم، وهكذا وقع الشرك.

وفي بعض الآثار عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا[(١)]، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ أي: على التوحيد، فاختلفوا في عباداتهم، وأشركوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قوله: **(قال ابن القيم** رحمه الله**: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم)**[(٢)]، كلام ابن القيم، رحمه الله، زيادة بيان لما رواه البخاري عن ابن عباس، وفيه زيادة: وهي العكوف؛ أي: وافق رواية البخاري في صنع التصاوير والأنصاب، وزاد على ذلك ذكر العكوف، بمعنى: أنه أغراهم في البداية أن يعكفوا على قبورهم، فعكفوا على قبورهم، تعظيماً لهم، وانجذاباً إليهم. ثم نقلهم إلى مرحلة أخرى فقال: يطول بكم ذلك؛ فانصبوا لهم أنصاباً في مجالسهم حتى يسهل عليكم استصحاب ذكرهم، فهكذا يتسلل الشيطان إلى قلوب الآدميين ويتلطف بالإغراء والوسوسة، فينبغي للمؤمن الفطن، الكيِّس، الحاذق، أن يجعل على قلبه حارساً يفحص الواردات، ويميز بين الواردات الإيمانية، والواردات الشيطانية، فلا يستدرج إلى هلكة.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، ففيه أن الغلو في الصالحين يُفضي إلى عبادتهم.

فوائد الحديث:

١ ـ أن الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الشرك.

٢ ـ التحذير من التصوير، لا سيما تصوير المعظَّمين؛ من الأمراء، والعلماء، والصالحين، لما يؤدي إلى التعلق والغلو. فيجب الحذر من التصاوير، لا سيما ما كان منها منحوتاً؛ لأنه أبلغ في المضاهاة، سواء كان منحوتاً من

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٤/ ٢٧٥).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٨٤).

خشب، أو حجر، أو خزف. وإذا توجه الإنسان إلى كثير من بلاد المسلمين ـ للأسف ـ وجد هذه الأنصاب مبثوثة في الميادين العامة، والأماكن المشرفة. وهذا من أعظم الأسباب المفضية إلى الشرك بالله تعالى.

٣ ـ الحذر من مكائد الشيطان وأحابيله؛ فإن الشيطان لا يأتي دفعة واحدة، وإنما يتدرج في إيقاع العبد بما أحب، درجات. فليكن المؤمن على حذر أن يوقعه في البدعة، أو في الكبيرة، أو في الغفلة. ينبغي للمؤمن أن يكون يقظاً، ولا يكون غافلاً عن مكائد الشيطان. ومع ذلك فإن الشيطان على تلطفه، وتسلُّله إلى النفس بمختلف الوسائل، فإن كيده ضعيف أمام النفس المؤمنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

٤ ـ فضل العلم وأهله؛ لقوله: «حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم عُبدت» فالعلم حصانة، وعصمة، فإن الله يرد به شرّاً كثيراً، وأهل العلم هم أوتاد الأرض، ونجوم السماء، إذا هم أدوا ما حملهم الله إياه، وشرفهم به.

٥ ـ أن فقد العلم لا يكون بفقد الكتب المسطورة والأوعية الصوتية، والأقراص المدمجة، وإنما يكون بفقد العلماء، كما في الحديث: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[1].

٦ ـ ذم التقليد؛ لأن من جاء بعدهم قلدوا أسلافهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ وقد مر في الباب السابق قريب من هذا المعنى في قصة أبي طالب، حين نخاه المشركان بنخوة الجاهلية: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» فتقليد الآباء والأجداد على الباطل، من أعظم أسباب الضلال.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم برقم (١٠٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه برقم (٢٦٧٣).

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ اللهُ:

(عن عمر رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»)**، وهذا من تواضعه ﷺ، فإنه نهى أصحابه عن الإطراء. والمقصود بـ(الإطراء): المبالغة بالمدح، والتزيد فيه، وربما كان الإطراء الذي قصده النبي ﷺ هو هذا النوع الذي قيده بقوله: **(كما أطرت النصارى ابن مريم)**، ولا يعني ذلك عدم التوسع في الثناء عليه ﷺ، وذكر سيرته الشريفة، وشمائله الطاهرة، ولكن ما جاوز ذلك كان مذموماً، فالنصارى غلت في المسيح عليه السلام، فمنهم من اعتقد أنه الله، ومنهم من اعتقد أنه ابن الله، ومنهم من اعتقد أنه ثالث ثلاثة، ومنهم من يخلط بين ذلك كله، ويعبِّر بتعبيرات فلسفية غامضة؛ فيزعمون أن الله تعالى حل في جسد المسيح، وأن المسيح هو الإله الذي يمشي بين الناس، وأنه هو الذي قُبض عليه، وعُلق على الصليب، ومات، ثم يزعمون أنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام. تارة يتحدثون عن الله، فينقلب الحديث عن الابن! ويختلط «الناسوت» بـ«اللاهوت»، فلا يستطيعون التعبير عنه بلغة واضحة مقنعة، فلهذا كثر اختلافهم، ووصفوا بالضلال، حتى قال بعض أهل العلم: لو اجتمع عشرة من النصارى ليبحثوا قضية واحدة لخرجوا بأحد عشر قولاً، فهم «الضالون» الذين ضلوا عن سواء السبيل.

قوله: (إنما أنا عبد) أداة حصر، فقطع الطريق على كل نزعة غلو.

قوله: (فقولوا: عبد الله ورسوله) هذا من حسن التعليم والتلقين. فالأصل فيه العبودية كسائر الناس، ولكنها عبودية خاصة، فإنه أكمل الناس عبودية لله رب العالمين. وقد جمع النبي ﷺ لنفسه بين وصفين، كما جمع الله تعالى له هذين الوصفين وهما:

١ ـ **أنه عبد**: وفي وصفه بالعبودية رد على أهل الغلو الذين يرفعونه إلى مقام الألوهية.

٢ ـ **أنه رسول**: وفي وصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء الذين يقدحون فيه ﷺ، ولا يعزروه، ولا يوقروه. فالحق وسط بين ضلالتين، وعدل بين عوجين، ووسط بين طرفين.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من النهي عن الإطراء الذي هو مقدمات الغلو المفضي إلى التأليه. وأن النبي ﷺ الذي هو أكرم بني آدم على الله ﷻ يشرَّف بوصفه بالعبودية، فمن زاد عن وصفه بالعبودية والرسالة فقد غلا، وأفضى به ذلك إلى الشرك، ومن أمثلة ذلك أبيات البوصيري، التي يقول فيها:

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به ... سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ
إنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي ... فَضْلاً وإلا فَقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتِهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللوحِ وَالقَلَمِ[(١)]

فمثل هذه الأبيات لا تزيد صاحبها قرباً من الله، ولا محبةً من رسوله، ولو سمعها النبي ﷺ لأنكر عليه، كما أنكر على من قال أقل من ذلك ـ كما سيأتي ـ فإن في هذا منازعة لله تعالى في خالص حقه في ألوهيته، وربوبيته أيضاً، ولكن الغلو يعمي ويصم، فنسأل الله ﷻ أن يلزمنا كلمة التقوى.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الغلو، ومجاوزة الحد في المديح.

٢ ـ كمال شفقة النبي ﷺ ونصحه لأمته.

٣ ـ أن الغلو في الصالحين يفضي إلى الشرك، كما أفضى الغلو في عيسى بالنصارى إلى الشرك، فكذلك من غلا في النبي ﷺ فإنه يفضي به إلى الشرك.

٤ ـ التحذير من التشبه باليهود، والنصارى، وسائر الكفرة؛ فالواجب أن يربأ المسلم بنفسه عن السير على طريقهم وتقليدهم. وأنه لمن دواعي الأسف أن نجد الآن كثيراً من المسلمين يحاكي النصارى الغربيين في عاداتهم وتقاليدهم؛ كإقامة حفلات الميلاد لأولاده؛ من بنين وبنات، ويُطفئ الشموع بعدد سنوات عمره، وغير ذلك، ولم يكن هذا جارياً بين المسلمين، ولا من عادة أهل الإسلام، وإنما شاهدوه في الأفلام وقرأوه في القصص والروايات، فصاروا يحاكونه، يظنون أن هذا لا يقدح في الدين، وهو في الحقيقة يهدم الدين؛ لأن

---

(١) من بردة البوصيري. ينظر: ثلاثية البردة ﷺ (ص٨١، ٨٢).

من تشبه بقوم فهو منهم. فعلينا أن نعتز بديننا، وأن نعلم أن الله أكرمنا بكرامة عظيمة، حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فلا يليق بأمة الرسالة، والقيادة، والريادة، أن تكون ذيلاً وتبعاً لمن هم دونها.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قال رسول الله ﷺ) هكذا ذكر المصنف هذا الحديث دون عزوٍ إلى مصدره، في جميع النسخ. والحديث رواه الإمام أحمد[1]، وابن ماجه كما تقدم، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (إياكم والغلو) (إياكم): اسم فعل بمعنى: احذروا، عكس عليكم. و(الغلو) منصوبة بالفعل المحذوف، (احذروا).

قوله: (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)؛ أي: من الأمم، وهذا يشمل اليهود والنصارى، وغيرهم. وهذه جملة تعليلية تفيد الطمأنينة للحكم، وإمكان القياس، وسمو الشريعة.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، فإن فيه النهي عن الغلو مطلقاً.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن الغلو؛ لقوله: «**إياكم**».

٢ ـ فضيلة الاعتبار بحال الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢] وهذا هو السير المثمر، وليس السير لتتبع الآثار، والتعجب من المباني، والمخلفات، والتراث، ففائدة ذلك قليلة، وإنما المفيد: نظر الاعتبار. ولقد وجه القرآن الكريم إلى الاعتبار بمساكن الأمم السابقة التي يمرون عليه، فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣٢٤٨) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم». وصححه الألباني.

تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦] وهي مدائن صالح في وادي القرى، فكانوا يمرون ويرون هذه البيوت المنحوتة من الصخر، مما يدل على قوة أهلها، ومع ذلك أهلكهم الله ﷻ. ولما مر النبي ﷺ بوادي القرى أمر أصحابه فقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم**»(١)، وقنّع النبي ﷺ رأسه ووجهه، وأرخى الزمام لناقته، ومر سريعاً؛ لأنها أرض عذاب، فالذي ينبغي للإنسان ألا يذهب للتنزه، والترفه، والتسلية في هذه الأماكن، وإنما يدخلها للاعتبار والاتعاظ، هذا هو المطلوب.

٣ ـ حرص النبي ﷺ على أمته؛ فالنبي ﷺ ما ترك شاذة ولا فاذة إلا ونبه أمته عليها، كما قال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»(٢). فلا يمكن أن تجد مسألة من المسائل، أو نازلة من النوازل، إلا وفي ديننا ـ ولله الحمد ـ الشفاء والغناء والكفاية.

٤ ـ وجوب الاعتدال في جميع الأمور. فيجب على المسلم أن يحذر من جميع صور الغلو، فالغلو هو الذي أوقع الخوارج في تكفير المسلمين، واستحلال دمائهم، وأموالهم، والغلو هو الذي أوقع الرافضة في تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورفعه فوق منزلته، وأهل بيته من بعده، ولا تكاد تجد فرقة من الفرق الهالكة، إلا وقد غلت في شيء من الأشياء:

فالمشبهة: غلو في الإثبات، حتى وقعوا في التمثيل.

والمعطلة: غلو في التنزيه، حتى وقعوا في التعطيل.

والقدرية: غلو في إثبات أفعال العباد، حتى أنكروا القدر.

والجبرية: غلو في إثبات أفعال الله ﷻ، حتى سلبوا العبد مشيئته وفعله.

فليحذر الإنسان من الغلو، وليكن معتدلاً وسطاً، والوسطية تكون في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب برقم (٤٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم برقم (٢٩٨٠).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٦٣).

العقائد، وفي العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق، وفي النفقات، وفي كل شيء. كما قيل:

علــيـك بـأوســاط الأمــور فــإنــهــا طــريــق إلــى نــهــج الــصــواب قــويــم
ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كــلا طــرفــي قــصــد الأمــور ذمــيــم

وأما الغلو في العبادات **فله صور**:

منها: أن يحدث في دين الله ما ليس منه، بأن يبتدع أذكاراً، أو أوراداً، أو صلوات، أو أفعالاً، لم يأتِ بها النبي ﷺ، فهذا نوع من التجاوز.

ومنها: أن يأتي إلى أمر مشروع فيزيد فيه، أو يدعه؛ كالثلاثة النفر الذي قال أحدهم: «أنا أصوم الدهر، ولا أفطر»، مع أن الصوم في أصله مشروع، وقال الآخر: «أما أنا فإني أصلي الليل أبداً»، مع أن القيام مشروع، وقال الثالث: «أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً»(١)، مع أن الزواج مشروع، فينبغي للمسلم أن يسُوس نفسه سياسة معتدلة؛ لأن النفس كالدابة التي يركبها؛ من حصان، أو بغل، أو سيارة، فإن حمّلها ما لا تطيق أعيت، وتعطلت، وإن ترفَّق بها، واغتنم نشاطها، سارت حثيثاً، وحفظ عليها نشاطها، واستبقى مادتها.

وأما الغلو في المعاملات: فيكون بأكل الربا، واللعب بالميسر، وبيوع الغرر، لتجاوزها حد العدل والإنصاف، وما يترتب عليه من المجازفة، والمضارة المنافية للتوسط.

وأما الغلو في الأخلاق: فيكون بتجاوز الحد الأوسط؛ فيكون كرمه إسرافاً وتبذيراً، وشجاعته تهوراً وهلكة، وقوته بطشاً وتنكيلاً. وهكذا.

وأما الغلو في النفقات: فيكون بالخروج عن «القوام»، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

فليكن المسلم معتدلاً في كل شيء؛ في عقائده، وعباداته، ومعاملاته، وأخلاقه، ونفقاته؛ بل وفي عواطفه ومشاعره؛ لأن من الناس من إذا أحب أسرف، وإذا أبغض أسرف، وقد جاء في بعض الآثار: «أحبب حبيبك هوناً ما،

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... برقم (١٤٠١).

عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»(١)، فينبغي للإنسان ألا يشتط، ولا يغلو في شيء من الأمور، حتى تنضبط نفسه، ويعتدل ميزانه.

* * *

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ولمسلم: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً)؛ أي: كررها ثلاث مرات، و**(هلك)** إما خبر عنهم، وإما دعاء عليهم بالهلكة، ولا مانع من اجتماع الأمرين.

قوله: (المتنطعون) جمع متنطع، والتنطع: التعمق في الشيء، والمبالغة فيه، والتكلف. فمن التنطع في العقائد: الغلو في الصالحين، وما يحصل من المبالغة في إطرائهم، وتعظيمهم. والصواب: أنه إن كان صاحب فضل وعلم ودين، فحقه الاحترام، والإجلال، والانتفاع بعلمه وفضله، والتأسي بأخلاقه، لا بالتمسح به، والانحناء له، ولحس يديه، مما يفعله الجاهلون.

ومن التنطع في العبادة: ما يفعله الموسوسون، من الإسراف في استعمال الماء في الوضوء والغسل، وقد حدثني بعضهم: إنه لا يدخل دورة المياه حتى يشغل «الدينامو»؛ لأن الماء ينتهي في الخزان! مع أن خير الورى ﷺ يتوضأ بُمد، ويغتسل بصاع، وهو أوفر منا شعراً، وأعظم فضلاً.

ومن التنطع: التشدق في الكلام، فمن الناس من يتشدق في كلامه، ويعبر بالألفاظ المغربة، ويقع في التكلف الذي برّأ الله منه نبيّه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦]. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ»**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ،

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض برقم (١٩٩٧) وصححه الألباني.

وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**»(١).

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من ذم التنطع، وهو نوع من الغلو، والدعاء على المتنطعين.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن التنطع في جميع الأشياء.

٢ ـ الحث على الاعتدال في جميع الأشياء.

٣ ـ حرص النبي ﷺ على هداية أمته، وحملهم على المنهج السوي الصحيح.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبيّن له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله، وتقليبه للقلوب العجب.

الأبواب الثلاثة المشار إليها هي:

ـ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

ـ باب ما جاء من التغليظ فيمن عَبَدَ الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده.

ـ باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثاناً تُعبد من دون الله.

وهي تكشف عما آل إليه حال كثير من الناس، وحكمة الله في ابتلائهم.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين.

كما أفصح عنه تفسير ابن عباس للآية، وأن هذه الأصنام المعبودة، أسماء لرجال صالحين.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠١٨)، وأحمد برقم (١٧٧٦٧)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (١٣٠٨)، وغيرهم، وصححه الألباني.

الثالثة **أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.**

الشيء هو عبادة الصالحين، وسبب ذلك هو الغلو فيهم، مع إقرارهم بالنبوات.

الرابعة **قبول البدع، مع كون الشرائع والفطر تردها.**

البدعة: هي الإحداث في الدين، ومع ذلك تقبل، وتنطلي على الغافلين، مع أن العقل والشرع يأبيان البدعة؛ لأن البدعة استدراك على الدين، وتنقُّص للشريعة. فقد تمكن الشيطان من تمرير هذا الإحداث على بني آدم، بتزيينه ووسوسته.

الخامسة **أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل. فالأول: محبة الصالحين. والثاني: فعل أناس من أهل العلم شيئاً، أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.**

وهذا ملحظ مهم، وهو أن سبب ما وقعوا فيه، هو لبس الحق بالباطل، بأن دعاهم الشيطان إلى تعظيم الصالحين، وإظهار محبتهم لينشطوا على العبادة، وهذا حق، لكنه خرج بهم إلى حد الغلو؛ وهو: إقامة الأنصاب لهم، إبقاءً لذكرهم، فآل الأمر بمن بعدهم إلى دعائهم وعبادتهم. ولولا هذا الحق الممزوج بالباطل ما قُبل منه. فمهمة الراسخين في العلم: تمييز الحق من الباطل، والمحكم من المتشابه، والتحذير من الخلط والتلبيس.

السادسة **تفسير الآية التي في سورة نوح.**

وقد تبيّن تفسيرها بحمد الله، من كلام ابن عباس رضي الله عنهما. وتتمة ذلك أن نعلم: أن هذه الأصنام رجعت في قبائل العرب، مع أنها كانت في زمن نوح؛ لأنه لما جاء الطوفان طمرت، وكانت في موضِع في جُدة، فأتى الشيطان إلى عمرو بن لحي في منامه، وقال له: «ائت صفا جُدة، تجد فيها أصناماً مُعَدَّة، فأوردها تِهامة ولا تهب،

ثم ادع العرب إلى عبادتها تُجَب»[1]، فذهب، وكشف عنها، وفرّقها في قبائل العرب، وزاد على ذلك فأحضر «هبل» من البلقاء، وجعله في مكة، فهو يتحمل وزر المشركين الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة، وقد قال النبي ﷺ: «**رأيتُ عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، أبا بني كعب هؤلاء، يجر قصبه في النار**»[2].

السابعة **جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.**

هذا من تأثير الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى، وإلا فقد فطرها الله على التوحيد.

الثامنة **فيه شاهد لما نقل عن السلف: أن البدعة سبب الكفر.**

لأن البدعة خروج عن النص والدليل، فالبدعة لم تكن في مبدئها شركاً، فمجرد إقامة الأنصاب ليس شركاً، وإنما بدعة عملية، ثم أدت بهم تلك البدعة إلى عبادتها، فصارت شركاً.

التاسعة **معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حَسُن قصد الفاعل.**

الشيطان يدرك طبيعة بني آدم؛ ولهذا تدرَّج معهم، مستغلّاً حسن القصد، المقترن بالجهل، فبدأ بهم بالبدعة؛ لمعرفته بما تؤول بهم إليه.

العاشرة **معرفة القاعدة الكلية، وهي: النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.**

القاعدة الكلية قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ وهي مطَّردة في جميع الأمور؛ في العقائد، والعبادات، والعادات، والأخلاق، والنفقات، وفي كل شيء.

---

(١) تلبيس إبليس (ص٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم (٢٨٥٦).

الحادية عشرة **مضرة العكوف على القبر؛ لأجل عمل صالح.**

لما نقل ابن القيم عن السلف: (لما ماتوا عكفوا على قبورهم)، وسيأتي له مزيد بيان في البابين اللذين أشار إليهما المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن العكوف على القبور، وطول والمكث عندها، ولو لعمل صالح، يُؤدي إلى هذه المضرة البليغة.

الثانية عشرة **معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.**

لما نقله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن غير واحد من السلف، (ثم صوروا تماثيلهم) فالتصوير ذريعة للوقوع في الشرك، لا سيما إذا كان لمعظمين. وسيأتي باب مستقل في التصوير.

الثالثة عشرة **معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها، مع الغفلة عنها.**

أي: القصة التي ذكرها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فإنها قصة عظيمة، تكشف عن مثيلاتها، مما يتكرر مع بني آدم، ومع ذلك يغفل عنها.

الرابعة عشرة **وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدوا: أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.**

يشير المصنف إلى علماء السوء، من سدنة الأضرحة والمقامات، الذين يقرؤون هذه القصة، ويقفون على معناها الجلي في التفاسير والصحاح والسنن، ثم تنطمس بصائرهم فيقعون فيما وقع فيه قوم نوح من الشرك الصراح، ويستحسنونه.

الخامسة عشرة **التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.**

أي: أن أولئك الذين نصبوا الأنصاب للصالحين، زعموا أنهم ما أرادوا إلا الشفاعة، وهي ذات الدعوى التي يدَّعيها مشركو زمانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

السادسة عشرة **ظنهم أن العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.**

أي: ظن الجيل الثاني أن الجيل الأول من العلماء أرادوا بذلك أن يتخذوهم شفعاء، مع أنهم لم يريدوا ذلك؛ بل أرادوا تخليد ذكرهم، ومحبتهم. فكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى حال كثير من الجهال الذين يغترون بأمور تصدر من علماء السوء، فيقعون في الشرك، من حيث لا يعلمون.

السابعة عشرة **البيان العظيم في قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.**

هذا بيان بليغ منه ﷺ؛ إذ أنه نهى عن الإطراء، وهو مجاوزة الحد في المدح، والتزيُّد فيه، وبيّن ذلك بالمثال، فقال: «**كما أطرت النصارى ابن مريم**»، ثم بيّن لهم ما الذي ينبغي أن يقولوه، فإن من سد باباً فعليه أن يفتح بدله، فأرشدهم إلى العبارة البليغة المطابقة للواقع، التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وهي: «**عبد الله ورسوله**» فوصْفه بالعبودية ردٌّ على أهل الغلو، ووصْفه بالرسالة رد على أهل الجفاء.

الثامنة عشرة **نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.**

ووجه النصح: إخباره ﷺ بهلاك المتنطعين، ثلاثاً، وهذا من الاجتهاد في النصح، سواء قلنا: إن ذلك خرج مخرج الخبر، أو خرج مخرج الدعاء، ففيه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه، فالتنطع مذموم، سواء كان متعلقاً بالعقائد، أو العبادات، أو العادات والسلوك.

التاسعة عشرة **التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.**

وقد جاء ذلك في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، حيث قال: «**ونسي العلم**» يعني: أندرس، وهذا يدل على أن العلم عصمة من الوقوع في البدع

والضلالات. والرب ﷻ يعصم عبده بأنواع من العصمة: فمن ذلك:

- الإيمان: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩].
- العلم: فإن العلم نور، وضده الجهل.
- التقوى: فإن التقوى فرقان: يفرق الله تعالى به بين الحق والباطل.
- العقل، فقد يمن الله تعالى على بعض عباده بعقل راجح، يتبين به مآلات الأمور.
- الخُلق، فإن الخلق الكريم، والمروءة تحول بين العبد وبين الزلل والخطأ.

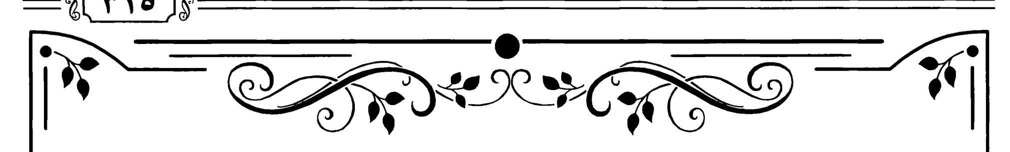
فهذه العواصم الخمس إن اجتمعت لعبد، فذلك أعلى الكمال؛ يعصمه الله تعالى من الخطأ والضلال في حق نفسه، وفي حق عباده، وإذا فقد العبد جميعها، فهو أضل الضالين، وأهلك الهالكين. وبين هذين الطرفين مضمار واسع، يتفاوت فيه الناس، نسأل الله أن يعصمنا بعصمته.

العشرون والأخيرة: أن سبب فقد العلم: موت العلماء.

لأنه لما مات قبض الجيل الأول، ونسي العلم، وقع المحذور من الشرك بالله تعالى، فيرجع الأمر إلى موت العلماء، كما جاء مصرحاً به في الحديث: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»[1]، فهذا يدل على منزلة أهل العلم؛ لأنهم يُمسِّكون بالكتاب، ويحفظ الله بهم الملة، وينبغي ألا يكون العلم محبوساً في السطور؛ بل يكون في الصدور، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ثم يظهر من الصدور إلى الجوارح، حتى يكون علماً حقيقيّاً نافعاً مباركاً، وهذا هو حال العلماء الربانيين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم برقم (١٠٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه برقم (٢٦٧٣).



باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في «الصحيح»: عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»(١)، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما: عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال ـ وهو كذلك ـ: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»؛ يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً، أخرجاه(٢).

الشرح

عقد المصنف رحمه الله:

(باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!)، ليُبيِّن الوسيلة المفضية إلى الغلو في الصالحين، وهي قصد العبادة عند

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد برقم (٤٢٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور برقم (٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما برقم (١٣٩٠)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد برقم (٥٢٩).

قبور الصالحين، وأن هذا قد جاء التغليظ فيه، وختم الترجمة بسؤال تعجُّبي وهو قوله: «فكيف إذا عبده؟!» وذلك لتعظيم الأمر وتهويله.

قوله: (في الصحيح)، المراد بالصحيح هنا: صحيح البخاري.

قوله: (عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة) أم سلمة هي: هند بنت أبي أمية المخزومي، الذي كان يلقب بزاد الراكب، وكانت زوج أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكانا من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، ثم عادا، وتوفي أبو سلمة رضي الله عنه، وحزنت عليه حزناً عظيماً، فدخل عليها النبي ﷺ، وقال لها: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول:** ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦] **اللَّهُمَّ أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها**». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلتُ: كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه؛ رسول الله ﷺ[(١)]، فتزوجها، وصارت من أمهات المؤمنين، وجبر الله كسرها، وقد كانت وفاتها سنة (٦٢هـ).

حكت أم سلمة، رضي الله عنها للنبي ﷺ صفة كنيسة رأتها في أرض الحبشة، والكنيسة: معبد النصارى. والحبشة: هي التي تُسمى الآن أثيوبيا، وما جاورها من البلدان؛ كأريتريا. وقد وصل دين النصارى إلى أرض الحبشة في وقت مبكر، فإن بعض تلاميذ المسيح ذهب إلى مصر، وانتقل أحدهم ـ وهو (مرقص) ـ إلى بلاد الحبشة، فاعتنق أهلها النصرانية، ولحقهم ما لحق بقية النصارى من الخلاف، والضلال، ومن أنهم ذلك، تزويق الكنائس بالتماثيل، فيصورون العذراء رضي الله عنها، والمسيح عليه السلام، وهو منصوب على خشبة الصلب، ويصورون الملائكة، والقديسين. وهذا مشهور عندهم؛ فإن من يدخل كنائسهم يدهش عندما يقلب بصره في الجدران المليئة بالصور والأيقونات، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ نوع من التعويض عن الخواء الروحي، فيضعون هذه الصور والمنحوتات حتى يشعروا بشيء من الروحانية. ولم يكن المسيح عليه السلام قد اتخذ كنيسة؛ بل كان يصلي في معابد اليهود الذين بُعث فيهم، ولكن من جاء بعده صاروا يستقلون بالكنائس والكاتدرائيات. فحكت أم سلمة للنبي ﷺ، على سبيل الخبر، ما رأت في الكنيسة من التصاوير.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة برقم (٩١٨).

قوله: (أولئِك) بكسر الكاف، والخطاب لأم سلمة، ، ويصح (أولئكَ)، بالفتح.

قوله: (إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) هذا الشك في اللفظ من الراوي.

قوله: (بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور) قاموا بعملين:

الأول: أنهم بنوا على قبره مسجداً؛ أي: موضعاً للصلاة.

الثاني: صوروا فيه تلك الصور؛ أي: زوَّقوا الجدران، والأسقف، والمكان بتلك التصاوير.

قوله: (أولئك شرار الخلق عند الله) المشار إليهم الذين فعلوا هذا الفعل، وغلوا في الصالحين، هم شرار الخلق؛ أي: أعظمهم شرّاً وجرماً.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل) هذا ليس من كلام المصنف؛ بل من كلام ابن القيم رحمه الله[1]. فجمعهم بين الفتنتين من أعظم الوسائل المفضية إلى الشرك.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، إذ أنّ هذا الحديث يدل على أن بناء المساجد على القبور لعبادة الله، واتخاذ الصور، يفضي إلى عبادة غيره؛ ولهذا صاروا شرار الخلق؛ لوقوعهم في الشرك بالله تعالى.

فوائد الحديث:

١ ـ المنع من عبادة الله عند قبور الصالحين، سدّاً لذريعة الوقوع في الشرك.

٢ ـ الاعتبار بحال الأمم قبلنا.

٣ ـ تحريم التصوير؛ لما فيه من مضاهاة خلق الله عز وجل، ولا سيما إذا كان للمعظَّمين من الصالحين وأمثالهم؛ لأنه وسيلة إلى الشرك. فصار التصوير يحرم من وجهين: من جهة مضاهاة خلق الله. ومن جهة كونه وسيلة إلى الوقوع في الشرك.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، المعرفة (١/ ١٨٤).

٤ ـ عظم هذه الجريمة، وأن من ارتكبها فهو من شرار الخلق بشهادة من لا ينطق عن الهوى.

٥ ـ جواز دخول الكنائس لفعل أم سلمة، وعدم إنكار النبي ﷺ لذلك.

ولا شك أن ظاهر الحديث يدل على ذلك، ولكن هذه القصة قضية عين، فتحتاج إلى بيان وتفصيل، فنقول: إن دخول الكنائس، والمعابد الأخرى، **له حالات**:

الأولى: أن يكون دخولها من باب الإعجاب بهم، والتملق لهم، فهذا لا يجوز، كما يفعله بعض السائحين السفهاء، فيقصدون الكنائس، والمعابد الوثنية، ويبدون إعجابهم بها، ويداهنون كهنتها، مع أنه يذكر فيها التثليث، والبنوة، وتأليه المسيح، وصلبه، فضلاً عما تحويه من الصور المنكرة، والمعازف، والطقوس الكفرية؛ كالذي يسمونه العشاء الرباني «الأفخارستيا»، فإذا فرغ الكاهن، أو الأسقف، راعي الكنيسة من موعظته، أتى بكأس فيه خمر، وقِطَعاً من الخبز، ثم دعا الذين حضروا القُداس، فيتقدمون واحداً واحداً، أمامه، فينزل أحدهم على ركبته على هيئة الخضوع، ثم يقوم الكاهن بغمس قطعة من الخبز في كأس الخمر، ويناوله إياها، فيأكلها، ويزعمون أنه قد اختلط بهم دم المسيح ولحمه، فالخبز يمثل لحم المسيح، والخمر يمثل دمه! وهذا من العقائد الباطلة، والطقوس السخيفة، التي عليها النصارى إلى يومنا هذا.

فما يفعله ـ وللأسف ـ بعض السفهاء، من الذهاب لكنائسهم، بغرض الفرجة، فقط، لا يجوز، فإنه يحصل لهؤلاء النصارى نوع اعتزاز، فيأخذون في شرح دينهم، وقد يكون فتنة لبعض من دخلها.

الثانية: أن يدخل الكنيسة لمصلحة؛ إما لدعوتهم، أو لكشف عوارهم، ونقدهم، فهذا لا بأس به، ولعل دخول أم سلمة من هذا الباب، ولو لم يكن في دخولها فائدة، إلا حصول هذا الحديث لكفى، فدخول الكنيسة، والكنيس، ومعابد الوثنيين للدعوة، أمر مشروع؛ فقد كان نبيُّنا ﷺ يأتي يهود في كنيسهم، يوم مدراسهم، ويدعوهم إلى الإسلام. فقد روى أحمد[1]، والحاكم في

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٣٩٨٤) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

مستدركه[١]، والطبراني[٢]، وابن حبان في «صحيحه»[٣] من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى يهوداً في كنيستهم، فقال: «**يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه**»! عرض عليهم عرضاً مغرياً، لو كانوا يفقهون، قال: فأمسكوا، وما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم، فلم يجبه أحد، ثم ثلّث، فلم يجبه أحد، فقال: «**أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفي، آمنتم أو كذبتم**». ثم خرج. فلا بأس بغشيانهم في كنيستهم لغرض صحيح؛ كدعوتهم، أو للاطلاع على حالهم بغرض نقدهم، وكشف زيفهم.

قوله: (ولهما)؛ أي: البخاري ومسلم.

قوله: (لما نُزل برسول الله ﷺ) (نُزل) هكذا بصيغة الفعل الذي لم يُسم فاعله؛ أي: نزل به ملك الموت، في حال الاحتضار.

قوله: (طفق)؛ أي: جعل.

قوله: (يطرح خميصة له على وجهه) والخميصة: كساء له أعلام؛ أي: ثوب أو قماش مخطط، فكان نبيُّنا ﷺ يعاني في سكرات الموت كرباً، وعناءً، شديدين، فجعل يطرح الخميصة على وجهه الشريف؛ لشدة ما يجد من الألم، وهذا مما ادخره الله له من البلاء الذي يرفع الدرجات.

قوله: (فإذا اغتم بها)؛ أي: انحبس نفسه.

قوله: (كشفها)؛ أي: أزاحها عن وجهه الشريف، ليتنفس.

قوله: (فقال ـ وهو كذلك ـ)؛ أي: وهو على تلك الحال، ولا يكاد يوجد بشر في مثل حاله العصيبة، يمكن أن ينصح، لولا أنه رسول الله ﷺ الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فلشدة نصحه وشفقته على أمته صار أعظم ما يشغل باله في هذا الحال أمر أمته.

قوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى) واللعن: هو الطرد والإبعاد عن

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم برقم (٥٧٥٦).
(٢) المعجم الكبير، الطبراني برقم (١٤٥١١).
(٣) أخرجه ابن حبان برقم (٧١٦٢) وصححه الألباني.

رحمة الله. واليهود والنصارى: هم أهل الكتاب، واليهود سموا يهوداً، في أصح الأقوال: نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام، فنسبوا إليه. وقيل: إنما سموا يهوداً من التهود وهو التوبة، لقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقيل: من الهوادة وهي المحبة.

وأما النصارى: فقيل: إن سبب تسميتهم بهذا الاسم، نسبة إلى بلدة الناصرة، التي كان ينزلها المسيح عليه السلام. وقيل: نسبة إلى تناصرهم فيما بينهم. وقيل: نسبة إلى قولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]. والحاصل: أن اليهود صار عَلَماً على المنتسبين إلى موسى عليه السلام، المعتقدين بالتوراة، والنصارى صار عَلَماً على المنتسبين إلى عيسى عليه السلام، المعتقدين بالإنجيل. وقد بيّنا: أن اليهودية والنصرانية ليستا ديانتين سماويتين؛ بل هما محرفتان عن أصل سماوي، فإن دين الله واحد، وهو الإسلام، وهو الذي بعث الله به نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وجميع أنبياء الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. لكن لما طرأ التحريف على دين موسى عليه السلام، صارت تلك الملة تُسمى اليهودية؛ ولما طرأ التحريف على دين عيسى، عليه السلام، صارت تلك الملة تُسمى النصرانية. ولهذا برّأ الله إبراهيم عليه السلام منهما، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. فيُخطئ من يقول: الأديان السماوية؛ لأن الدين واحد، وليس لله أديان متعددة؛ بل شرائع متعددة.

قوله: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)؛ أي: أن سبب لعنهم هو وقوعهم في الشرك، وتحويلهم قبور أنبيائهم إلى مواضع للعبادة والسجود، سواء بنوا عليها بنياناً، أم لم يبنوا، فإن موضع السجود يُسمى مسجداً. وهذا يدل على عظيم شفقة النبي ﷺ ونصحه لأمته؛ لأنه لما شعر ﷺ بأنه في سياق الموت، وقد دنا أجله خشي أن تصنع به أمته ما صنعت اليهود والنصارى بأنبيائها، فألقى عليهم هذه الجملة؛ تحذيراً حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من كان قبلهم.

قولها: (يحذر ما صنعوا) هذا من قول عائشة رضي الله عنها ومن فقهها؛ أي: أنه ما قال ذلك في هذا المقام، إلا للتحذير مما صنع اليهود والنصارى.

قولها: (ولولا ذلك لأبرز قبره)؛ أي: لأخرج من حجرته الشريفة، ووضع في البقيع، لكنه لم يفعل ذلك خشية أن يتخذ مسجداً، فدفن النبي ﷺ في بيته،

في حجرة عائشة، لئلا يدخل عليه، بخلاف لو كان في البقيع، ينتابه كل أحد.

وهناك سبب آخر لدفن النبي ﷺ في حجرته، لا يتعارض مع السبب الأول، وهو ما حدّث به أبو بكر رضي الله عنه لما اختلفوا في موضع دفنه، فأخبر أنه سمع من النبي ﷺ يقول: **«ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه»**(١).

قوله: (أخرجاه) لعله سبق قلم؛ لأنه قد قال في مستهل هذا الحديث: «ولهما» أي: للبخاري ومسلم، فأغنى ذلك عن الإعادة.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من لعن اليهود والنصارى بسبب اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وعدم إبراز قبره خشية أن يُتخذ مسجداً، فعبادة الله عند قبر نبي أو رجل صالح من أسباب الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ المنع من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

٢ ـ كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، ونصحه لهم.

٣ ـ جواز لعن اليهود والنصارى من حيث الجملة، لا لعن معين منهم.

وهذا أمر ـ وللأسف ـ بات بعض المتعالمين ينكره ويستهجنه، ويقول: هذا يعزز ثقافة الكراهية، فسبحان الله! على من يعترض؟ أيعترض على الله الذي يقول: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]؟ أم يعترض على رسول الله ﷺ الذي يقول: **«لعنة الله على اليهود والنصارى»**؟ إن أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، ونحن لا نبغضهم، ولا نلعنهم لذواتهم، وأعراقهم؛ بل لما تلبَّسوا به من الكفر. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل، ورضوا بالله ربّاً، وبمحمد نبيّاً، وبالإسلام ديناً؛ لكانوا إخواننا، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فإنما أبغضناهم في الله عز وجل، فينبغي التنبه، والحذر من

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الجنائز، باب ما جاء في دفن النبي ﷺ حيث قبض برقم (١٠١٨) وصححه الألباني.

الانسياق خلف هذه العبارات الحادثة الباطلة، وعلينا أن نلزم السُّنَّة.

٥ ـ معرفة الحكمة من دفن النبي ﷺ في حجرته، وهي: حتى لا يُتخذ قبره مسجداً.

٦ ـ بشرية النبي ﷺ؛ فهو بشر يلحقه ما يلحق البشر من سكرات الموت، ومعاناة الاحتضار، فقد كان يطرح خميصة على وجهه الشريف، فإذا اغتم بها كشفها؛ بل قد جاء في الحديث: أنه قال: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**»(١)، وقد يُشكل هذا على بعض الناس، ويقول: أليس روح المؤمن تسل كما تسل الشعرة من في السقاء؟ فكيف يقع هذا؟ فيقال: لا تعارض، فإن هذه سكرات الموت غير قبض الروح، فالسكرات والكرب تكون قبل قبض الروح، وتكون كفارة لسيئاته، ورفعة لدرجاته، وفي الحديث: «**الْمُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ الْجَبِينِ**»(٢).

وأما قبض الروح فهو لحظة خروج الروح من البدن، فإن كان مؤمناً سُلَّت روحه كما تسل الشعرة من العجين، أو من في السقاء، وإن كان كافراً نزعت روحه نزعاً، كما ينزع السفود من الصوف المبلول، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ [النازعات: ١، ٢].

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمسلم: عن جندب بن عبد الله قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته برقم (٤٤٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٠٠٣)، والنسائي برقم (١٨٢٨)، وابن ماجه برقم (١٤٥٢)، وأحمد برقم (٢٢٩٦٤) وغيرهم، وصححه الألباني.
وهو في «مسند أحمد» (٢٢٩٦٤)، و«صحيح ابن حبان» (٣٠١١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على =

فقد نهى عنه في آخر حياته ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً؛ بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»، ورواه أبو حاتم في صحيحه.

الشرح

(**ولمسلم: عن جندب بن عبد الله** رضي الله عنه) البجلي، صحابي توفي بعد الستين.

قوله: (قبل أن يموت بخمس) يحتمل: خمس ليال، أو خمس سنين، ولا تحتمل أشهر؛ لأنها لو كانت أشهر لقيل: بخمسة، والأقرب ـ والله أعلم ـ أنها خمس ليال؛ لأنه ليس من عادة الراوي أن يؤقت روايته بهذه المدة الطويلة.

قوله: (إني أبرأ إلى الله)؛ أي: أمتنع وأتجنب.

قوله: (أن يكون لي منكم خليل) الخليل: مشتق من الخلة، والخلة: أعلى درجات المحبة؛ لأنها تتخلل القلب، وتتمكن منه ولهذا قال القائل:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِني ... وَلِذَا سُمِّي الخَلِيلُ خَلِيلَا[1]

قوله: (ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً) لا حاجة إلى التعريف بالصدِّيق رضي الله عنه، فيكفيه شرفاً وتعريفاً هذه الجملة. والذي منع النبي ﷺ أن يتخذ أبا بكر خليلاً، مع شدة محبته له، أن الله قد اتخذه خليلاً،

= القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد برقم (٥٣٢).

(١) البيت بلا نسبة في المنتحل (ص٢٢٢)، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٢/ ١٤).

فلا يليق أن يجعل مع الله غيره؛ لأن الخلة أعلى درجات المحبة، فلا تصرف إلا لله ﷻ.

قوله: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك) (ألا) أداة تنبيه، ومن كان قبلنا: هم اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، واتخاذهم القبور مساجد: إما بالبناء عليها، أو بمجرد الصلاة عندها، فإن ذلك كله يُعد اتخاذاً. وهذا النهي أصرح ما يكون في النهي.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من النهي الصريح عن اتخاذ القبور مساجد، كما فعل اليهود والنصارى.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

٢ ـ سد كل طريق يفضي إلى الشرك.

٣ ـ إثبات صفة الخلة لله ﷻ؛ فالله تعالى يُحِب، ويُحَب، ويخالِل، ويُخالَل.

٤ ـ فضل الخليلين إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، فأنهما أفضل البشر.

٥ ـ فضل أبي بكر الصديق؛ إذ كان مؤهلاً للخلة، لولا اتخاذ الله نبيُّه ﷺ خليلاً.

٦ ـ إثبات خلافة أبي بكر الصديق، لعظيم فضله على الأمة. وقد اختلف العلماء، هل كانت خلافته بالنص الجلي، أم بالنص الخفي، والإيماء والإشارة، أم كانت بالبيعة؟ فذهب ابن حزم رحمه الله، إلى أن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كانت بالنص الجلي[1]، وذهب غيره: إلى أنها كانت بالنص الخفي والإيماء والإشارة، كما في هذا الحديث، وبانعقاد البيعة على ذلك، والثاني أقرب؛ لأن النص الجلي هو أن يقول النبي ﷺ صراحة: «الخليفة بعدي أبو بكر» ولم يقع

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٠٧).

ذلك، وإنما قال النبي ﷺ أقوالاً متعددة، كلها تشير إشارات قوية إلى استخلاف أبي بكر، ثم ثبت ذلك ببيعة المسلمين له رضي الله عنه.

وعقّب المصنف بكلامٍ نقله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ولم ينسبه إليه، وهذه طريقة لبعضِ السلف المتقدمين: أنهم ينقلون العلم عن قائله، ولا يعزونه أحياناً، وقد رأيتُ كلاماً للبيهقي رحمه الله، ينقل فيه أسطراً طويلة، من كلام الخطابي ولا يعزوه، وكأنّ هذا عندهم سائغ؛ لأنهم يعدون العلم مشاعاً بين أهله، فلا يلزم أن يقال: قال فلان، فعندهم أن في الأمر سعة في غير الرواية الحديثية. وإن كان هذا في لغة العصر يُعد منافياً للتوثيق العلمي.

قوله: (فقد نهى عنه)؛ أي: عن اتخاذ قبره مسجداً، يتعبد لله تعالى عنده.

قوله: (وهو في آخر حياته) ونجد ذلك في حديث جندب رضي الله عنه لأنه قاله قبل أن يموت بخمس.

قوله: (ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله) كما في حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك)؛ أي: عند قبور الأنبياء، من اتخاذها مسجداً، وإن لم يُبن عليها مسجد.

قوله: (وهو معنى قولها: «خشي أن يُتخذ مسجداً» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً) ولكن يبقى احتمال: أن يُصلى عنده، فدل هذا على منع الصورتين.

قوله: (وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُخذ مسجداً؛ بل كل موضع يُصلى فيه يُسمى مسجداً، والدليل: كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»)[١]، هو كما قال رحمه الله، ولكن المسجد الذي تتعلق به الأحكام الفقهية؛ من كونه أرضاً وقفية، وعدم جواز إنشاد الضالة، وعدم إقامة الحدود فيه، هو المسجد الذي قصد وأُوقف لهذا الغرض.

قوله: (ولأحمد[٢] بسند جيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»** برقم (٤٣٨)، ومسلم في أوائل المساجد ومواضع الصلاة برقم (٥٢١).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣٨٤٤) وقال محققو المسند: «إسناده حسن». وقال =

الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبو حاتم في صحيحه)[(١)].

قوله: (إن من) (من) تبعيضية **(شرار الناس)** بمعنى (أفعل) التفضيل؛ أي: أشدهم شرّاً.

قوله: (من تدركهم الساعة وهم أحياء)؛ أي: الذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء، وقد جاء ذلك في أحاديث صحيحة في البخاري وغيره، ووصفهم النبي ﷺ بأنهم **«يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»**[(٢)]، وقال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»**[(٣)]، فعلى هؤلاء تقوم الساعة. ويكون المؤمنون قد قُبضوا بالريح الطيبة التي يرسلها الله تعالى بين يدي الساعة آخر الزمان، ريحها أطيب من ريح المسك، ومسها ألين من مس الحرير، فتهب عليهم، فتقبض أرواحهم، فلا تدع نفسَ مؤمنٍ إلا استلَّتها من خياشيمه، فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق.

قوله: (والذين يتخذون القبور مساجد) فهم والصنف الأول سواء في الشر؛ وذلك لعظيم جرمهم؛ إذ أن فعلهم هذا مفضٍ للشرك.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من الذم البليغ لمن اتخذ القبور مساجد.

فوائد الحديث:

١ ـ التحذير من الصلاة عند قبور الصالحين.

٢ ـ أن من فعل ذلك فهو من شرار الخلق.

٣ ـ أن الساعة لا تقوم على مؤمن، وإنما تقوم على شرار الخلق.

* * *

= الذهبي في السير: حسن، قوي الإسناد (٩/ ٤٠١)، وجوَّد إسناده ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٢٩١)، وصححه أحمد شاكر.

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٦٨٤٧)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه برقم (٢٩٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان برقم (١٤٨).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

وقد ذكر النبي ﷺ فيه قولاً عظيماً، كما في حديث أم سلمة: «**أولئك شرار الخلق**»، واللعن لفاعليه، ولم تشفع لهم حسن نيتهم.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر.

لتغليظ النبي ﷺ في ذلك، ولعنهم، ووصفهم بأنهم شرار الخلق.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

يعني: أن هذا النهي، والتغليظ، والتحذير البليغ، مر بعدة مراحل:

فحديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فيما رأت في أرض الحبشة، كان أثناء حياته.

ثم حديث جندب بن عبد الله، قبل أن يموت بخمس.

ثم حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في أثناء الاحتضار.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

نهى النبي ﷺ عن ذلك بصريح العبارة، قبل أن يوجد قبره، احترازاً من وقوعه فقال: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**».

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

وقد نصَّ النبي ﷺ على ذلك، فقال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، فإذا كان هذا من سننهم، فنحن مأمورون باجتناب سبيلهم، وعدم مشابهتهم.

السادسة **لعنه إياهم على ذلك.**

لقوله ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**»؛ فاللعن بالوصف مشروع.

السابعة **أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.**

هذا مراده، وهذا ما فهمته عائشة رضي الله عنها؛ لقولها: «يحذر ما صنعوا».

الثامنة **العلة في عدم إبراز قبره.**

خشية أن يُتخذ مسجداً.

التاسعة **في معنى اتخاذها مسجداً.**

بأن يُصلى عندها، ولو لم يُبنَ عليها مسجد.

العاشرة **أنه قرن بين من اتخذها مسجداً، وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.**

هذا من عميق استنباط المصنف، فقد ربط بين اتخاذ القبور وقيام الساعة؛ فأول الأمر الشرك، ثم يؤول إلى تعطيل الرب ﷻ، حتى لا يُعرف باسم.

الحادية عشرة **ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع؛ بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة، والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.**

هاتان الطائفتان لا شك أنهما من أضل طوائف المبتدعة. وبعض من تكلم في الفرق؛ كابن المبارك، ويوسف بن أسباط، رحمهما الله، أخرجا الجهمية من الثنتين والسبعين فرقة، وعبد القاهر البغدادي في «الفرق بين الفرق» أخرج غلاة الرافضة الباطنية من أهل القبلة. وغلظ شرك الرافضة: أنهم وقعوا في الشرك العملي الذي هو عبادة غير الله؛ لأنهم يدعون عليّاً، والحسين، وأهل البيت،

دعاء صريحاً. وأما الجهمية: فوقعوا في الكفر العلمي، حيث عطّلوا صفات الرب سبحانه وبحمده، فنفوا أن يكون متصفاً بأي صفة ثبوتية، وهذا يفضي إلى إنكار الله عَزَّوَجَلَّ بالكلية. فهذا وجه وصف الطائفتين بأشر أهل البدع.

الثانية عشرة **ما بلي به ﷺ من شدة النزع.**

تُؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها».

الثالثة عشرة **ما أكرم به من الخلّة.**

وهي كرامة عظيمة؛ أن الله اتخذه خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

الرابعة عشرة **التصريح بأنها أعلى من المحبة.**

لتبرؤه ﷺ من خلة أحد سوى الله الذي اتخذه خليلاً، فلا شرك فيها.

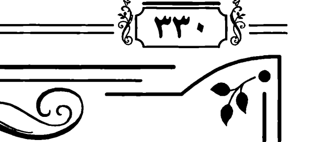
الخامسة عشرة **التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.**

لقوله ﷺ: «**لو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**»، فلا ريب أنّ هذا الكلام يدل على فضل أبي بكر على سائر الأمة، بما فيهم أكابر الصحابة.

السادسة عشرة **الإشارة إلى خلافته.**

فيكون هذا من باب النص الخفي والإشارة والإيماء إلى استحقاقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخلافة بعد النبي ﷺ، وقد كان.





باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١).

ولابن جرير بسنده: عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يلت لهم السويق، فمات فعكفوا على قبره(٢).

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج. رواه أهل السنن(٤).

الشرح

هذا الباب له صلة بالباب الذي قبله؛ فالباب السابق يتعلق بعبادة الله عند قبر رجل صالح، وهذا الباب يتعلق بالغلو في قبور الصالحين، وبهما يتبين ما أشار إليه المصنف في مسائل «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين»، من غربة الإسلام، وقدرة الله، وتقليبه للقلوب، حتى آل بأصحابها إلى عبادتها من دون الله.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، رواية يحيى الليثي برقم (٤١٤) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٧٥٠).

(٢) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٢٢/٥٢٣).

(٣) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٢٢/٥٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور برقم (٣٢٣٦)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً برقم (٣٢٠) وضعفه الألباني.

✵ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ظاهرة، وذلك أن هذه الصيرورة ناشئة من الغلو في قبور الصالحين. فالغلو في الصالحين، وفي قبورهم، وقصد عبادة الله عندها، ذرائع للشرك.

قوله: (روى مالك في الموطأ) الإمام مالك هو: إمام دار الهجرة، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، ولد سنة ثلاث وتسعين، محدث جليل، وفقيه متقن، وعالم رباني، أحد الأئمة الأربعة المتبوعين، لا سيما في بلاد المغرب، وكانت وفاته (١٧٩هـ). **وأما الموطأ**: فهو كتابه الذي جمعه في السُّنَّة، انتخبه من أعالي الأسانيد، وأصحها، وبذل فيه وسعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجعله مرجعاً للمسلمين في أقضيتهم، فيما بلغه من العلم، حتى أن الخليفة أبو جعفر المنصور همّ أن يحمل الناس عليه، لكن مالكاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكمال فقهه، وورعه، وإخلاصه، أبى، وقال: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار»[(١)]، يريد بذلك أنه لعل عندهم علم لم يبلغه. قيل لمالك يوماً: إن فلاناً قد صنع موطأً؛ أي: كما صنعت، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كان لله بقي»[(٢)]

قوله: (اللَّهُمَّ)؛ أي: يا الله، فاستعيض بالميم عن ياء النداء؛ للدلالة على الجمع.

قوله: (لا تجعل قبري وثناً يُعبد) هذه جملة دعائية من النبي ﷺ، يسأل ربه ألا يكون قبره وثناً، يُتوجه إليه بالعبادة، فاستجاب الله دعاءه، وصان قبره.

قوله: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) هذه جملة بيانية للسبب الحامل على الدعاء، لكي يزجر من تسول له نفسه الغلو فيه، بأن يتخذ قبره مسجداً، فما أعظم شفقته ﷺ على أمته، وحرصه عليهم.

والغضب صفة من صفات الله الفعلية، متعلق بمشيئته وحكمته. فللَّه تعالى غضب يليق بجلاله وعظمته، لا يشبه غضب المخلوقين، وهذا الوصف ثابت في كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣] فأسند الغضب إلى نفسه، فنثبت لله

---

(١) التسعينية (١/ ٨٢).

(٢) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت: عبد الوهاب (١/ ٨٩).

ما أثبت لنفسه، على الوجه اللائق به، ولا يحل أن يقال: المراد بالغضب: إرادة الانتقام، فإن ذلك من تفسير الشيء بلازمه، وصرفه عن حقيقته، والواجب علينا أن نثبت الصفة على حقيقتها اللائقة بمن أُسندت إليه، فللمخلوق غضب يليق به، وللخالق غضب يليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به، وللخالق إرادة تليق به، سواءً بسواء. فغضب المخلوق: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فينتج عنه احمرار العينين، وانتفاخ الأوداج، وتهدج الصوت، أما غضب الخالق، فلا يمكن تكييفه، ولا يلزم عليه شيء من اللوازم البشرية.

ومما يدل على تعلقه بمشيئته وحكمته، قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»(١). فهذا هو مقتضى الإيمان بالنصوص، وكل الاعتراضات التي يدعيها محرفو الصفات ادعاءات موهومة، ولهذا يقعون في التناقض، والتناقض معيار الفساد؛ فإنهم يثبتون لله سمعاً وبصراً، وهذا حق، مع أن السمع والبصر من صفات المخلوقين، فإذا قيل لهم: كيف تثبتون لله سمعاً وبصراً، مع أن السمع والبصر من صفات المخلوقين؟ قالوا: له سمع يليق به، وبصر يليق به، فنقول لهم: كذلك له غضب يليق به، ورضاً يليق به. وهذه قاعدة مطردة في جميع الصفات.

وأفاد قوله: «**اشتد غضب الله**»، وما ورد آنفاً في حديث الشفاعة، على أن غضبه، سبحانه، يتفاوت شدةً، وأن شديد غضبه ينال أولئك القوم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وهم اليهود والنصارى كما سماهم النبي ﷺ في الباب السابق، فقال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

⁂ مناسبة الحديث للباب:

مطابق للترجمة، لتضمنه وعيد من اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لأنهم غلوا فيها، فاستحالت أوثاناً تعبد من دون الله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣] برقم (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٤).

فوائد الحديث:

١ ـ التحذير من الغلو، وأن ذلك يفضي إلى الشرك.

٢ ـ أن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد من الغلو، فلو قال قائل: إني أجد في نفسي خشوعاً وحضور قلب، إذا صليتُ لله عند قبر الشيخ فلان، أو السيد فلان، ما لا أجد مثله إذا صليت في بيتي أو في مسجد الحي! فيقال: هذا من تزيين الشيطان وإيحائه؛ ليفضي إلى الوقوع في الشرك.

٣ ـ اتصاف الله تعالى بصفة الغضب؛ وهي من صفاته الفعلية اللائقة به، المتعلقة بمشيئته وحكمته، وبطلان تحريفها إلى الانتقام، أو إرادة الانتقام.

قوله: (ولابن جرير) هو: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، الإمام، المفسر، المحدث، الفقيه، المؤرخ، المجتهد، ديوان من دواوين العلم، وآية من آيات الله، وأعجوبة من أعاجيب الزمان، وعاء من أوعية العلم. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين. قال لأصحابه: «أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم»[1]، كانت وفاته سنة عشر وثلاثمائة للهجرة. وعقيدته عقيدة سلفية، وتفسيره هو المقدم من التفسير بالمأثور، والمفسرون بعده عيال عليه.

قوله: (عن سفيان): الأقرب أنه: سفيان بن سعيد الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أبو عبد الله، الكوفي. وهو إمام ثقة، ثبت، حجة، كانت وفاته سنة إحدى وستين ومائة.

قوله: (عن منصور) هو: منصور بن المعتمر السلمي، من المحدثين الثقات، توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مجاهد) هو: مجاهد بن جبر المخزومي، مولاهم، صاحب ابن

---

(١) تاريخ بغداد، ت: بشار (٢/٥٤٨)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٢/١٩٨).

عباس رضي الله عنهما، ولد سنة إحدى وعشرين. إمام في التفسير. توفي ساجداً، نحو سنة أربع ومائة.

قوله: (﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ **قال: كان يلت لهم السويق**)؛ أي: قال مجاهد في تفسيرها: كان ـ أي: اللات ـ، يلت لهم؛ أي: للحُجاج، وعلى هذا فـ(اللات) هنا بالتشديد، لكونه كان يلت السويق؛ أي: يخلط الدقيق بالسمن، فيطعمهم. وفي رواية: «فيطعم من يمر من الناس».

قوله: (**فمات، فعكفوا على قبره**)؛ أي: أقاموا وحبسوا أنفسهم على قبره، فهذا معنى العكوف، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥٢]؛ أي: مقيمون، ماكثون عندها. فهذا الرجل الصالح كان يفعل ذلك تقرباً إلى الله، وإكراماً لحجاج بيته، فلما مات عكفوا على قبره، تعظيماً له.

قوله: (**وكذا قال أبو الجوزاء**) هو: أوس بن عبد الله الرَّبَعي، ثقة، مات سنة ثلاث وثمانين. قال البخاري عنه بسنده عن ابن عباس: نقل عن ابن عباس أنه قال: «**كان اللات رجلاً يلُتُّ سويق الحاج**»(١). والأغلب أن مجاهداً أيضاً أخذه عن ابن عباس؛ إذ كان ملازماً له.

فهذا ليس حديثاً مرفوعاً، وإنما هو أثر، وفي علم المصطلح: ما نُسب إلى النبي ﷺ؛ سواء بسند متصل، أو منقطع، فهو المرفوع، وما كان منتهاه إلى الصحابي، فهو الموقوف، وما كان منتهاه إلى التابعي، فهو المقطوع، والمقطوع غير المنقطع.

مناسبة الأثر للباب:

مناسبة ظاهرة، إذ فيه بيان سبب عبادة اللات، هو الغلو فيه لصلاحه، بالعكوف على قبره.

فوائد الأثر:

١ ـ تحريم الغلو في الصالحين؛ لأنه وسيلة إلى الشرك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾، برقم (٤٨٥٩).

٢ ـ تحريم العكوف على القبر، ولو كان لرجل صالح.

* * *

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ اللهُ:

(وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قال: لعن رسول الله** ﷺ**)** اللعن: كما تقدم: الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وتقدم أنه لا يجوز اللعن بالشخص ـ لعن المعيَّن ـ، لكن يجوز اللعن بالوصف، لمن علمناه مستحقاً للعن.

قوله: (زائرات القبور) وفي لفظ: «**زوَّارات**»[1]. هذا لعن بالوصف، فمن رأى امرأة تزور قبراً، فليس له أن يقول: أنتِ ملعونة، لكن يقول: لعن الله زائرات القبور، على سبيل البيان والموعظة.

قوله: (والمتخذين عليها المساجد)؛ أي: أنهم يتخذونها موضعاً للعبادة والصلاة، سواء بنوا بنياناً أو لم يبنوا، فإن صلوا عندها فقد اتخذوها مسجداً.

قوله: (والسرج)؛ أي: الذين يتخذون عندها السرج، ويضيئون القبور بالشموع، وما أشبه ذلك؛ لأن هذا فيه تعظيم. فقد لعن النبي ﷺ في هذا الحديث **ثلاثة أصناف**:

١ ـ زائرات القبور من النساء.

٢ ـ المتخذين عليها المساجد.

٣ ـ المتخذين عليها السرج.

والصنفان الأخيران يشملان الرجال والنساء، والتذكير من باب التغليب، وسبب لعنهما تعظيمهم لهذه القبور، والغلو في أصحابها، وأما لعن الصنف الأول، وهن الزائرات، فلما يترتب على زيارة النساء للقبور من الجزع، والتسخط، فإنه لا يخفى أن النساء تغلبهن العاطفة، فإذا أتين المقابر، وتذكرن ذويهن، فإنهن، غالباً، يجزعن، ويتسخطن على القدر؛ قولاً بالصياح والعويل، وفعلاً بشق الجيوب، ولطم الخدود. فكان من حكمة الشارع أن منعهن، وتوعد من فعل ذلك منهن.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور برقم (١٥٧٤)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء برقم (١٠٥٦) وحسنه الألباني.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

فمنهم: من ذهب إلى أن زيارة النساء للقبور محرمة، إذا وقعت على سبيل التكرار، أخذاً برواية «**زوارات**».

ومنهم: من جعل ذلك ممنوعاً من أصله. والثاني أرجح.

وللشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ، جزء في زيارة النساء للقبور، وهو بحث حديثي فقهي رصين، انتهى فيه إلى منع زيارة النساء للقبور مطلقاً، وأجاب عما استدل به المجيزون لزيارة النساء للقبور؛ كاستدلالهم: بكون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقفت على قبر أخيها محمد، وتمثلت بأبيات، بأن ذلك لم يكن منها قصداً لزيارة القبر، وإنما وقع اتفاقاً، لكونها مارة في الطريق دون قصد زيارة القبر، وفرق بين من يقصد الزيارة، وبين من يمر بالطريق ويحاذي القبر.

ومما يدل أيضاً على منعهن: ما جاء في السنن من أن النبي ﷺ لقي يوماً فاطمة، فقال: «**ما أخرجك من بيتك يا فاطمة؟**» قالت: أتيت أهل هذا البيت، فرحمت إليهم ميتهم، وعزيتهم، فقال: «**لعلك بلغت معهم الكدى؟**» قالت: معاذ الله أن أكون بلغتها معهم، وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر، قال: «**لو بلغتها معهم، ما رأيت الجنة، حتى يراها جد أبيك**»(١)؛ يعني: عبد المطلب. وليس من أسلوب العرب، ولا من لغة الشارع، أن يكون هذا الوعيد الشديد باللعن لمن أكثر من الزيارة، وانتفاؤه في الزيارة والزيارتين، فما كان كثيره يوجب اللعن، دل على أن أصله محرم، وما كان أصله يبلغ مبلغ اللعن فلا يكون قليله مباحاً.

فالقول الصحيح: هو عدم جواز زيارة النساء للقبور.

قوله: (رواه أهل السنن) أهل السنن الأربعة هم: الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، وأما الخمسة فالمراد بهم: الأربعة، مضافاً إليهم أحمد، فإن قيل: رواه الجماعة، فهم سبعة، هؤلاء الخمسة، إضافة إلى البخاري ومسلم، فإن قيل: التسعة، فهؤلاء السبعة، مضافاً إليهم: موطأ مالك، وسنن الدارمي. وهذه أمور اصطلاحية، وقد لا تنضبط في كل كتاب.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٦٥٧٤) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

وفي قوله هنا: «رواه أهل السنن» فيه نوع تجوز؛ لأنه رواه أبو داود، والترمذي فقط، ولم يروه ابن ماجه والنسائي. وقد رواه أيضاً الإمام أحمد(١)، وأبو داود الطيالسي(٢)، والبيهقي(٣)، والحاكم(٤)، والطبراني(٥)، وقد حسنه الترمذي(٦)، وصححه ابن حبان(٧)، وممن حسنه أيضاً البغوي(٨)، وقد أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واحتج به(٩)، وكذا ابن القيم(١٠). وبعضهم أعلّه بأبي صالح باذان، وفي الحديث نقاش، لكن الغالب أن هذا الحديث حسن، يحتج به ـ إن شاء الله ـ.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من لعن معظمي القبور، باتخاذ المساجد والسُّرُج عليها، المفضي إلى توثينها.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الغلو في القبور بجعلها مواطن للعبادة.

٢ ـ تحريم إسراج القبور، وإضاءة المقابر على وجه التعظيم، بإيقاد الشموع، والإضاءة الخاصة؛ لأن هذا يدخل في هذا الوعيد، وأما اتخاذ إضاءة لغرض آخر؛ كأن يحتاج الناس إلى الدفن في الليل، لجلب اللبِن، وتهيئة القبر، ونقل الميت، أو ليروا طريقهم، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس المقصود به تعظيم قبر معين، ولا تعظيم عموم المقبرة، وإنما قصد به الارتفاق، والإحسان في تجهيز الميت، وإنارة الطريق لمتبعي الجنازة، ويكون هذا مؤقتاً بقدر الحاجة. أما اتخاذ ذلك على سبيل الديمومة، وتزيين القبور، وتزويقها، فهو داخل في الوعيد.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٠٣٠) وقال محققو المسند: «حسن لغيره دون ذكر السرج، وهذا إسناد ضعيف».
(٢) مسند أبي داود الطيالسي برقم (٢٨٥٦). (٣) سنن البيهقي الكبرى برقم (٦٩٩٨).
(٤) المستدرك على الصحيحين، للحاكم برقم (١٣٨٤).
(٥) المعجم الكبير، للطبراني برقم (١٢٥٥٧).
(٦) سنن الترمذي، ت: شاكر برقم (٣٢٠). (٧) صحيح ابن حبان برقم (٣١٧٩).
(٨) شرح السُّنَّة، للبغوي (٢/٤١٧). (٩) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٥٣).
(١٠) تهذيب سنن أبي داود، وإيضاح مشكلاته (٢/١٠٥).

٣ ـ بيان علة نهي النبي ﷺ عن الصلاة عند القبور؛ وهي خوف الشرك، خلافاً لمن قال من الشراح: إن العلة هي النجاسة؛ لكون تراب المقبرة يختلط برفات الموتى! وهو تعليل عليل؛ بل ميت، ومما يدل على بطلانه: أن النبي ﷺ ذكر أحاديث كثيرة في التحذير والوعيد من اتخاذ القبور مساجد، ولعن فاعل ذلك، وقرنه بعبادتهم. كما أنه قرنه هنا بمسألة الإسراج، الذي يدل على أن المحذور هو التعظيم. ثم لا يمكن أن يختلط رفات الموتى بأرض المقبرة، فالميت يدفن بعمق نصف قامة رجل، فكيف يختلط رفاته بالتراب الذي يكون على ظاهر المقبرة. ولهذا لا بأس بالصلاة على الجنازة في المقبرة، ولم يزل الناس يفعلون ذلك، ويصلون عليها. فهذا التعليل الذي ذهب إليه بعض الشراح ليس صواباً، وإنما النهي لسد ذرائع الشرك.

* * *

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **تفسير الأوثان.**

فالوثن أعم من الصنم، فلو اتخذ القبر مقصداً للعبادة صار وثناً.

الثانية **تفسير العبادة.**

وذلك بالغلو بها، وتعظيمها، وقصدها والعكوف عندها.

الثالثة **أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.**

استعاذ النبي ﷺ لا بلفظ الاستعادة، وإنما بلفظ الدعاء، فقال: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد**»، فهذا سؤال منه لربه ﷻ أن لا يقع هذا المحذور، فهو بمعنى الاستعاذة بالمعنى العام، ولا شك أنه لم يستعذ إلا مما يتوقع حصوله.

الرابعة **قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.**

فقد علّل ذلك بذكر اشتداد غضب الله ﷻ، على من اتخذ القبور مساجد،

مما يدل على أن صورة العبادة التي دعا ربه أن يحفظ قبره منها: أن يتخذ مسجداً، وأن ذلك نوع من الوثنية، وقد استجاب الله دعاء نبيّه ﷺ، فالناس ـ بحمد الله ـ إنما يصلون بالمسجد، وأما حجرته، وموضع دفنه، فما زال مصوناً محفوظاً، لم يُتخذ مسجداً.

الخامسة **ذكر شدة الغضب من الله.**

من قوله: «**اشتد غضب الله**» مما يدل على إثبات صفة الغضب واشتداده، وتفاوته، وهذا لا ينافي كماله سبحانه وبحمده؛ بل يدل عليه، فإنه فعال لما يريد.

السادسة **ـ وهي من أهمها ـ معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.**

صفة عبادتها: مبدؤها الغلو فيها، والعكوف عندها، فآل إلى صيرورتها وثناً يعبد.

السابعة **معرفة أنه قبر رجل صالح.**

كما في المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يلُت السويق للحاج، وابن السبيل، تقرباً إلى الله، وإكراماً لقاصدي بيته.

الثامنة **أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.**

وذلك لأنه قد اختُلف ـ كما قد تقدم ـ هل هو منسوب للرجل أم إنه اسم لصخرة بيضاء منقوشة في الطائف يقال لها: اللات. ولا تعارض بين القولين؛ فقد قيل: إنه إذا صنع السويق صبه على تلك الصخرة البيضاء، فاتُخذ ذلك المكان وثناً، وصار يُعبد من دون الله.

التاسعة **لعنه زَوَّارَات القبور.**

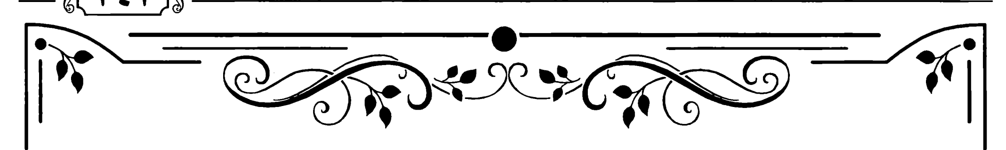
للعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، وفي رواية: «**زوارات**»، فيتناول ما قل

من الزيارة وما كثر، لما يترتب على ذلك من التسخط والجزع.

العاشرة لعنه من أسرجها.

لقوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج**» لما في ذلك من الغلو فيها.





باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود، بإسناد حسن، رواته ثقات[(١)].

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختارة[(٢)].

الشرح

📖 **قول المصنف** رحمه الله:

(**باب: ما جاء في حماية المصطفى**) المصطفى هو: النبي ﷺ، وهو حقيق بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ولقوله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢) وصححه الألباني.

(٢) الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي برقم (٤٢٨) وقال الألباني في موسوعة الألباني في العقيدة (٢/٤٩٨): «وفي إسناده رجل من أهل البيت مستور، وبقية رجاله ثقات».

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل =

قوله: **(جناب التوحيد)**؛ أي: جانبه، فهو يحمي جانبه أن يُمس ويُتسور، فحماه النبي ﷺ كما يحمي صاحب الحمى حماه من الكلأ والعشب.

قوله: **(وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)** معطوف على حماية، والتقدير: وما جاء في سده.

❊ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأبواب السابقة ما قاله النبي ﷺ على وجه العموم في حماية التوحيد، أراد أن يُبيّن في هذا الباب ما جاء من حمايته جناب التوحيد على وجه الخصوص.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ المخاطبون: العرب ابتداءً؛ لأنه بُعث فيهم؛ ولأنه قال: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، وفئتكم، وبلغتكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] فهي سُنَّة إلٰهية؛ أن يبعث الله الرسل من وسط قومهم، وبلغتهم، وفي قراءة: (من أَنْفَسِكم)[(١)]، من النفاسة.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: شديد عليه الأمر الذي يشق عليكم، ويلحقكم من جرائه العنت، لكمال شفقته ورأفته بأمته.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الحرص: جمع الهم على الشيء والسعي في تحصيله. فهو ﷺ شديد الحرص على ما فيه نفعكم، والتحذير مما فيه ضرركم في العاجل والآجل، ومن تتبع سيرته ﷺ وجد هذا جلياً؛ فإنه لم يدع شاذة ولا فاذة، إلا واهتم لها، وبيّنها لأمته ﷺ

قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾؛ أي: شديد الشفقة، وبليغ الرحمة بالمؤمنين. وشواهد ذلك من سيرته العطرة ﷺ أكثر من أن تحصر. ودلت الآية على أنه يجوز أن يسمى المخلوق بما يُسمى به الخالق، على اعتبار أن ما للمخلوق يليق به، وما للخالق يليق به؛ وذلك أن الرؤوف والرحيم من

= النبوة برقم (٢٢٧٦).

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٣٠١).

أسماء الله الحسنى، وسمى بهما نبيّه ﷺ؛ فرأفته ورحمته ﷺ تليق به، ورأفة الله ورحمته سبحانه تليق به.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما تضمنته من شهادة الله تعالى لنبيِّه ﷺ بكمال الحرص، والرأفة، والرحمة بأمته، ودفع الشر عنها الذي أعظمه الشرك بالله تعالى.

فوائد الآية:

١ ـ أن النبي ﷺ حذر أمته من الشرك قطعاً؛ لأنه أعظم خطر يتهددها، فلا يمكن أن ينهى النبي ﷺ أمته عن أمور سهلة؛ لفظية، وعملية، وأدبية، ويدع أعظم الأمور وهو الشرك.

٢ ـ منَّة الله تعالى علينا ببعثة هذا النبي الرؤوف الرحيم بأمته، فينبغي أن نقدر قدر هذه النعمة.

٣ ـ شرف النبي ﷺ في قومه؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من أوسطكم نسباً.

٤ ـ بيان بعض شمائل النبي ﷺ؛ وهي حرصه على أمته، ورأفته، ورحمته بهم.

٥ ـ أنه مع غير المؤمنين على الضد من ذلك؛ لقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فإنه شديد عليهم.

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»)، ليس المقصود: اتخاذها مقابر يُدفن فيها الموتى؛ لأن هذا غير وارد، فلا أحد يجعل بيته موضعاً للدفن، وإنما المراد: لا تعطلوها عن الصلاة والعبادة فيها، فتكون بمنزلة القبور، وهذا يدل على أنه كان مستقراً عندهم: أن المقابر ليست موضعاً للصلاة، ولا للعبادة، وإنما للزيارة، والعظة، والدعاء للأموات، فلهذا خاطبهم بأمر معهود، ومثل مستقر معلوم عندهم.

قوله: (ولا تجعلوا قبري عيداً)؛ أي: موضعاً تعتادون مجيئه وقصده زماناً، ومكاناً، فإن العيد مأخوذ من العود، والعود هو التكرار، فنهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مزاراً معتاداً، وإنما شرع النبي ﷺ لأمته أن يقصدوا مسجده، فقال: **«لا تشد**

الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى»(١)، وأما القبر فلا يشد إليه الرحل، لكن من كان في المدينة النبوية فإنه يشرع له أن يزور قبر النبي ﷺ، وأن يزور قبور الصحابة وغيرهم، في البقيع، وأن يزور قبور الشهداء في أُحد، لكن لا يشد الرحل من بلده إلى المدينة، بنية زيارة القبر.

قوله: (وصلوا عليّ) الصلاة منا على النبي ﷺ دعاء له بأن يذكر عند ربه في الملأ الأعلى.

قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: «صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُصَلُّونَ: يُبَرِّكُونَ»(٢)؛ أي: يدعون بالبركة.

قوله: (فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) كأن النبي ﷺ لما نهى عن اتخاذ قبره عيداً، وسد هذا الباب، فتح باباً آخر، وهو تعويض ذلك بكثرة الصلاة والسلام عليه، فإن صلاتنا تبلغه، حيث كنا، ولو كنا في أقاصي الأرض.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من حرص النبي ﷺ على صيانة التوحيد، وسد الطرق المفضية إلى الشرك باتخاذ قبره عيداً.

فوائد الحديث:

١ ـ وجوب سد الطرق المفضية إلى الشرك؛ كاتخاذ قبور الصالحين عيداً.

٢ ـ مشروعية وفضل الصلاة والسلام على النبي ﷺ في أي موضع كان.

٣ ـ أنه لا فرق في الصلاة والسلام عليه بين من قرب من قبره، ومن بعد عنه.

٤ ـ النهي عن شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ؛ لقوله: **«لا تجعلوا قبري عيداً»**.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة برقم (١١٨٩)، ومسلم في الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد برقم (١٣٩٧).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً في باب قوله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤].

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وعن علي بن الحسين) هو: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولقبه: زين العابدين، وهو أفضل التابعين في زمنه، توفي سنة ثلاث وتسعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو)؛ أي: أن ذلك الرجل زُين له أن يدخل في ذلك المكان، ويخلو بالدعاء؛ كأنه وقع في قلبه أن الدعاء في هذا الموضع له مزية؛ لقربه من القبر الشريف.

قوله: (فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ) يا له من سند شريف! علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ. و«ألا» أداة تنبيه، وهذا من حسن التعليم أن قرن النهي والإنكار، بالرفق والاستدلال، ليحصل العلم والقبول معاً.

قوله: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم) تقدم معنى هاتين الجملتين الأوليين، وزاد في هذا الحديث: ذِكْر التسليم على ما تقدم في الحديث السابق، من قوله: «**فإن صلاتكم**». وينبغي أن يعلم بأنه لا يتم الأمر إلا بالجمع بين الصلاة والسلام؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] فلا يكفي أن يقول الإنسان: اللَّهُمَّ صلِّ على محمد؛ بل يقول: اللَّهُمَّ صلِّ وسلم على محمد، ولا يكفي أن يقول: عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ بل يقول: عليه الصلاة والسلام. وأما الاقتصار عليها في «الصلاة الإبراهيمية» فلأنها مسبوقة بالسلام عليه في التشهد.

قوله: (رواه في المختارة)، المختارة؛ هي أحاديث مختارة زائدة على ما في «الصحيحين»، جمعها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، فإن النبي ﷺ كان شديد الحرص على سد كل طريق يفضي إلى الشرك، وأخذ ذلك عنه أصحابه، والتابعون لهم بإحسان.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن الدعاء عند قبور الصالحين؛ لنهي علي بن الحسين الرجل عن الدعاء في الفرجة.

٢ ـ مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لفعل علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد رأى منكراً فغيّره؛ قال النبي ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[1]، وعلى هذا فينبغي لمن قصد بيت الله الحرام، أو مسجد رسوله ﷺ، ورأى من بعض المسلمين الذين لم يُتح لهم أن يتعلموا التوحيد شيئاً من الأخطاء أن يجتهد في تعليمهم. وكثير من طلبة العلم يذهب للعمرة أو للزيارة، ويرجع ولم يقل كلمة واحدة في التعليم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع أنه يرى من حال الناس وأخطائهم شيئاً كثيراً، لكن لا يرفع بذلك رأساً، ولا يرى بتركه بأساً، وربما تندَّر بها في المجالس! بخلاف حال السلف، كما فعل علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ ـ تحريم السفر إلى زيارة قبر النبي ﷺ؛ لقوله: **«لا تتخذوا قبري عيداً»**؛ لأن اتخاذه عيداً يقتضي السفر إليه.

٤ ـ بيان أن الصلاة والسلام عليه يحصلان ولو من مكان بعيد؛ لقوله: **«فإن صلاتكم**، وفي رواية: **تسليمكم، يبلغني حيث كنتم»**.

٥ ـ أن المقصود من الوقوف على قبره ﷺ هو الصلاة والسلام عليه. والطريقة الصحيحة في زيارة قبر النبي ﷺ، لمن كان حاصلاً في المدينة، وأحب أن يزور القبر الشريف، وقبر صاحبيه، فإنه إذا حاذى رأس النبي ﷺ حيال الدائرة المفتوحة في السور المحيط بحجرته ﷺ، استقبله وقال: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللَّهُمَّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»، فإن هذه الصيغة هي التي علَّمها النبي ﷺ أمته، حين علَّمهم السلام عليه، ثم يخطو خطوة واحدة أو خطوتين، فيستقبل رأس أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأن هذه القبور الثلاثة ليست مصفوفة جنب

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، برقم (٤٩).

إلى جنب؛ بل أقربها قبر النبي ﷺ، ثم رأس أبي بكر حيال قدم النبي ﷺ من ورائه، ثم قبر عمر من ورائه، فهم متوالون، وليسوا صفاً، ويقول أمام قبر أبي بكر: السلام عليك يا خليفة رسول الله، اللَّهُمَّ أجزه عن أمة محمد خير الجزاء، ويدعو له بما أحب، ثم يخطو خطوة، فيستقبل رأس عمر رضي الله عنه، ويقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين؛ لأنه أول من سمي بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، اللَّهُمَّ أجزه عن أمة محمد خير الجزاء، ثم ينصرف، ولا يطيل القيام، فهذه هي الزيارة المشروعة. وإذا أحب أن يدعو فلا يدعو باتجاه القبر، كما يفعل بعض الجهال؛ بل يستقبل القبلة ويدعو؛ وهذا ليس مشروعاً بخصوصه، وإنما باعتبار مشروعية الدعاء مطلقاً، ولا يستقبل القبر بالدعاء.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية براءة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، وقد تقدم ما تضمَّنته من الصفات الشريفة للنبي ﷺ، الدالة على أنه قد بيَّن التوحيد والشرك، وسد الذرائع الموصلة إليه.

الثانية إبعاده أمته عن هذا الحِمى غاية البعد.

لنهيه عن اتخاذ قبره عيداً، وبيانه أن الصلاة والسلام يبلغانه حيث كانوا، حماية جناب التوحيد.

الثالثة ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾؛ أي: حريص على هدايتنا، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إلينا، رؤوف رحيم بنا.

الرابعة **نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.**

وذلك من قوله: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»، فهذا هو الوجه المخصوص، وهو أن يكون أمراً راتباً، يشد الرحل إليه؛ بل حتى من كان في المدينة لا يرتب موعداً ثابتاً لزيارته، كأن يتخذ ليلة معينة، أو يوماً معيناً يقصد قبره، فكل ما أفاده لفظ (العود) فهو منهي عنه، لكن يفعل ذلك لماماً.

الخامسة **نهيه عن الإكثار من الزيارة.**

لأنه قال: «**عيداً**» والعيد: مأخوذ من العود، وهو التكرار.

السادسة **حثه على النافلة في البيت.**

لقوله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»، وهذا يقتضي أن تعمر البيوت بذكر الله والصلاة، وينبغي أن يُشاع هذا بين الناس، فبيوت كثير من المسلمين اليوم ـ وللأسف ـ صارت موطناً للشياطين، لا تسمع منها إلا المعازف، وترى فيها المشاهد الماجنة، التي تبثها قنوات العهر والرذيلة، فيجب طرد الشياطين، بذكر الله تعالى، وإقام الصلاة. وقد كانت بيوت المسلمين، فيما مضى، محلّاً لقيام الليل، وقراءة القرآن، وذكر الله، فينبغي على طلبة العلم أن ينشروا هذا بين أهليهم وذويهم، وأن يحثوهم على عمارة البيوت بكثرة الذكر والصلاة، وعدم مشابهتها للمقابر، وأن هذا من أعظم أسباب الحفظ والصون من أذى الشيطان؛ الحسي والمعنوي.

السابعة **أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.**

فالتنظير قصد به التنفير؛ لأنه قد استقر عندهم: أن المقابر ليست محلّاً للعبادة.

الثامنة **تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.**

المشار إليه النهي عن اتخاذ قبره عيداً وتعليل النهي: بأن الصلاة والسلام يبلغانه حيث كان، فلا محوج لشد الرحال إليه.

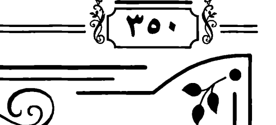
التاسعة **كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.**

وهذا في الحياة البرزخية، فإن النبي ﷺ قد مات قطعاً، ولكن الله تعالى يرد عليه روحه، فيرد السلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام**»(١)، وقد جاء مثل ذلك لآحاد المسلمين، فقد روى ابن عبد البر، مرفوعاً: «ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، إلا عرفه، ورد عليه السلام»(٢).



(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٤١)، وأحمد برقم (١٠٨٢٧).

(٢) الاستذكار الجامع، لمذاهب فقهاء الأمصار، ابن عبد البر (١/١٥٧)، والأحكام الشرعية، للإشبيلي (٢/٥٤٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٢٠٨).



باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» أخرجاه(١).

الشرح

❊ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

عقد المصنف هذا الباب لبيان أن الشرك يقع في هذه الأمة، ردّاً على القبوريين الذين يزعمون أن الشرك لا يمكن أن يقع في أمة محمد ﷺ، وأن ما يقع منهم من دعاء، وذبح، ونذر لغير الله عز وجل ليس شركاً.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: روى سعيد بن منصور في «سننه»، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَدِمَ حُيَيّ بْنُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).

أخْطَب، وكَعْب بْنُ الأشْرف إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَنَحْنُ خَيْرٌ، أَمْ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: وَمَا أَنْتُمْ، وَمَا مُحَمَّدٌ؟ قَالُوا: صُنْبُورٌ قَطَّعَ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سُرَّاق الْحَجِيجِ: بَنُو غِفَار، فنحن أهدى سَبِيلاً أَمْ هُوَ؟ قَالُوا: أَنْتُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَجَّلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾(١).

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ صيغة استخبار، وقد تكون رؤية علمية أو بصرية، والخطاب للنبي ﷺ.

قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾؛ أي: أعطوا، وهم اليهود والنصارى، والقرآن يعبِّر عنهم بثلاثة أوصاف: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء: ١٣١]، ﴿أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الشورى: ١٤]، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ولا تدل بحد ذاتها، على تزكية.

قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ أي: قدراً وحظاً من الكتاب، وهو التوراة والإنجيل.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾؛ أي: رغم كونهم أتوا نصيباً من الكتاب، وقامت عليهم الحجة الرسالية؛ فإنهم يؤمنون؛ أي: يصدقون ﴿بِالْجِبْتِ﴾ والجبت: كلمة تتناول عدة معانٍ، فتطلق على الصنم، والسحر، والكهانة، والساحر، والكاهن. وأما ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ فإن المراد به في هذه الآية: الشيطان؛ لأنه رأس الطواغيت، وأما الطاغوت بالمعنى العام: فهو مأخوذ من الطغيان، وقد عرّفه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، بأنه: «كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله»(٢).

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لأنها أثبتت أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وقع منهم إيمان

---

(١) التفسير من سنن سعيد بن منصور، محققاً (٤/ ١٢٨٠).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠).

بالجبت والطاغوت، رغم وجود الكتاب في أيديهم، فكذلك يقع في هذه الأمة، مع وجود الكتاب بين أيديها.

فوائد الآية:

١ ـ الدعوة إلى العظة والاعتبار بمن قبلنا؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ ـ وجوب الكفر بالجبت والطاغوت.

٣ ـ وجوب العمل بالعلم، وإلا صار حجة على صاحبه.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يا محمد، هل أخبركم، والخطاب في سياق محاجة أهل الكتاب.

قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: من هو أشر عاقبة، وجزاءً عند الله ﷻ؛ لأنهم كانوا قد ذموا أصحاب النبي ﷺ، ووصفوهم بالشر، فقال لهم: دعوني أخبركم بمن هو أشر ممن نبذتموه ورميتموه بذلك.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: حقق عليه غضبه، فلا يرضى عليه بعده.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾؛ أي: مسخهم كذلك، وهم أصحاب السبت.

قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: جعل منهم من يعبد الشيطان، وهؤلاء المذمومون هم أصحاب السبت، وهم طائفة من اليهود، سكنوا قريةً حاضرة البحر، ابتلاهم الله فصارت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ فتظهر على سطح الماء من كثرتها، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فتنة وابتلاء لهم. فتحايلوا على شرع الله، وصاروا يرمون شباكهم يوم الجمعة، ولا يسحبونها إلا يوم الأحد، فيقولون: لم نصِد يوم السبت حيث حُرم علينا، تحايلاً منهم، فعاقبهم الله ﷻ بهذه العقوبة الفظيعة، حيث لعنهم، وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت. ويمكن أن يقال: إن هذا الوعيد ينطبق على عامة اليهود، فمنهم من لعنه الله، وغضب عليه، ومنهم من جعل منهم القردة والخنازير، وهم أصحاب السبت خاصة، ومنهم من جعله يعبد الطاغوت، وكل هذا حاصل فيهم.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لدلالتها على وقوع الشرك ممن كان قبلنا، مع وجود الكتاب بين أيديهم، فلم يحجزهم عن عبادة الطاغوت، وفي هذا إشارة إلى أن هذه الأمة، وإن وجد فيها القرآن، وإن وجدت فيها الصحاح، والسنن، والمسانيد، فليس بمانع أن يقع من بعض أفرادها من يشرك بالله.

فوائد الآية:

١ ـ إمكان وقوع الشرك في هذه الآمة؛ لوقوعه فيمن كان قبلها.

٢ ـ محاجة المخالفين بالدليل الأظهر، فإنهم لما وصفونا بالشر، أمر الله نبيّه بأن يقول لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾، فذكر شيئاً من أوصافهم التي بلغوا فيها غاية الشر.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ فإن القوم لما انتكسوا بالشرك، وتنكروا لفطرهم، وغيّروا ما أوجب الله عليهم من عبادته وحده، جوزوا بجنس عملهم؛ فمسخهم الله قردة وخنازير، مسخاً حقيقيّاً. والجزاء من جنس العمل.

٤ ـ إثبات صفة الغضب لله ﷻ.

* * *

ثم قال المصنف:

(وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾)؛ أي: قال المتغلبون من ذوي الولاية والسلطان الذين عثروا على أصحاب الكهف، نبني على كهفهم مسجداً؛ تعظيماً لهم. وذلك أن الله تعالى أعثر عليهم بعد ثلاثمائة وتسع سنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ﴾ [الكهف: ٢١]؛ أي: ليعلم الناس أن وعد الله بإحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم أحياء، حق، وأن قيام الساعة حتم، إذ كانوا قد اختلفوا في البعث؛ هل هو حقيقة أم ليس كذلك؟ فأقام الله هذه الآية البينة؛ لتكون تعزيزاً لإثبات عقيدة البعث. فزين الشيطان لأصحاب السلطان، أن

يبنوا مسجداً على موضعهم، ويتبركوا بهم! وليس هذا من الله إقراراً لهم، ولكنه نكير عليهم.

❋ مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لأن الناس في ذلك الزمان قد وقع منهم الشرك، مع كونهم أهل كتاب، فبنوا المساجد على القبور، ووقعوا في الشرك، فحري أن يقع مثله في هذه الأمة.

فوائد الآية:

١ ـ تحريم اتخاذ المساجد على القبور.

٢ ـ إمكان وقوع مثله في هذه الأمة، وقد كان.

٣ ـ الحذر من الغلو في الصالحين.

* * *

ثم قال المصنف:

(عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن؟»** أخرجاه) حديث أبي سعيد ﷺ حديث عظيم، وأصل كبير في حصول الاختلاف والافتراق في هذه الأمة.

قوله: (لتتبعنَّ) قسم، واللام هنا، لام القسم، فقد أكد النبي ﷺ هذا الخبر بالقسم، ولام القسم ونون التوكيد الثقيلة، فما بعد هذا التأكيد تأكيد.

قوله: (سنن من كان قبلكم)؛ أي: طرق ومذاهب الأمم والطوائف السابقة.

قوله: (حذو القذة بالقذة)؛ أي: أنكم تحذون حذوهم كحذو القذة بالقذة. والقذة: ريشة السهم، وكل سهم له قذتان، متناظرتان تماماً، فلعظيم تناظرهما ضرب بهما المثل في التماثل.

قوله: (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) مثّل النبي ﷺ بجحر الضب، مع أنه لا يمكن للآدمي أن يدخل جحر الضب؛ لأن جحر الضب ـ كما هو معلوم ـ عند العارفين، يمتاز بالضيق، والحرج، والالتواء، فكأن النبي ﷺ يقول:

حتى لو تقحَّموا المسالك الضيقة الوعرة، وركبوا الأمور المنكرة، المستهجنة، لفعلتم! وهذا الذي حدَّث به النبي ﷺ قد وقع كما قال.

قوله: (قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟)؛ أي: أتعني بمن كان قبلنا اليهود والنصارى؟

قوله: (قال: «فمن؟»)؛ أي: فمن غيرهم؟ وجاء في حديث آخر: فقيل: يا رسول الله؛ كفارس والروم؟ فقال: «**ومن الناس إلا أولئك؟!**»[1]. فمن مجموع الحديثين يتبين: أن النبي ﷺ أخبر أن أمته ستحاكي من كان قبلها من الأمم، سواء كان ذلك على الصعيد الديني، أو على الصعيد المدني؛ لأن فارس والروم يدلان على الحالة المدنية السياسية؛ إذ هما كيانان اجتماعيان، سياسيان، وأما اليهود والنصارى، فيدلان على الحالة الدينية. وما أخبر به النبي ﷺ قد وقع، فإن هذه الأمة قد وجد فيها من يضاهي اليهود والنصارى، ومن يضاهي المشركين؛ كالفرس والمجوس، وغيرهم من الأمم الشرقية والغربية.

ويُؤيد هذا الحديث: ما أخبر به النبي ﷺ من طرق عدة من حديث معاوية[2]، وعبد الله بن عمرو[3]، وأبي هريرة[4]، وأنس[5]، وغيرهم، من قوله: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار**» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «**الجماعة**»،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» برقم (٧٣١٩).

(٢) المستدرك، للحاكم، دار المعرفة برقم (٤٤٣).

(٣) المعجم الكبير، للطبراني برقم (٦٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم برقم (٣٩٩١)، وأبو داود في كتاب السُّنَّة، باب شرح السُّنَّة برقم (٤٥٩٦)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم (٢٦٤٠)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٨٣٩٦) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم برقم (٣٩٩٢)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (١٢٢٠٨) وصححه الألباني.

وفي رواية: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(١). فهذه النصوص الدالة على حصول الافتراق في هذه الأمة، وتبعية هذه الأمة لمن كان قبلها من اليهود والنصارى في افتراقهم، واختلافهم، تبلغ بمجموع طرقها مبلغ التواتر المعنوي.

وكتاب الله تعالى شاهد على أن التفرق سيحصل ويقع، ولم يكن النبي ﷺ ليسوق هذه الأحاديث للخبر المجرد، وإنما ساقها لتحذير أمته من مهاوي الضلال، وسبل الافتراق، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. وفرق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي:

فالله تعالى قد قضى كوناً أن يقع الافتراق، وأن تتبع فئام من هذه الأمة سبل أهل الكتاب، والذين لا يعلمون، وسبق أيضاً في أمر الله الشرعي: النهي عن ذلك، فالواجب علينا أن نتفادى ما حرم الله تعالى شرعاً من التفرق والاختلاف، وأن نلزم السُّنَّة، وأن نعتصم بالكتاب.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، فقد أخبر النبي ﷺ أن ما وقع في الأمم السابقة سيقع في هذه الأمة، ومن ذلك الشرك، فقد وقع الشرك لدى اليهود والنصارى، ولدى فارس والروم، فسيقع في هذه الأمة.

فوائد الحديث:

١ ـ إمكانية وقوع الشرك في هذه الأمة، تبعاً لمن سبقها من الأمم.

٢ ـ عَلَم من أعلام النبوة؛ لإخبار النبي ﷺ بأمور مستقبلة، ما كان يعلمها، فوقعت كما أخبر.

٣ ـ التحذير من مشابهة اليهود، والنصارى، والمشركين.

٤ ـ ضرب الأمثال، وأن ذلك مما يُعين على إيصال المعاني، وتقريب العلم، لقوله: «**حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

* * *

---

(١) المعجم الأوسط، للطبراني برقم (٤٨٨٦)، والمعجم الكبير برقم (٦٢).

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمسلم: عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(١).

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»(٢).

الشرح

قوله: (ولمسلم: عن ثوبان) ثوبان هو: مولى رسول الله ﷺ، صحبه، ولازمه، وخدمه، وكانت وفاته بحمص، سنة (٥٤هـ).

قوله: (إن الله زوى لي الأرض)؛ أي: طواها، وجعلها كما جاء في بعض السياقات: كهيئة الكف، فقد صُورت له، وجمعت، حتى رآها، كما ينظر في

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض برقم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها برقم (٤٢٥٢) وصححه الألباني. وكذا أخرجه البرقاني كما أشار المصنف، ولعله في كتابه: الصحيح، ولا يتوفر بين أيدينا.

المرآة، أو كما ينظر في كفه، وهذا أمر ممكن أن نتصوره، حين نرى العرض التلفزيوني للأحوال الجوية؛ ترى الكرة الأرضية مبسوطةً، مرسومة، تعرض يَمنة ويَسرة، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً؛ بل تراها في الأجهزة الكفية كذلك، فهذا نوع من الزوي، لكنا نعلم قطعاً، أن ما زواه الله لنبيِّه ﷺ ليس على الصفة التي ذكرنا، وإنما هذا من باب التقريب، والمقصود أن الله مكّن الله نبيّه ﷺ من رؤيتها حقيقة.

قوله: (فرأيتُ مشارقها ومغاربها) رآها حقيقة، على صفتها التي خلقها الله عليها.

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها)؛ أي: أن فتوحات أمة محمد ﷺ ستبلغ المشارق والمغارب، وقد وقع ذلك؛ فما مضى قرن على وفاة النبي ﷺ إلا وقد بلغ المسلمون تخوم الصين شرقاً، وخاضوا في المحيط الأطلسي غرباً، وملكوا بلاد الأندلس التي تُسمى الآن إسبانيا والبرتغال، شمالاً، وتسلقوا جبال البرانس التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا، واستولوا على مناطق كبيرة من (بلاد الغال) كما كانت تُسمى؛ أي: بلاد فرنسا، وقاربوا أن يصلوا «باريس»، ومكثوا في (بلاد الغال) سبعين سنة، كما أنهم من الجانب الآخر، شمالاً حاصروا القسطنطينية، وكادوا أن يفتحوها، وتوغلوا في بلاد النوبة، وأواسط إفريقيا جنوباً. كل ذلك في القرن الهجري الأول، قرن الصحابة، الذي هو القرن الذهبي حقّاً لهذه الأمة، فقد بلغ فيها ملك هذه الأمة المشارق والمغارب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولعل في علم الله ﷻ في قادم الأيام ما لا نحيط به، فقد أخبر النبي ﷺ أن أمته ستمتلك روما، كما تمتلك القسطنطينية، فقد جاء في الحديث أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي المدينتين تُفتح أولاً؛ قسطنطينية أو رومية؟ فقال: «**مدينة هرقل تُفتح أولاً**»[1]؛ يعني: قسطنطينية، وقد فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح. وكاد المسلمون في زمن أسد بن الفرات تلميذ الإمام مالك بن أنس، رحمهما الله، أن يفتحوا روما، حينما استولوا على صقلية، قبالة إيطاليا، لولا أن الباباوات، والأباطرة الرومان، بذلوا الجزية الذهبية لدفع ذلك.

وأما دعوة النبي ﷺ فإنه بفضل الله، ثم بواسطة الوسائل الإعلامية الحديثة

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٦٦٤٥).

قد بلغت كل مبلغ، وإن كان لا يزال فئام من الناس لا يعلمون عنها شيئاً، لكنها قد بلغت جميع القارات.

قوله: (وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين قيل: كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر، وهو ملك الروم، وعبّر بالأحمر عن الذهب، وهو أكثر مال القياصرة، وبالأبيض عن الفضة، وهو أكثر مال الأكاسرة. وقد يكون المعنى أعم، فإن الذهب والفضة عند كلا المملكتين. وهذا يدل على أن هذه الأمة تنفتح عليها أبواب الغنائم، وهذا ما جرى فعلاً، فصارت الغنائم تساق إلى حواضر المسلمين في المدينة، ثم دمشق، ثم بغداد، من كل مكان، وتنقل السبايا، والأموال العظيمة من جراء الفتوحات الإسلامية.

قوله: (وإني سألتُ ربي لأمتي)؛ أي: أن النبي ﷺ سأل ربه لأمته ثلاث مسائل، فأعطاه اثنتين، الأولى، والثانية، ومنعه الثالثة، كما جاء عند الترمذي من حديث خباب: (صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ صلاةً فأطالَها، قالوا: يا رسول اللهِ، صلَّيتَ صلاةً لم تَكُن تُصلّيها، قالَ: «**أجلْ إنَّها صلاةُ رَغبةٍ ورَهْبةٍ، إنِّي سألتُ اللهَ فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتَينِ ومنعَني واحدةً، سألتُهُ أن لَا يُهْلِكَ أمَّتي بسَنَة فأعطانيها، وسألتُهُ أن لَا يُسلِّطَ علَيهم عَدوّاً من غيرِهِم فأعطانيها، وسألتُهُ أن لا يُذيقَ بعضَهُم بأسَ بعضٍ فمنعَنيها**»)[1]، وعند النسائي: «**سألتُ ربِّي ﷿ فيها ثلاثَ خصال فأعطاني اثنتينِ ومنعني واحدةً سألتُ ربِّي ﷿ أن لا يُهلِكنا بما أَهلَكَ بِهِ الأممَ قبلنا فأعطانيها وسألت ربِّي ﷿ أن لا يظْهرَ علينا عدوّاً من غيرنا فأعطانيها وسألتُ ربِّي أن لَا يلبسنا شيعاً فمنعنيها**)[2]، **وهذه الثلاث هي:**

• **الأولى: (ألا يهلكها بسنة بعامة)** والسَّنَة: الجدب والقحط، فاستجاب الله دعاءه، فلم تقع مجاعة عامة بسبب القحط والجدب، وربما وقع هلاك جزئي.

• **الثانية: (وألا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم)**؛ أي: ألا يسلط على أمته عدوّاً خارجيّاً من غيرهم، فيستبيح بيضتهم. وبيضة القوم: عقر دارهم، وقصبة مملكتهم. ولا شك أن أم القرى مكة شرفها الله؛ ثم

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٧٥) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي رقم (١٦٣٧) وصححه الألباني.

تليها المدينة، وقد حفظ الله هاتين البلدتين من أن يستبيحها كافر، فاستجاب الله تعالى هذه الدعوة أيضاً.

• **الثالثة: (أن لا يجعل بأسهم بينهم شديداً)**؛ أي: ألا يحتربوا فيما بينهم. لكن الله تعالى منعه هذه؛ ولأجل ذا وقع بين المسلمين على مدار التاريخ حروب وإحن كثيرة، شديدة، وهذا من حكمة الله البالغة، وقدره السابق.

قوله: (وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد)؛ أي: إذا قضى الله قضاءً فإنه لا يرد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧]. ولا يشكل على هذا قول النبي ﷺ: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»[1]، فإن المقصود بالقضاء في هذا الحديث ليس القضاء الذي في اللوح المحفوظ، وإنما المراد به شيء انعقدت أسبابه، وتوفرت دواعيه، فصرفه الله بسبب الدعاء. فيكون الذي في أم الكتاب أن هذا الأمر المستوجب الوقوع، يعارضه دعاءٌ فيرفع بسببه، فالذي في اللوح المحفوظ السبب والمسبب معاً، وبذلك يزول الإشكال، فما في اللوح المحفوظ لا يتغير، وأما ما في صحف الملائكة، فإنه يقع فيه المحو والإثبات، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، على أحد التفسيرين في معنى المحو والإثبات. وقيل: إن المحو والإثبات لا يتعلق بالأقدار، وإنما بالحسنات والسيئات، وهو الراجح.

قوله: (وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها) هذا وعد من الله لنبيِّه، والله لا يخلف الميعاد، فكان كما وعد: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، فإن هذه الأمة قد تكالب عليها من بأقطارها من أمم الأرض، وبقيت بيضتها محمية مصونة، وتقشع الغزاة؛ كالتتار، والصليبيين، والاستعمار الأوروبي الحديث، وحفظ الله لهذه الأمة ـ ولله الحمد ـ عقيدتها، وشخصيتها، وطريقتها؛ بل إن بعض الغزاة ذاب في هذه الأمة واعتنق دينها؛ لأنه دين يعلو ولا يُعلى عليه، كما وقع للتتار.

قوله: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً) هذه هي

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء برقم (٢١٣٩) وحسنه الألباني.

الثالثة، التي لم يُعطها، فقد جرى في هذه الأمة من الفتن الداخلية، ما جعل بعضهم يقتل بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، كما أخبر الله تعالى، وهذا أمر لا يخفى على قارئ التاريخ.

قوله: (رواه البرقاني في صحيحه، وزاد) البرقاني: الحافظ، أبو بكر، أحمد بن محمد الخوارزمي الشافعي، محدث، فقيه، ورع، مصنف. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة رَحِمَهُ اللَّهُ. وصحيحه مسند تضمن ما في الصحيحين، وزيادة. وزيادته هذه معتمدة، نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كتبه(١).

قوله: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) الأئمة: جمع إمام، والإمام هو من يقتدى به؛ ولذلك سُمي إمام الصلاة إماماً؛ لأن مَن خلفه من الصفوف يقتدون بصلاته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، فالإمامة تكون في الخير والشر، فخاف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين، **وهم**: إما أن يكونوا أئمة دنيا، أو أئمة دين، فأئمة الدنيا: سلاطين فجرة، وأئمة الدين: علماء سوء، فهؤلاء وهؤلاء أضر شيء على الأمة، كما أن أضدادهم وهم الأئمة الصالحون، والعلماء الربانيون، أنفع للأمة؛ لأنه بصلاحهم يصلح الناس.

وقد روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لإمام عادل؛ لأن في صلاحه صلاحاً للمسلمين»(٢)، فالسلطان الصالح، والعالم الرباني، نفعهم وأثرهم على الأمة لا يوصف، والعكس بالعكس، كما قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَا المُلُوكُ … وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهبانُهَا(٣)

قوله: (وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة)، صدق

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ١٤٢).
(٢) الفروع وتصحيح الفروع (٣/ ١٧٨)، والمبدع في شرح المقنع (٢/ ١٦٦).
(٣) ديوان عبد الله بن المبارك (ص٢٧).

رسول الله ﷺ، فقد وقع السيف حين انكسر الباب، بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما في «صحيح البخاري»، حينما كان عمر رضي الله عنه مع نفر من الصحابة يتذاكرون، فقال: أيكم يذكر الفتن؟ فقال حذيفة: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده، يكفرها الصوم والصلاة»، قال: ليس عن هذا أسألك، ولكني أسألك عن الفتن التي تموج موج البحر، وكان حذيفة رضي الله عنه ذا عناية بأمر الفتن؛ يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني»[1]، فقال: ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً، فقال عمر رضي الله عنه: أيُفتح الباب أم يُكسر؟ فقال حذيفة: بل يُكسر، قال: أكسراً لا أبا لك؟! إذن لا يُرد أبداً[2]، وهذا من فقهه رضي الله عنه؛ لأن الباب إذا فُتح كان حريّاً أن يُرد، لكن إذا كسر لم يرد، فمعنى ذلك: أن الفتن تنفتح على المسلمين، ولا يمكن ردها، وهذا ما جرى. فقيل لحذيفة بعد ذلك: أكان عمر يدري من الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة، فسأله بعض أصحابه: من الباب؟ قال: عمر. فقد كان الباب المنيع الحائل دون وقوع الفتن، فقتله أبو لؤلؤة المجوسي، ثم مرت سنوات من خلافة ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأمور تبدو مطمئنة، لكن أهل الفتن والشغب من الخوارج كانوا ينخرون في الأمصار، ويحرضون الدهماء، حتى تداعوا وتنادوا للموسم ـ موسم الحج ـ، ثم توجهوا إلى المدينة، وحصروا أمير المؤمنين، عثمان، في بيته، وتسوروا عليه، وقتلوه شهيداً، فدخلت الأمة في أتون من الفتن المتلاحقة، تذكو تارة، وتخبو تارة. فذلك مصداق قول النبي ﷺ: **«وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»**.

قوله: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين) هذا محل الشاهد من الحديث للباب. والحي: القبيلة، والجماعة الكثيرة، فدل على أنه يقع في هذه الأمة شرك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن برقم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب الصوم كفارة برقم (١٨٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين برقم (١٤٤).

قوله: (وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) الفئام: الجماعات الكثيرة، فهذا دليل آخر، صريح في وقوع الشرك في هذه الأمة، وأن منها من يعبد الأوثان.

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، فهؤلاء الذين يدعون غير الله، ويستغيثون بغيره، فيما لا يقدر عليه إلا الله، ويسألونهم الشفاء، والفرج، وتنفيس الكربات، وإجابة الدعوات، ويطوفون بقبورهم، ويعكفون عندها، مشركون يعبدون الأوثان. وسيقع بصورة أشد صراحة؛ فقد جاء في الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة**»[(١)]؛ يعني: يطفن حوله. وذو الخلصة: صنم كانت تعبده قبيلة دوس، ومواطنها ما يُسمى الآن بمنطقة «الباحة»، وكان لهم صنم معروف، يقال له: ذو الخلصة.

وأما قول النبي ﷺ: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[(٢)]، فهذا إخبار من النبي ﷺ عن حال الشيطان في وقت من الأوقات؛ أنه أيس أن يُعبد غير الله في جزيرة العرب، وهذا لا يمنع وقوع ما أخبر به من عود الشرك.

قوله: (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي) هذا، أيضاً، من أعلام النبوة، حيث أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في أمته متنبؤون كذابون، عدتهم ثلاثون. وقد ثبت هذا في أحاديث أخرى كما في قوله: «**في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون: منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي**»[(٣)]، فيكون العدد ثلاثين، خرج مخرج الجبر، والمقصود بهم من كان لهم شأن، وشهرة، وأتباع، وأما المتنبئون المغمورون؛ كالمجانين، فهؤلاء لا حصر لهم.

ومن المتنبئين الذين صار لهم ذكر، وأتباع: مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وإن كان قد تاب رضي الله عنه، وغيرهم، وممن وُجد في العصور الأخيرة: ميزرا غلام أحمد القادياني، ومحمد علي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان برقم (٧١١٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس... برقم (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً برقم (٢٨١٢).

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٣٣٥٨) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح».

الشيرازي، ومن يلقب نفسه بالبهاء، مؤسس طائفة البهائية، وغيرهم من أدعياء النبوة، وربما ادعوا أكثر من ذلك.

قوله: (وأنا خاتم النبيين) الختم: مهر الشيء، وطبعه، فإذا ختم على الشيء فلا يزاد عليه. ويصح أن يقال: (خاتَم) بفتح التاء، و(خاتِم) بكسرها. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قوله: (لا نبي بعدي) هاتان الجملتان قاطعتان لطمع كل متطلعٍ، أفاك، أثيم، يحاول ادعاء النبوة؛ ولهذا لما أيس بعض الزنادقة من تحصيل النبوة لأنفسهم، بالرياضة والمجاهدة، زعموا، نفخوا في صورة الولاية، فقالوا: مقام الولاية فوق مقام النبوة! وأنشد قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ[1]

فقلبوا السُّلّم، وجعلوا أعلى المقامات مقام الولاية، تليها النبوة، ثم دونها الرسالة، والعكس هو الصحيح: فالرسالة أعلى المراتب، ثم النبوة، وأما الولاية، فإن الولي لا يُوحى إليه أصلاً، فهي ليست قسيماً، ولا ندّاً للنبوة والرسالة، لكن القوم لما أسقط في أيديهم، ولم ينالوا ما اشتهوه من هذه المراتب، ادعوا أن مرتبة الولاية مرتبة سامقة عالية، أعلى من مرتبة النبوة.

قوله: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة): هذه البشارة تقابل ما تقدم، فإن من يقرأ الجمل السابقة قد يلحقه شيء من الأسى أنّ هذا يقع في هذه الأمة شرك، وعبادة أوثان، فأتى بهذه الجملة التي تبعث في النفس الفأل والفرح ببقاء طائفة على الحق، منصورة. والطائفة: الجماعة الكثيرة، منصورة: أي: أنها مؤيدة بالحق، غالبة.

---

(١) البيت، لأبي عربي في فصوص الحكم (١/ ٦٣)، ونسبه له ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٦٦)، وهو في الطبقات الكبرى، للشعراني الصوفي (٢/ ٦٢) بلا نسبة، وفي الصفدية (١/ ٢٥٢)، والفرقان (ص١٩٧) كلاهما لابن تيمية أيضاً، ويوجد بيت قريب منه في لطائف الأسرار، لابن عربي (ص٤٩) وفيه: دون الولي وفوق الرسول. وهو في منهاج السُّنَّة (٥/ ٣٣٦) وذكر محققه الدكتور محمد رشاد سالم أنه لم يجد هذا البيت في كتب ابن عربي، ووجد في كتابه (لطائف الأسرار):

سماء النبوة في برزخ ... دوين الولي وفوق الرسول.

قوله: (لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم) لا يضرهم من خذلهم من الناحية العملية، ولا من خالفهم من الناحية العلمية. فالضرر منتف عن الطائفة المنصورة من **الجهتين**:

الأولى: الخذلان؛ كالمثبطين الذين إذا قيل لهم: قوموا معنا، انصروا دين الله، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قالوا: هلك الناس، فلا فائدة ولا جدوى، ونحو ذلك من المعاذير، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

الثانية: المخالفة: المنازعة في الحق، واتباع المتشابه، فإذا قيل لهم: يا قوم! هذا الشرك الذي بُعث الأنبياء برده، قالوا: هذا مجرد تقرب بالصالحين، واستشفاع بهم، لمنزلتهم عند الله، ونحو ذلك.

قوله: (حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى) أمر الله الذي سيأتي هو ساعة المؤمنين؛ وليست الساعة الكبرى؛ وهي الريح الطيبة التي يبعثها الله تعالى في آخر الزمان؛ ريحها أطيب من المسك، ومسها ألين من مس الحرير، فتدخل خياشيم كل مؤمن فتستل روحه، فلا يبقى على وجه الأرض مؤمن، ويبقى في الأرض شرار الخلق، كما تقدم، فعليهم تقوم الساعة. فالساعة التي بمعنى خراب العالم، لا تقوم على مؤمن، وإنما تقوم إلا على شرار الخلق، وأما أهل الإيمان فإن لهم ساعة دون ذلك، وهي الريح الطيبة.

فقد أخبر ﷺ بأن الطائفة المنصورة باقية ـ بحمد الله ـ لا تنقطع سلسلتها، وهذا هو الواقع، فإنه لم يزل من حماة السُّنَّة، وحراس العقيدة على مر العصور والدهور، من أقامهم الله تعالى في هذه المهمة الشريفة، فحفظوا السنن والآثار، ورووا أحاديث النبي ﷺ على وجهها، وانتدبوا لتمييز الصحيح من الضعيف، وذبوا عن السُّنَّة، وجاهدوا في سبيل الله، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وصبروا، وصابروا، ورابطوا، حتى أبقى الله تعالى هذا الدين مصوناً محفوظاً لم يُشب.

⌘ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من إخبار النبي ﷺ بأنه يلتحق حي من أمته بالمشركين، وأن فئاماً من أمته تعبد الأوثان، وهذا مطابق للترجمة.

فوائد الحديث:

١ ـ كفر يهود، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وشدة عداوتهم للمؤمنين، وموالاتهم للكافرين.

٢ ـ شدة شر اليهود، وحلول اللعنة والغضب عليهم، وعقوبتهم العاجلة بالمسخ، والشرك.

٣ ـ خطر العاطفة والاستحسان المجرد عن الدليل، وإفضائه إلى الشرك، كما وقع من الذين غلبوا على الأمر، في قصة أصحاب الكهف من اتخاذ المسجد عليهم.

٤ ـ سُنَّة الله الكونية في اتباع السابقين.

٥ ـ عظيم قدرة الله، وتصويره الأرض لنبيِّه، حتى رأى المشارق والمغارب.

٦ ـ البشارة باتساع رقعة البلاد الإسلامية، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

٧ ـ صدق موعود الله لهذه الأمة بالنصر والتمكين، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]

٨ ـ حرص النبي ﷺ على أمته، ورأفته ورحمته بالمؤمنين.

٩ ـ إثبات القدر السابق، والرد على القدرية النفاة لقوله عن ربه: «**إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**».

١٠ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى، وتعلقه بمشيئته.

١١ ـ حفظ الله لأمة محمد ﷺ من المجاعات المفنية، بسبب القحط.

١٢ ـ حفظ الله لأمة محمد ﷺ من الزوال بسبب عدو خارجي، مهما بلغت قوته وكثرته.

١٣ ـ حصول الفتن الداخلية في أمة محمد ﷺ، وما يترتب عليها من القتل والاسترقاق.

١٤ ـ خطر الأئمة المضلين في الدنيا والدين.

١٥ ـ استمرار الفتن في أمة محمد ﷺ، ابتلاءً من الله، إلى قيام الساعة.

١٦ ـ حصول الردة الجماعية من بعض الأمة، وتحولهم إلى الشرك.

١٧ ـ عودة عبادة الأوثان في الأمة، والرد على من أنكر وقوع ذلك.

١٨ ـ ظهور المتنبئين الكذابين، وبيان أن عددهم ثلاثون.

١٩ ـ إثبات عقيدة ختم النبوة، وكفر من أنكرها؛ كالقاديانية.

٢٠ ـ بقاء طائفة على الحق منصورة، وهم أهل السُّنَّة والجماعة، وتأييدهم، وحفظهم من ضرر المنافقين المخذلين، وأهل البدع المخالفين.

٢١ ـ توقيت ذلك بإتيان أمر الله، وهي الريح الطيبة، فلكل أجل كتاب.

٢٢ ـ في الحديث جملة من أعلام النبوة، من إخباره ﷺ بأمور مستقبلة، وقعت، وتقع، وستقع، كما أخبر.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **تفسير آية النساء.**

وهي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، فوقع فيهم الشرك رغم كونهم أهل كتاب، فكذلك يقع في هذه الأمة، خلافاً لمن أنكره.

الثانية **تفسير آية المائدة.**

وفيها: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ مع كونهم أهل كتاب، فكذلك يقع في هذه الأمة، خلافاً لمن أنكره، أو استبعده.

الثالثة **تفسير آية الكهف.**

وهي قول الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ فوقع فيهم الشرك، مع وجود الكتاب بين أيديهم، فكذلك في هذه الأمة.

الرابعة **وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ وهل هو اعتقاد قلب؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟**

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعنى الثاني، كما يدل عليه منطوق الآية، وسبب

النزول. ولا شك أن الأول يدخل دخولاً أوليّاً، وهو الإيمان بها بالقلب، لكن ما استنبطه المصنف من الآية هو موافقة أهلها موافقة عملية. وهذا ينطبق على كثير من المنتسبين للعلم، الذين لا يرون بهذه البدع الشركية بأساً، ولا يرفعون بإنكارها رأساً.

الخامسة **قولهم: «إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين».**

أي: أن يهود فضلت سبيل المشركين على سبيل المؤمنين، وزكت طريقتهم، مع علمهم بشركهم وكفرهم، مناكفةً للمؤمنين، وحسداً من أنفسهم. وقد وقع من علماء السوء في زمن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من يُغلِّط الشيخ، وينصر أصحاب البدع الشركية عليه، ويقول: أنتم أهدى وأصوب مما يدعوكم إليه، مع أنه يدعوهم إلى توحيد الخالق، وذم الأنداد، وعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

السادسة **وهي المقصود بالترجمة: أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.**

حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي قال فيه النبي ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم»**، فإذا كان الله قد أخبرنا عن من قبلنا بأنه وقع فيهم مَن يؤمن بالجبت والطاغوت، ومَن عبد الجبت والطاغوت، ومن اتخذ المساجد على قبور الصالحين، فإنه يقع في هذه الأمة سواء بسواء.

السابعة **التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.**

كما في رواية البُرقاني: **«وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»**، فإذا ادعى المدافعون عن القبورية، والوثنية المعاصرة، أن أمة محمد معصومة من الشرك، يقال لهم: هذا محمد نفسه ﷺ قال: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان» أفأنتم أعلم أم رسول الله ﷺ؟!

الثامنة **العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.**

وهو: المختار بن عبيد الثقفي، وكان قد خرج في أواخر عهد الصحابة، بالعراق، فادعى النبوة والألوهية، ووقع منه ـ والعياذ بالله ـ شر عظيم، وتبعه خلق كثير من المفتونين، حتى أهلكه الله ﷻ، فهذا فعلاً مما يدعو للعجب أن يُصدَّق مع أنه كان يظهر الإقرار بنبوة محمد ﷺ.

التاسعة **البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضى؛ بل لا تزال عليه طائفة.**

كما في قوله: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**»؛ ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يشرف بالانتماء إلى هذه الطائفة المنصورة، وأن يحرص على معرفة صفاتها، وخصائصها، حتى يسلكه الله تعالى في سلكها.

العاشرة **الآية العظمى؛ أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.**

كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الحادية عشرة **أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.**

لقوله: «**حتى يأتي أمر الله**»، ومراده بالساعة: ساعة المؤمنين، وهي الريح الطيبة.

الثانية عشرة **ما فيهن من الآيات العظيمة.**
منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنزين. وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين. وإخباره بأنه منع الثالثة. وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

فهذا نحو عشر آيات من آيات النبوة، أخبر بها النبي ﷺ، وكلها وقعت كما أخبر ﷺ، وبعضها يقع، وبعضها سيقع. وقد يتفاجأ السامع في وقت النبي ﷺ كيف يقع ذلك؟ لكن الأمر وقع كما أخبر ﷺ، ومن تأمل هذه الآيات وطبقها على الواقع وجد أنها منطبقة غاية الانطباق.

الثالثة عشرة **حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.**

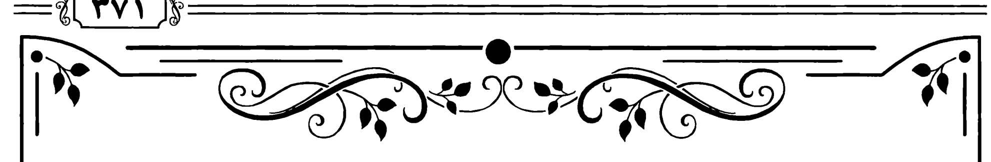
الحصر بقوله: «**وإنما**»؛ لأن الأئمة المضلون يحصل بضلالهم ضلال من خلفهم. وهذا في الأمور العامة، وأما الأمور الخاصة، فقد قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»(١).

الرابعة عشرة **التنبيه على معنى عبادة الأوثان.**

في قوله: «**وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**»؛ أي: أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها؛ بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحله الله، فيتبعوهم. وهذا مما وقع في هذه الأمة، كما وقع فيمن قبلها.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣٦٣٦).



باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(١).

وقال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٣).

وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»(٤). وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر(٥).

---

(١) تفسير البغوي، طيبة (٢/ ٢٣٤).

(٢) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٥/ ٤١٨) بلفظ: «كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، وهي كهان ينزل عليها الشيطان».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠] برقم (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر، وأكبرها برقم (٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر برقم (١٤٦٠) وضعفه الألباني. والذي عند الترمذي (ضربة) بالتاء.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب برقم =

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت[(١)]. وكذلك صح عن جندب[(٢)]. قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[(٣)].

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان السحر منافياً لأصل التوحيد لما يتضمنه من ادعاء علم الغيب؛ ومن الاستعانة بالشياطين، ولكثرة شيوعه، وعظيم خطره، وشديد أذاه على الناس، عقد المصنف هذا الباب مبيناً حكمه، وحكم مرتكبه، وآثاره الخطيرة.

وقد ابتلى الله الناس بالسحر قديماً، فقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

لقد أنزل الله تعالى ملكين كريمين ؛ هاروت وماروت، وهما ملكان كسائر الملائكة الكرام، لا نقول فيهما إلا ما نقول في سائر ملائكة الله ﷻ، ولا نلتفت إلى الروايات الإسرائيلية الخيالية، التي ليس لها خطام ولا زمام، أنزلهما الله تعالى في حاضرة من حواضر العالم القديمة وهي «بابل»، فكانا يعلِّمان الناس السحر؛ فتنة وابتلاء، فإذا قصدهما قاصد ليتعلم منهما السحر قالا له بصريح العبارة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، مما يدل على أن استعمال السحر كفر، وأنه يُؤدي إلى أضرار بليغة: نفسية واجتماعية، فيقتل، ويمرض، ويفرق بين المرء

= (٣١٥٦)، لكنه لم يذكر قتل السحرة. وأخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية من المجوس برقم (٣٠٤٣) بذكر قتل الساحر دون ذكر لفظ الساحرة. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٦٤٩٨) باللفظ المذكور.

(١) أخرجه مالك في الموطأ، رواية يحيى الليثي برقم (١٥٦٢)، وعبد الله بن أحمد في مسائل أبيه برقم (١٥٤٣).

(٢) التاريخ الكبير، للبخاري بحواشي المطبوع (٢/ ٢٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير، ت: سلامة، (١/ ٣٦٥).

وزوجه، فكان هذا من أسباب حصوله في بني آدم. ولم يزل السحر موجوداً في بني آدم، وآثاره مشهودة.

قوله: (باب: ما جاء في السحر)؛ أي: باب ما جاء من النصوص من الوعيد في السحر. **والسحر في اللغة**: ما خفي ولطف سببه؛ أي: أن له تأثيراً خفياً دقيقاً؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»(١)؛ وذلك لأن البيان يُؤثر في النفوس، فالكلام كما قيل: مغناطيس القلوب؛ ولهذا يطلق السحر على الهواء، فيقال: فلان انتفخ سحره ـ أي: رئته ـ بالهواء.

وأما في الاصطلاح: فهو عبارة عن عزائم، ورقى، وتدخينات، وأدوية، تُؤثر في القلوب والأبدان، فتقتل تارة، وتمرض تارة، وتفرق بين المرء وزوجه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ أي: قد علمت اليهود؛ إذ السياق في الرد على اليهود وبيان مخازيهم التي منها: اشتغالهم بالسحر. وقد سحروا رسول الله ﷺ؛ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، فصار النبي ﷺ يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، لكن ذلك لم يُؤثر على البلاغ، فإن الوحي معصوم ـ بحمد الله ـ، حتى قال لعائشة رضي الله عنها: «**أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاقة، وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان**». فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: «**نخلها كأنه رؤوس الشياطين**»، فقلت: أستخرجته؟ فقال: «**لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً**» ثم دفنت البئر(٢). فترك النبي ﷺ معاقبة الساحر اليهودي، مراعاة لهذه المصلحة، وهي خشية إثارة الفتنة بين الناس. فاليهود دهاقنة السحر قديماً وحديثاً، فلهذا ذمهم الله تعالى بتعاطيه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: من رضي به، واستعمله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الخطبة برقم (٥١٤٦)، ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة برقم (٨٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده برقم (٣٢٦٨)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر برقم (٢١٨٩).

قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾؛ أي: من نصيب، وهذا وعيد شديد يقتضي تخليده في النار، ويدل على كفر الساحر.

قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذه في صفة أهل الكتاب الذين تقدم ذكرهم في الباب السابق. وتقدم أن كلمة الجبت: تقع على الساحر، والكاهن، والصنم. والمقصود بها هنا: الساحر، كما فسرها عمر رضي الله عنه.

قوله: **(قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)** هذا من تفسير الشيء بأحد أنواعه. والمعنى العام للطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

قوله: **(قال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد)** فهؤلاء طواغيت ولا ريب، ولم يرد جابر الحصر؛ بل هم نوع من أنواع الطواغيت. **والكهان**: جمع كاهن، وهو من يدعي معرفة الأمور المستقبلة، أو الإخبار عن الأشياء المغيبة. وكانت العرب في جاهليتها تحتفي بشخصين: الكاهن، والشاعر، فلكل قبيلة كاهن له رِئي من الجن، يتكهن لها وشاعر يفتخر لها، ويذب عنها.

⁂ مناسبة الآيتين للباب:

ظاهرة، لما فيهما من ذم السحر، ووعيد السحرة.

فوائد الآيتين:

١ ـ تحريم السحر؛ بل إن الآية الأولى تدل على كفر الساحر؛ لقوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾ وهذا الوصف لا يقع إلا على كافر ـ والعياذ بالله ـ.

٢ ـ الوعيد البليغ على من استغنى عن كتاب الله عز وجل وشرعه، وسُنَّة نبيّه ﷺ، بالسحر؛ إذ أن هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب آمنوا بالجبت والطاغوت، وهجروا ما أنزل الله عليهم من التوراة، ففيه ذم بليغ لكل من نحا نحوهم، ولو كان من هذه الأمة، فاستشفى بغير ما جعله الله سبباً للشفاء من الأدوية الشرعية والحسية، كما يقع من بعض الجهال والسفهاء الذين يقصدون

السحرة لطلب الشفاء، ويظنون أنه لا يكشف الضر إلا ساحر، فيستغنون بالسحر عن كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وما تضمناه من الرقى الشرعية، والعوذ الإيمانية.

قوله: **(عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا»)** فعل أمر؛ بمعنى: اتركوا؛ كأنما قال: كونوا في جانب وهي في جانب، فالمجانبة تقتضي التخلي والبعد.

قوله: **(السبع الموبقات)**؛ أي: المهلكات، وإنما سُميت كذلك لأنها تهلك فاعلها في الآخرة.

قوله: **(قالوا: يا رسول الله، وما هُنَّ؟)** هذا ليس من السؤال المذموم الذي عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ١٠١]؛ لأن سياق كلام النبي ﷺ يشعر بالإغراء بالسؤال، وطلب العلم، بخلاف ابتدار المسألة في أمر مسكوت عنه.

قوله: **(الشرك بالله)** هذا أعظم الموبقات بلا ريب، ولذلك قدمه بالذكر، فإن الشرك بالله أعظم الذنوب على الإطلاق، كما سُئل في الحديث الآخر: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدّاً، وهو خلقك**»(١)، فالشرك أظلم الظلم، وأقبح القبيح، وأمحل المحال، فما عصي الله بذنب أعظم من الشرك، ولا أطيع بحسنة أعظم من التوحيد.

قوله: **(والسحر)** هذا هو موضع الشاهد من الحديث، وقد تقدم تعريف السحر.

قوله: **(وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق)** قتل النفس من أعظم الموبقات، وقد توعد الله تعالى قاتل النفس بعظيم العقوبة، فقال: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾**﴾ [النساء: ٩٣]، وقال ﷺ: «**لن يزالَ المؤمن في فسحة من دينه**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢] برقم (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده برقم (٨٦).

ما لم يصب دماً حراماً»(١)، ولما رأى رسول الله ﷺ الكعبة يوماً، قال: «**ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك؛ ماله ودمه**»(٢).

وقوله: (إلا بالحق) استثناء واحتراز لمن قتل بالحق، وقد بيَّنه ﷺ بقوله: «**لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٣).

قوله: (وأكل الربا) وهو من أعظم الفساد المالي، وقد توعد الله أكلة الربا بأبشع العقوبات، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قوله: (وأكل مال اليتيم) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، وفي الحديث: «**إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ**»(٤).

قوله: (والتولي يوم الزحف) قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦] فإذا التقى الصفان لم يجز التولي، إلا من باب الكر والفر، إلى موضع آخر، متحرفاً لقتال، أو متحيزاً إلى فئة.

قوله: (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)؛ أي: قذفهن بالزنا، وعبّر بالقذف لأن التهمة بالزنا كالقذيفة، في شدتها وأليم وقعها على المحصنة،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات برقم (٦٨٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله برقم (٣٩٣٢) وضعفه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] برقم (٦٨٧٨)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم برقم (١٦٧٦).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٢١١) وقال الذهبي: على شرط مسلم (١/ ١٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٢٠٢٥٤).

الشريفة، العفيفة. فلذلك غلظت عقوبته، ومذمته، في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥].

فالحذر الحذر من هذه السبع.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من عد السحر من السبع الموبقات، وذكره بعد الشرك مباشرة.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم هذه السبع المهلكات، واجتنابها.

٢ ـ غلظ أمر السحر وعمله.

قوله: (وعن جندب مرفوعاً) هو: جندب الخير الأزدي، يُكنى بأبي عبد الله، وهو قاتل الساحر، في القصة المشهورة[١]؛ وذلك أنه رأى رجلاً يدخل من فم الدابة ويخرج من دبرها، يفعل هذا والناس حوله يتعجبون، فاخترط جندب سيفه، فلما رآه فيما يبدو للناظر قد دخل في جوف الدابة، ضرب الدابة فشقها نصفين، وهلك الساحر، فأخذْ أمير تلك الناحية، وحبسه، لكن الحارس أطلقه، وقال: والله لا يسألني الله عنك. وقد اختلف في صحبته، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين[٢]، وقال أبو عبيد: إنه قتل في صفين[٣].

قوله: (حد الساحر ضربه بالسيف) ضربه بالهاء، وضُبطت (ضربة) بالسيف. وهو يدل على حكم الساحر، فتبين أن حده هو الضرب بالسيف، لكن اختلف العلماء هل يقتل ردة أم يقتل حدّاً؟ فمنهم: من قال: يقتل ردة؛ أي: كفراً.

---

(١) التاريخ الكبير، للبخاري (٢/ ٢٢٢).

(٢) الثقات، ابن حبان (٤/ ١١٠).

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٥/ ١٤٢).

ومنهم: من قال: يقتل حدّاً. وهو قول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]، وخلافهم في هذا راجع إلى تحرير محل النزاع في **نوع السحر:**

١ ـ فإن كان السحر الذي استعمله أدوية تُؤثر في البدن، فهذا لا يقتل ردة، وإنما يقتل حدّاً.

٢ ـ وإن كان سحره فيه استعانة بالشياطين، كما هو الغالب على السحرة، فيقتل ردة.

قوله: (رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف) بناء على الخلاف في جندب.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من ذكر حد الساحر، وأنه يضرب بالسيف.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم السحر.

٢ ـ أن حد الساحر ضربه بالسيف، إن كان ممن يستعين بالشياطين، لشركه.

قوله: (وفي صحيح البخاري: عن بجالة بن عبدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كتب عمر بن الخطاب: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر») هذا قضاء راشدي من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتل السحرة، وهو في حكم المرفوع.

قوله: (وصح عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها: فقتلت، وكذلك صح عن جندب. فلهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ) وهم: عمر، وحفصة، وجندب، على القول بصحبته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وفي قتل السحرة درء لشر عظيم.

---

(١) قال في الأم (١/٢٥٦): «فيقال للساحر: صف السحر الذي تسحر به! فإن كان ما يسحر به كلام كفر صريح استتيب منه، فإن تاب وإلا قتل، وأخذ ماله فيئاً، وإن كان ما يسحر به كلاماً لا يكون كفراً، وكان غير معروف، ولم يضر به أحداً، نهى عنه، فإن عاد عُزر، وإن كان يعلم أنه يضر به أحداً من غير قتل، فعمد أن يعمله عُزر، وإن كان يعمل عملاً إذا عمله قتل المعمول به، وقال: عمدت قتله، قُتل به قوداً، إلا أن يشاء أولياؤه أن يأخذوا ديته حالة في ماله».

مناسبة الآثار للباب:

ظاهرة، لما تضمنته من بيان حد الساحر، وعظم جرمه.

فوائد الآثار:

١ ـ أن حد الساحر القتل، وأنه لا يستتاب.

٢ ـ أن تعاطي السحر كان موجوداً زمن الصحابة الكرام، فمن بعدهم من باب أولى.

وقد نبّه شيخ الإسلام في بعض كلامه[1]: أن السحرة والاستعانة بالشياطين تقل في أهل الإسلام، وتكثر في أهل الكتاب، وتكثر أكثر وأكثر عند أهل الأوثان، فكل ما ابتعد الناس عن نور النبوة زاد فيهم السحر. وقد راج سوق السحرة والمشعوذين في هذه الأزمنة الأخيرة، فيوجد من يتعاطى السحر في المجتمعات الإسلامية، ولكنه عند أهل الكتاب أكثر، حتى إن بعض الدول الغربية لديهم وظيفة مصنفة، تُسمى: «ساحر»، وعند الأمم الشرقية الوثنية الأمر أعظم وأطم، فحيثما عظم نور النبوة انقشع ظلام الشياطين، وإذا ضعف نشطوا.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية البقرة.

وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، حيث ذم اليهود على الرضا بالسحر واستعماله، وأثبت خسارهم في الآخرة، بما يقتضي تخليدهم في النار.

الثانية تفسير آية النساء.

وهي قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، فالجبت من أنواعه السحر، فذمهم به.

---

(١) الصفدية (١/ ٢٣٣، ٢٣٦)، والرد على المنطقيين (ص١٨٧).

الثالثة **تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.**

كما روي ذلك عن عمر، وجابر ﷺ، وتفسير الصحابة مقدم.

الرابعة **أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.**

قد يكون من الجن شيطاناً، كما في الأثر عن عروة، وقد يكون من الآدميين، كما في قول جابر: «الطواغيت كهان تنزل عليهم الشياطين في كل حي منهم واحد».

الخامسة **معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.**

كما عدها النبي ﷺ، ولا تدل على الحصر، لكنها أبلغ من غيرها في التحريم، وفي الأثر.

السادسة **أن الساحر يكفر.**

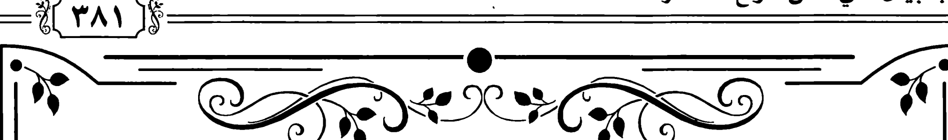
لقوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

السابعة **أنه يقتل، ولا يستتاب.**

لقوله: «**حد الساحر ضربه بالسيف**»، ولم يقل: يستتاب، وكما أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، ولم يتح لهم الاستتابة. فإن قال قائل: هل للساحر توبة؟ نقول: فيما بينه وبين الله له توبة، فالتوبة لا يغلق بابها إلا إذا بلغت الروح الحلقوم، أو طلعت الشمس من مغربها، لكن إذا بلغت الحدود السلطان فلا بد من إمضائها وإجرائها، لكن لو تاب فيما بينه وبين ربه فإن الله تعالى يقبل توبته.

الثامنة **وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟!**

يكون فيمن بعده من باب أولى وأحرى، وهو الواقع.



باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان ابن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يُخط بالأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان، إسناده جيد(١). ولأبي داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه: المسند منه(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»(٣)، رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وللنسائي: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وُكِلَ إليه»(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس»(٥)، رواه مسلم.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٠٦٠٤) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في الخط وزجر الطير برقم (٣٩٠٧)، وابن حبان برقم (٦١٣١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٤٣) وضعفه الألباني.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب تعلم النجوم برقم (٣٧٢٦)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في النجوم برقم (٣٩٠٥)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٢٨٤٠) وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم، الحكم في السحرة برقم (٤٠٧٩) وضعفه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم النميمة برقم (٢٦٠٦).

ولهما: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»[(١)].

الشرح

※ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما أورد المصنف رحمه الله في الباب السابق حقيقة السحر، وحكمه، وحد الساحر، أراد أن يثني ببيان شيء من أنواعه؛ لأنها تخفى على كثير من الناس، فعقد هذا الباب.

قوله: (قال أحمد) هو الإمام المبجل، أحمد بن حنبل، إمام أهل السُّنَّة والجماعة.

قوله: (حدثنا محمد بن جعفر) الهذلي، البصري، محدث مشهور، ثقة رحمه الله، لُقّب بغندر، وتوفي سنة ثلاث أو أربع وتسعين ومائة.

قوله: (حدثنا عوف) وهو عوف بن أبي جميلة، العبدي، البصري، ثقة، رمي بالتشيع والقدر. توفي سنة ست أو سبع وأربعين ومائة، رحمه الله.

قوله: (حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه) أبو سهلة البصري، صدوق. وأبوه صحابي، وهو قبيصة بن المخارق الهلالي، البصري، رضي الله عنه.

قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) هذه ثلاثة أنواع كلها من أنواع السحر، وقد كفانا عوف رحمه الله تعريف هذا المفردات الثلاث، فقال:

ـ **(العيافة: زجر الطير)**: كانوا في الجاهلية إذا هموا بأمر من الأمور زجروا طيراً؛ أي: صاحوا به، فإن أيمن تفاءلوا، وإن أشمل تشاءموا، وإن رأوا غراباً أو بوماً امتنعوا، ويسمونها السوانح والجوانح. فهذه أمور خرافية وهمية كانت موجودة في الجاهلية، يجمعها الاستدلال بالطيور، وأصواتها، وأسمائها، على الفعل أو الترك.

ـ **(والطرق: الخط يُخط بالأرض)**: كان هناك رمَّالون يخطون في الأرض خطوطاً، فيزعمون أن ذلك يدلهم على الأمور المستقبلة من علم الغيب.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٧٣).

ـ **(الطيرة)**: وهي التشاؤم بالطيور، وغيرها، وسيعقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لها باباً مستقلاً. فهذه الثلاثة من أنواع السحر. ويدخل في ذلك ما شابهها وقاربها، مما يحدثه السحرة؛ كالذين يزعمون أنهم يقرؤون الفنجان، أو الكف، أو غير ذلك من الدعاوى الباطلة، ويروجونه على ضعاف العقول، ورقاق الدين، ويوجد في كثير من البلاد من يجلس على الأرصفة، أو يتخذ المصاطب، ثم يأتي إليه الناس، فيدعي أنه يقرأ كفه، ويستشرف ما يقع له في مستقبل الأيام، أو يستدل بأمور لا علاقة لها على ما يقع عليه.

(قال الحسن: الجبت: رنة الشيطان) تقدم معنا: أن من معاني الجبت هو السحر، كما فسره أمير المؤمنين عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفسره الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ، بنوع آخر من أنواعه، وهي رنة الشيطان، والمراد بالرنة: الصوت، فيدخل في ذلك أصوات الملاهي، وأضافه إلى الشيطان؛ لأنها صوته ومزاميره، ومعلوم أن الصوت أحياناً يُؤثر في النفس تأثيراً ظاهراً بليغاً؛ ويروى عن الفارابي، الفيلسوف، أنه لما اخترع آلة القانون ـ آلة موسيقية كالعود وغيره ـ دخل على قوم فعزف، فأبكاهم، ثم عزف فأضحكهم، ثم عزف فناموا، وخرج(١). فهذا يدل على أن الأصوات تُؤثر في النفوس، والقلوب تأثيراً خفياً؛ ولأجل ذا حرم الشارع الحكيم المعازف بأنواعها، إلا الدف في مناسبات معينة؛ كالعرس، والعيد، وعند قدوم سلطان منتصر. وكان أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الكوفة إذا رأوا مع الجواري دفوفاً خرقوها(٢).

فالشارع الحكيم منع الملاهي؛ لأنها تُؤثر في النفوس تأثيراً شيطانياً، يورثها الغفلة، ويصرفها عن المزاج الإيماني إلى المزاج الشيطاني. ولما كانت النفس الإنسانية لها تعلق بالأصوات، فتتلذذ بها، كما تتلذذ بالطعام، والشراب، والنكاح، بمقتضى الكينونة والطبيعة، لم يغلق الشارع هذا الباب، ويكبت هذه الرغبة؛ بل أعاض المؤمنين بالقرآن العظيم، والتغني به، عن هذه المعازف المحرمة، حتى إنهم يجدون بالترنم بكتاب الله أو استماعه، لذة، وأنساً، واستمتاعاً، لا يجدها أهل المعازف في استماعهم إلى القيان والمعازف. فالله تعالى لا يغلق على الناس باباً إلا

---

(١) مجلة التراث العربي، العدد ٠٢ (ص٧).

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال (ص٥٧).

ويفتح لهم باباً خيراً منه. فيجب أن يكون هذا مستقرّاً في نفوس المؤمنين، وأن يتمسكوا بالدعوة إلى إنكار المعازف بجميع صورها، وألا يهونوا على الناس الأمر؛ بل الواجب حثهم على التنعم بقراءة القرآن العظيم، والتلذذ بسماعه من أفواه القراء المجيدين، حتى يحصل بذلك صلاح القلب. وإذا تعلق القلب بالمعازف والألحان، فإنه يطرد حب القرآن، ويستثقل سماعه. والعكس بالعكس؛ فإذا أحب الإنسان القرآن، نبذ الألحان. وهذا ذوق يجده التائبون، فمن منّ الله تعالى عليه بالهداية من المطربين، والمغنين، يحكون أن الله أعاضهم بالقرآن عن هذا، وأنهم وجدوا فيه أعظم مما كانوا يطلبونه في المعازف من السعادة.

قوله: (ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه»: المسند منه) مراده أن هؤلاء الثلاثة اقتصروا على رواية المرفوع، دون كلام عوف بن أبي جميلة، فكلام عوف عند أحمد فقط.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما تضمنه من ذكر بعض الأنواع التي تدخل في السحر.

فوائد الحديث:

١ ـ أن العيافة والطرق والطيرة، وما شابهها، من الجبت؛ أي: السحر.

٢ ـ أن رنة الشيطان؛ أي: صوته؛ كالمعازف، من السحر المؤثر في النفوس بلطف.

❋ ❋ ❋

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، بإسناد صحيح.

قوله: (اقتبس): أي: تعلم، وأخذ؛ لأنه مأخوذ من القبس، وهو الشعلة من النار، كما قال تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠] فناسب أن يعبر بها عن النجوم؛ لأن النجوم في أصلها، مادة ملتهبة.

قوله: (شعبة) الشعبة: الخصلة، أو القطعة، أو الطائفة.

قوله: (من النجوم)؛ أي: مما يُسمى بعلم النجوم، والمراد بعلم التنجيم هنا الممنوع منه؛ لأن علم التنجيم ينقسم إلى **قسمين**:

١ ـ **علم التأثير**. بأن يعتقد الإنسان أن حركة الأفلاك العلوية، تُؤثر في الحوادث الأرضية، فيزعم أنه إذا طلع نجم كذا فسيقع كذا وكذا على الأرض، وإذا اقترن نجم كذا بنجم كذا، فإنه سيحصل كذا وكذا، فهذا العلم المزعوم يُسمى «علم التأثير»، فمن اعتقد أن هذه النجوم تُؤثر بطبعها، فقد أشرك في الربوبية؛ لأنه أضاف التدبير إلى غير الله ﷻ.

٢ ـ **علم التسيير**: هو الاستدلال بالشمس، والقمر، والكواكب، ومطالعها على معرفة القبلة، والأوقات، والجهات، فهذا النوع لا بأس به؛ بل كثير منه نافع، قد حث عليه الشارع. وهذا مجرد اقتران فلكي لا تأثير له ولا تسبب. وقد منعه بعض السلف، كما روي عن أحمد وإسحاق[1]، كما سيأتي، ولكن الصحيح: جوازه.

قوله: (زاد ما زاد)؛ أي: بقدر ما يزداد من الاقتباس، يزداد من السحر. ومن التنجيم المحرم: ما يدعيه أصحاب الأبراج، في بعض المجلات، أو بعض المواقع، من الدعاوى العريضة، السخيفة؛ فيقولون: من ولد في برج الحمل، فإنه يقع له كذا وكذا، ومن ولد في برج الجدي، فإنه يقع له كذا وكذا، وهكذا، فكل هذا رجم بالغيب، ونوع من السحر.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من أن التنجيم نوع من أنواع السحر، وهو ما يُسمى بعلم التأثير.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم التنجيم الذي يقصد به الاستدلال بحركة الأفلاك العلوية على الحوادث الأرضية.

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١١).

٢ ـ أن التنجيم نوع من أنواع السحر، كما أراد المصنف من إيراده في هذا الباب.

٣ ـ أن الإثم يزداد بزيادة الفعل؛ لقوله: «**زاد ما زاد**».

* * *

ثم قال المصنف:

(وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر») على طريقة السحرة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤] وذلك أن يعقد عقدة ثم يتمتم بكلمات يستعين فيها بالجن، وينفث بريقه. والنفث دون التفل، وفوق النفخ. فالنفخ هواء، والنفث بريق خفيف، والتفل يكون ببزاق.

قوله: (ومن سحر فقد أشرك) فقد وقع في الشرك؛ لأنه لا يحصل له السحر إلا بالتقرب إلى الشياطين، والاستعانة بهم على وجه شركي؛ إما بالذبح، أو بإحراق البخور، أو بالسجود لهم، كما هو معلوم من حال السحرة، قبحهم الله.

قوله: (ومن تعلق شيئاً وكل إليه) هذه جملة عامة محكمة؛ يعني: من تعلق قلبه بشيء، واعتمد عليه، وكله الله إليه؛ فمن تعلق بالله فهو مولاه ووكيله، ومن تعلق بغيره وكله الله إليها.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة صريحة، لذكره أشهر أنواع السحر، وهو النفث في العقد، الذي يُسمى «العزيمة» في بعض البلدان، ويمارسه، وللأسف، من ينسبونهم إلى الدين، والدين منهم براء، فإن هذا ليس من شأن أهل الدين؛ بل هو من شأن السحرة والمشعوذين.

فوائد الحديث:

١ ـ بيان نوع من أنواع السحر، وهو أشهرها: النفث في العقد.

٢ ـ أن السحر شرك؛ لقوله: «**ومن سحر فقد أشرك**» لأن فيه استعانة بالشياطين.

٣ ـ أن من تعلق بغير الله وكل إليه؛ لقوله: «**من تعلق شيئاً وكل إليه**».

قوله: (عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم) (ألا) أداة تنبيه، و(أنبئكم): أخبركم.

قوله: (ما العَضْه؟) بفتح العين وسكون الضاد، مصدر: عضه يعضه، وهو الكذب والسحر.

قوله: (هي النميمة؛ القالة بين الناس»)؛ أي: السعاية بالقول ونقله على وجه الإفساد، وإيغار الصدور. وهي من كبائر الإثم، وعدها النبي ﷺ هنا من السحر؛ لأنها تفرق بين المتوادِّين بسبب خفي لطيف، كما السحر.

مناسبة الحديث للباب:

خفية، فاعتبار النميمة نوعاً من السحر، لخفاء تأثيرها، وشدته. وهذا يدل على أن مدلول السحر أوسع مما يُظن، فقد ذكر المصنف في هذا الباب أنواعاً متعددة منه، يجمعها: أنه ما خفي ولطف سببه، فتارةً يكون بعزائم، ورقى، وتدخينات، وأحياناً يكون بكلام شركي، أو سعاية، أو وشاية، وأحياناً يكون بالاستدلال بالنجوم، وغير ذلك من الطرق الباطلة.

فوائد الحديث:

١ ـ أن النميمة نوع من أنواع السحر، للطيف سببها، وشديد أثرها.

٢ ـ تحريم النميمة، وأنها من كبائر الإثم.

٣ ـ التعليم عن طريق السؤال والجواب.

* * *

ثم قال المصنف:

(ولهما عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً») البيان: البلاغة والفصاحة؛ أي: أنه يعمل عمل السحر، فيجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وهذا يقع من الكهان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ

حَامِلٌ، فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى: أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ المَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ، يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ**»(١)، فبعض الكلام المزخرف يقلب الحق باطلاً، والباطل حقّاً، فلهذا قال النبي ﷺ: («**إن من البيان لسحراً**»).

لكن هذا لا يدل على ذم البيان مطلقاً، إنما يدل هذا على ذم البيان الذي يتوصل به إلى الباطل، وأما البيان الذي يتوصل به إلى الحق، فحيَّهلا، فكم من إنسان آتاه الله فصاحة وبياناً، فاستمال بها القلوب، وجذبها إلى الحق، فلهذا اتخذ النبي ﷺ خطيباً وشاعراً، فخطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس، وشاعره: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك. فالحاصل: أن البيان إذا كان لبيان الحق فهو محمود، وينبغي لطالب العلم أن يكون عنده ذائقة لغوية، وأدبية، يحسن بها منطقه وحديثه إلى الناس، بمحسنات بديعية، وشواهد شعرية، وأمثال سيارة، فإن هذا من دواعي التأثير.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، فإن للبيان تأثيراً لطيفاً في النفوس كالسحر.

فوائد الحديث:

١ ـ أن البيان، إذا قصد به الباطل، نوع من أنواع السحر؛ لما فيه من التمويه والتدليس.

٢ ـ التحذير من فتنة القول، فقد يعجب الإنسان بالبيان، ويرد الحق من جرَّائه.

* * *

(١) أخرجه البخاري كتاب الطب، باب الكهانة برقم (٥٧٥٨)، ومسلم في القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ، برقم (١٦٨١).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.**

أي: أن هذه الثلاث من السحر، لحديث قبيصة. ويقاس عليها ما شابهها.

الثانية **تفسير العيافة والطرق.**

كما فسّرها أيضاً عوف: بأن ـ أي ـ العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط بالأرض، وهكذا سائر الاستدلالات الباطلة.

الثالثة **أن علم النجوم من نوع السحر.**

لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**».

الرابعة **العقد مع النفث من ذلك.**

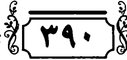
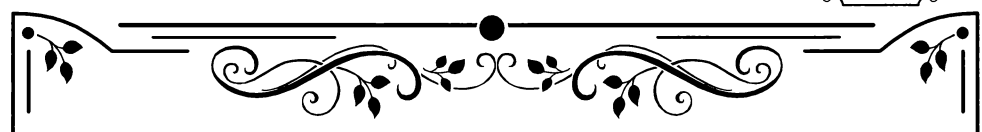
لقوله: «**من عقد عقدة فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك**».

الخامسة **أن النميمة من ذلك.**

وهي العضه، القالة بين الناس، وهي نوع من السحر؛ لكون النمام يفرق بين الناس؛ كالساحر الذي يفرق بين المرء وزوجه، لا أنها مثله في الكفر والقتل.

السادسة **أن من ذلك بعض الفصاحة.**

لقوله: «**إن من البيان لسحراً**»، فإذا كان الرجل فصيحاً فإنه يجعل الحق باطلاً، والباطل حقّاً، ويموه على الناس حتى يقبلوا كلامه، بسبب فصاحته، صار ذلك نوعاً من السحر، أما إذا كان البيان في نصر الحق، ورد الباطل فهو محمود. وقد عدد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ستة أنواع من أنواع السحر.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء، فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٢)، رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ عن أبي هريرة: «من أتى عرافاً أو كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٣).

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً(٤).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٥)، رواه البزار، بإسناد جيد.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن إتيان الحائض برقم (٦٣٩)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض برقم (١٣٥)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في الكاهن برقم (٣٩٠٤) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن إتيان الحائض برقم (٦٣٩)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض برقم (١٣٥)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في الكاهن برقم (٣٩٠٤)، والنسائي في سنن النسائي الكبرى برقم (٥٨٩٦٨)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (١٥) وصححه الألباني.

(٤) مسند أبي يعلى الموصلي برقم (٥٤٠٨).

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٧٨).

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى...»[(١)]، إلى آخره. قال البغوي: «العرَّاف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك»[(٢)]. وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: «العرَّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق»[(٣)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»[(٤)].

الشرح

قول المصنف رحمه الله:

(**باب: ما جاء في الكهان ونحوهم**)؛ أي: في النصوص من التغليظ، والوعيد، والتحذير. (**ونحوهم**)؛ أي: ونحو الكهان: وهم الرمَّالون، والمنجِّمون، والعرَّافون.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن هؤلاء الأصناف يدَّعون علم الغيب، فدعواهم هذه منازعة لله عز وجل في شيء من خصائصه سبحانه وبحمده، فكان إتيانهم منافياً للتوحيد. قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قوله: (روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة رضي الله عنها. **قوله: (من أتى عرافاً)**؛ أي: قصده، لا مجرد لقيه صدفة، وربما دخل في ذلك قصده بالاتصال بالوسائط الحديثة؛ كالمهاتفة، ودخول المواقع

(١) المعجم الأوسط برقم (١٤٠٢).
(٢) شرح السُّنَّة، للإمام البغوي (١٢/ ١٨٢).
(٣) مختصر الفتاوى المصرية (ص١٥٢).
(٤) السنن الكبرى، للبيهقي برقم (١٦٥١٤٩).

الإلكترونية، والقنوات الفضائية. والعراف كما قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن. والصحيح في معنى العراف: ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها[(١)]، فيدخل فيها الكاهن، والرمال، والمنجم، ونحو هؤلاء.

قوله: (فسأله عن شيء) شيء: نكرة فتدل على العموم؛ أي: سأله عن شيء من الأشياء التي يقصدون من أجلها، كما يدل عليه قوله: «**من أتى**»، لا مطلق السؤال.

قوله: (فصدقه)؛ أي: في خبره، وجوابه عما سأله. ولكن هذه اللفظة (فصدقه) ليست في صحيح مسلم.

قوله: (لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) عقوبةً له، وليس معنى ذلك سقوط الصلاة عنه؛ فالصلاة واجبة عليه، لكنه لا يُثاب عليها. ولا يلزم من نفي القبول نفي الصحة والإجزاء.

⁜ مناسبة الحديث للباب:

ما تضمنه من الوعيد الشديد على من أتى الكهان.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم إتيان الكهان وسؤالهم، وتصديقهم.

٢ ـ تحريم الكهانة وما شابهها من ادعاء علم الغيب.

٣ ـ أن قبول العمل موقوف على توفر شروطه، وانتفاء موانعه.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ») الذي أنزل على محمد ﷺ هو قوله تعالى:

---

(١) النبوات (٨/٣٠).

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قوله: (رواه أبو داود) ورواه النسائي، وابن ماجه كما تقدم، وأحمد[(١)]، والبيهقي[(٢)]، وغيرهم، إلا أنه قد اختلف في ثبوته، فضعَّفه غير واحد من أهل العلم، وأصح منه ما بعده.

قوله: (وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «من أتى عرافاً، أو كاهناً، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ») الأربعة هم أصحاب السنن الأربع، والحاكم، وقد تقدم، وغيرهم، وصححه العراقي رحمه الله[(٣)]، وجوّد إسناده الذهبي[(٤)]، فهذا من حيث الثبوت أصح مما قبله، أما لفظهما، فمتقارب. فعبّر في الأول: بكاهن، وفي الثاني: بعراف أو كاهن، فدل هذا على العموم.

قوله: (ولأبي يعلى بسند جيد، عن ابن مسعود، مثله موقوفاً) أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى، التميمي، الموصلي. ولد سنة عشر ومائتين، محدث، ثقة، مشهور، روى عن الإمام أحمد، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني. عُمِّر حتى ناهز المائة رحمه الله، وصنف المسند، والمعجم. وكونه موقوفاً؛ أي: أن منتهى إسناده إلى ابن مسعود، وهو صحيح إليه.

مناسبة الحديثين للباب:

ظاهرة، لما تضمَّناه من الوعيد، والزجر الشديد، والوصف بالكفر لمن أتى الكهان.

فوائد الحديثين:

١ ـ تحريم إتيان الكهنة والعرَّافين، وسؤالهم، وتصديقهم.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٩٥٣٦) وقال محققو المسند: «حديث حسن».
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٤١٢٤).
(٣) قال في فيض القدير (٦/٢٣): «وقال الحافظ العراقي في أماليه: حديث صحيح». ولم نجده في (أمالي الحافظ العراقي، أو المستخرج على المستدرك).
(٤) المهذب في اختصار السنن الكبير، للبيهقي، للذهبي (٦/٣٢٢٩).

٢ ـ وجوب تكذيب الكهان والعرافين؛ لأن التحذير من تصديقهم يتضمن وجوب تكذيبهم.

٣ ـ كفر من أتاهم، وسألهم، وصدَّقهم؛ لأن الله ﷻ قد أخبر في كتابه بانفراده بعلم الغيب، فمن صدَّق الكاهن، والعراف، والمنجم، والرمَّال، وقارئ الفنجان، وقارئ الكف، ونحوهم، فقد كفر بما أنزل على محمد.

فهذه مراتب: إتيانهم، وسؤالهم، وتصديقهم. وقد دل حديث أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، في «صحيح مسلم»، على أن من أتى العراف أو الكاهن لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، ودل حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في السنن وغيرها، على أنه كفر بما أنزل على محمد! والجمع بينهما أن يقال: من أتاه فسأله فقط، ولم يصدقه؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً؛ كما في رواية مسلم، وليس فيها قيد التصديق، ومن أتاه فسأله، وصدقه فقد كفر كفراً أكبراً؛ لحديث أبي هريرة: **(فقد كفر بما أنزل على محمد)**. وقد روى ابن حبان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً: **«مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ أَتَاهُ غَيْرُ مُصَدِّقٍ بِهِ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاة أَرْبَعِينَ يَوْماً»**(١)، لكنه حديث ضعيف؛ لأن في إسناده رشدين بن سعد المهري، يقلب المناكير في أخباره على مستقيم حديثه، كما نقل ابن حبان.

حكم من لا يأتيهم برجله، ولكن يتواصل معهم عبر البريد أو القنوات الفضائية ونحوها: وضع هؤلاء الكهان والسحرة قنوات للسحر والشعوذة، يلبسونها ثوب الدين، وقراءة الأوراد، ويغرون السذج بفك السحر، وجلب الحبيب، ويلقبون أنفسهم بالمشايخ، والشيخات، وهم سحرة وساحرات، ليأكلوا أموال الناس بالباطل. فلو أن إنساناً قال: سأشاهد القناة الفلانية لأتفرج فقط! هل يحل ذلك؟ الجواب: لا يحل؛ بل يقاس على من أتى كاهناً أو عرافاً، فإن صدّقهم انتقل إلى الوعيد الآخر، وهو الكفر بما أنزل على محمد؛ إذ ليس المقصود في تحريم النبي ﷺ لإتيانهم ذات النقلة والسفر، وإنما المقصود إتيانهم بأي طريق كان، وسؤالهم، وتصديق كلامهم. فلو وقع ذلك على أي صفة من الصفات؛ كأن يراسلهم عن طريق البريد الإلكتروني، ليستطلع ما عندهم، أو

---

(١) المجروحين، لابن حبان (١/ ٣٠٣).

كتب إليهم، أو اتصل بهم هاتفياً، فكل ذلك يدخل في الوعيد. وهؤلاء الأفاكون أخس طبقات الخلق قاتلهم الله؛ لأنهم يموهون على الناس، ويلبسون عليهم، ويزيدونهم رهقاً.

ومما وقع في السنوات الأخيرة، وسمعناه من عديد من الناس؛ رجالاً ونساءً: أنه يتصل بهم أشخاص مجهولون من بلاد إفريقية، بطريقة عشوائية، فيقول قائلهم: أنا ولي الله فلان! وقد ساقني الله إليك لأنقذك، أنت مسحور منذ عدة سنوات، وأنت لا تعلم، ألست تعاني من كذا وكذا، ويذكر أموراً مما يشترك فيها البشر من المعاناة، وضيق الصدر، والاكتئاب، وحصول بعض الأعراض الصحية، فيصدق هذا المسكين ويقول: صحيح، كيف علمت؟ فيقول: لي أصحاب من الجن الصالحين يخبرونني، وسحرك مدفون في مكان أعرفه، وربما قال: في قبر من القبور، أو ملقى في البحر، وخدمي من الجن، يمكن أن يستخرجوه، ويتلفوه، وينقذوك من شره. فحول لي مبلغ كذا وكذا على هذا الحساب، إن أردت السلامة. وبعض ضعاف النفوس يصدقهم، وينساق خلفهم، ويدعو لهم، ويذهب يحدث أهله، بأنه عرف علته، وينفذ شرطه، فلا يزال يبتزه، ويأكل ماله بالباطل، ولا يغني عنه شيئاً. فيجب تحذير الناس من هؤلاء الأفاكين، المتسلطين على ضعاف العقول والدين.

ومن ذلك: ما يوجد في بعض المجلات ما يُسمى بالبروج، فيقولون: المولود في برج كذا وكذا، يحصل له حادث سعيد، أو غير سعيد، على سبيل التخمين، والرجم بالغيب. فلا تجوز مطالعة هذه الصفحات، والمواقع، فضلاً على أن يعتقد صحة ما فيها. فدين الإسلام قائم على البينة، لا على الظنون والأوهام، ولا مجال فيه لمغرض أن يفسد العقول، والقلوب، ويسلب الأموال.

قوله: (وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس منا») هذا التعبير النبوي المراد به: أنه لا يفعل هذا من كان على سُنَّتنا وطريقتنا، فهو من الألفاظ الدالة على التبرؤ من فاعله، وأن فعله من الكبائر.

قوله: (من تطير)؛ أي: فعل الطيرة، وسيفرد المصنف باباً عن التطير والطيرة. والمقصود بالتطير بوجه عام: التشاؤم، وأصله من التشاؤم بالطير، ثم صار أوسع من ذلك.

قوله: (أو تُطِير له، أو تَكَهن أو تُكهِّن له)؛ أي: طلب من يتطير له، كأن يقول لأحد: أريد السفر إلى المكان الفلاني فازجر الطير، ليتبين لي النفع أو الضر.

(أو تَكَهن، أو تُكهِّن له)؛ أي: استشرف الغيب بنفسه، أو طلب من يستشرفه له.

قوله: (أو سَحَر، أو سُحِر له)؛ أي: باشر السحر بنفسه، أو أمر من يسحر له. وهذا يقع من الحاقدين إذا أراد مضارة آخر، بذل مالاً لساحر، وطلب منه أن يفعل به شرّاً.

قوله: (ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد) وقد تقدم مثله من رواية أبي هريرة، بقيد التصديق، كما هاهنا.

قوله: (ورواه الطبراني، بإسناد حسن، من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى» إلى آخره) فالحديث ثابت بجميع جمله، والحمد لله.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، حيث تبرأ النبي ﷺ من الكهان، ونحوهم من السحرة، ومدَّعي علم الغيب.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الطيرة، والتطير، والبراءة من فاعليها.

٢ ـ تحريم الكهانة والتكهن، والبراءة من فاعليها.

٣ ـ تحريم السحر، وطلبه، والبراءة من فاعليه.

٤ ـ تحريم إتيان الكهان وسؤالهم وتصديقهم، وأن ذلك من موارد الكفر.

٥ ـ وجوب إجراء نصوص الوعيد على ظاهرها.

٦ ـ حماية الشريعة للعقول، والنفوس، والأموال.

قوله: (قال البغوي) هو الإمام الحافظ، المحدث، الفقيه، محيي السُّنَّة، أبو محمد، الحسين بن مسعود الفراء، البغوي، الشافعي. ولد سنة ثلاث وثلاثين

وأربعمائة، وتوفي سنة ست عشرة وخمسمائة، رَحِمَهُ اللَّهُ. له مصنفات واسعة نافعة، في التفسير والفقه والسُّنَّة.

قوله: (العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك) هذه المقدمات لا علاقة لها بمحل المسروق والضالة. أما إذا كانت هذه المقدمات ذات علاقة، فهذا لا يُعد عرافة؛ بل يسمى «فراسة» و«قيافة»، ومثله ما يُسمى الآن بأدلة «البحث الجنائي»، فيستدل بها على مكان المسروق، أو المختطف، أو الضال، بناءً على تتبع الأثر، أو البصمات، فما كان بمقدمات حسية، حقيقية، متعقلة، فليس من العرافة التي نهى عنها النبي ﷺ، وأكفر فاعلها.

قوله: (والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل) وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وذلك أن قرينه من الجن يتصل بقرين الإنسان، فربما أخبر عما خبأ في ضميره. فالكاهن يخبر بأمور مغيبة، أما حاضرة، وإما مستقبلة، وإما في النفس، وما أخبر به من الأمور المستقبلة، فوقع، فهو مما ناله من مسترقي السمع، كما تقدم.

قوله: (وقال أبو العباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن، والمنجِّم، والرمَّال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق)(١)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتاوى»: («الْعَرَّافُ» قَدْ قِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ عَامٌّ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَقَدُّمِ الْمَعْرِفَةِ، بِهَذِهِ الطُّرُقِ. وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، فَسَائِرُهَا يَدْخُلُ فِيهِ بِطَرِيقِ الْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ)(٢). فوسَّع شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ مدلول كلمة (العراف) بحيث شملت كل من ادعى المعرفة بواسطة هذه الطرق المزعومة، سواء كان عن طريق التنجيم؛ بحركات النجوم، والأفلاك، والأجرام العلوية، فيستدل بها على الحوادث الأرضية، أو الرمَّال الذي يضرب في الرمل، فيقول: يقع كذا، ويقع كذا، أو غيرهم من الأفاكين؛ كقارئ الكف، والفنجان، فإن هؤلاء جميعاً داخلون في لفظ العراف.

---

(١) بنحوه في النبوات (٣٠/٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣).

وقال ابن الأثير: (الكاهِنُ: الَّذِي يَتَعاطَى الخَبَرَ عَنِ الكائِنات فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ، ويَدَّعي مَعْرِفَةَ الأسْرار. وَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ كَهَنة؛ كَشِقّ، وسَطِيح، وغيرِهما، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَزْعمُ أَنَّ لَهُ تابِعاً مِنَ الجِنّ، وَرَئِيّاً يُلْقِي إِلَيْهِ الْأَخْبَارَ، وَمِنْهُمْ من كَانَ يَزْعمُ أَنَّهُ يَعْرِف الْأُمُورَ بمُقَدِّمات أسْباب يَسْتَدلُّ بِهَا عَلَى مَواقِعها مِنْ كَلَامِ مَن يَسأله، أَوْ فِعْلِه، أَوْ حَالِهِ، وَهَذَا يَخُصُّونه بِاسْمِ العَرَّاف؛ كَالَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ المَسْروق، وَمَكَانِ الضَّالَّة وَنَحْوِهِمَا. وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ «مَن أَتَى كاهِنا» قَدْ يَشْتَمِل عَلَى إتْيان الكاهِن، والعَرّاف، والمُنَجِّم)[1].

قوله: (وقال ابن عباس) هكذا أطلقه المصنف، ولم يعزُه، وقد أخرجه عبد الرزاق[2]، والبيهقي[3]، وإسناده صحيح.

قوله: (في قوم يكتبون (أبا جاد»)؛ أي: حروف «أبجد هوز حطي كلمن»، ويقال عنها: أبا جاد، وتُسمى الحروف الأبجدية. أما الحروف الهجائية فهي: أ ب ت ث ج ح...، إلى الياء. وليس معنى: «يكتبون أبا جاد» مجرد الخط باليد، فإن هذا مباح؛ بل مستحب، لكونه وسيلة لحفظ العلم، وتوثيق العقود، والوصايا، والأوقاف، وغيرها، ولا يدخل فيه أيضاً تعلمها لحساب الجمَّل، فقد كانوا يُؤرخون لبعض الحوادث بكلمات أو عبارات دالة على التأريخ؛ فيجعلون الأحرف الأولى تقابل الأعداد الفردية، والأحرف التي تليها تقابل العقود العشرية، والتي تليها تقابل المئوية. مثال ذلك: أرخوا لتجديد عمارة الجامع الكبير في عنيزة، زمن الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، رَحِمَهُ اللَّهُ، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف (١٣٦٢هـ) بعبارة (اغفر لنا).

وإنما أراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أمراً كان جارياً عندهم، وهو أنهم يُقطِّعون حروف (أبا جاد)، ويتعلمونها لاستكناه علم الغيب، فهذا الذي أنكره ابن عباس، بدليل الجملة التالية.

قوله: (وينظرون في النجوم) فهم منجمون، وليس المقصود النظر المجرد، فإنه مباح، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقد

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢١٥).
(٢) مصنف عبد الرزاق برقم (١٩٨٠٥). (٣) سبق تخريجه.

يكون مستحباً، كما لو قصد التفكر والاعتبار، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]. والنظر المنهي عنه هنا، نظر خاص، وهو الاستدلال بحركة النجوم، ومطالعها على الحوادث الأرضية، فيزعمون أنه إذا طلع النجم الفلاني، واقترن بالنجم الفلاني، ستقع حرب مثلاً! والمنجمون موجودون قديماً، وحديثاً، وسيفرد المصنف باباً عن التنجيم.

قوله: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق): (ما أرى) بفتح الهمزة، وتصح بضمها؛ أي: ما أعلم، وبالضم أي: ما أظن. و(خلاق) أي: نصيب. وهذا تكفير من ابن عباس رضي الله عنهما لهؤلاء؛ وكأنه قاسهم على السحرة، كما قال الله عز وجل: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

❋ مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنه من كُفر من ادعى الغيب بكتابة (أبا جاد)، والنظر في النجوم؛ كحال الكهان، وأنهم لا خلاق لهم في الآخرة.

فوائد الأثر:

١ ـ تحريم تعلم (أبا جاد) بدعوى التوصل إلى الأخبار المغيبة.

٢ ـ تحريم التنجيم.

٣ ـ كفر من فعل ذلك، لنفي الخلاق عنه في الآخرة.

* * *

قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

إذ كيف يُصدِّق الكاهن الذي يدعي علم الغيب، مَن يؤمن بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]؟!

الثانية **التصريح بأنه كفر.**

لقوله: «**فقد كفر بما أُنزل على محمد**»، فتجرى على ظاهرها.

الثالثة **ذكر من تُكِهن له.**

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التأكيد على أن الطالب كالفاعل، فلو تورع فزعم بأنه لا يريد أن يتكهن هو بنفسه، لكن أوصى غيره فإنه يدخل في الوعيد أيضاً. لقوله: «**أو تُكهن له**».

الرابعة **ذكر من تُطير له.**

كذلك، لقوله: «**أو تُطير له**»، والراضي كالفاعل، فكيف بالآمر.

الخامسة **ذكر من سُحر له.**

كذلك، «**أو سحر له**»؛ فكأنه فعل ذلك بنفسه.

السادسة **ذكر من تعلم (أبا جاد).**

أي: على هذا الوجه المذموم شرعاً، وهو أن يستدل بتقطيع الحروف على الأمور المغيبة، فقد وقع في الرجم بالغيب.

السابعة **ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.**

كما قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون الكاهن: من يخبر عن المغيبات في المستقبل، والعراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات غير متعقلة، يستدل بها، وإما أن العراف اسم يشمل الكاهن، فيكون من باب العام والخاص، وقيل: إنهما بمعنى واحد، والله أعلم.

تم الجزء الأول


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 338148